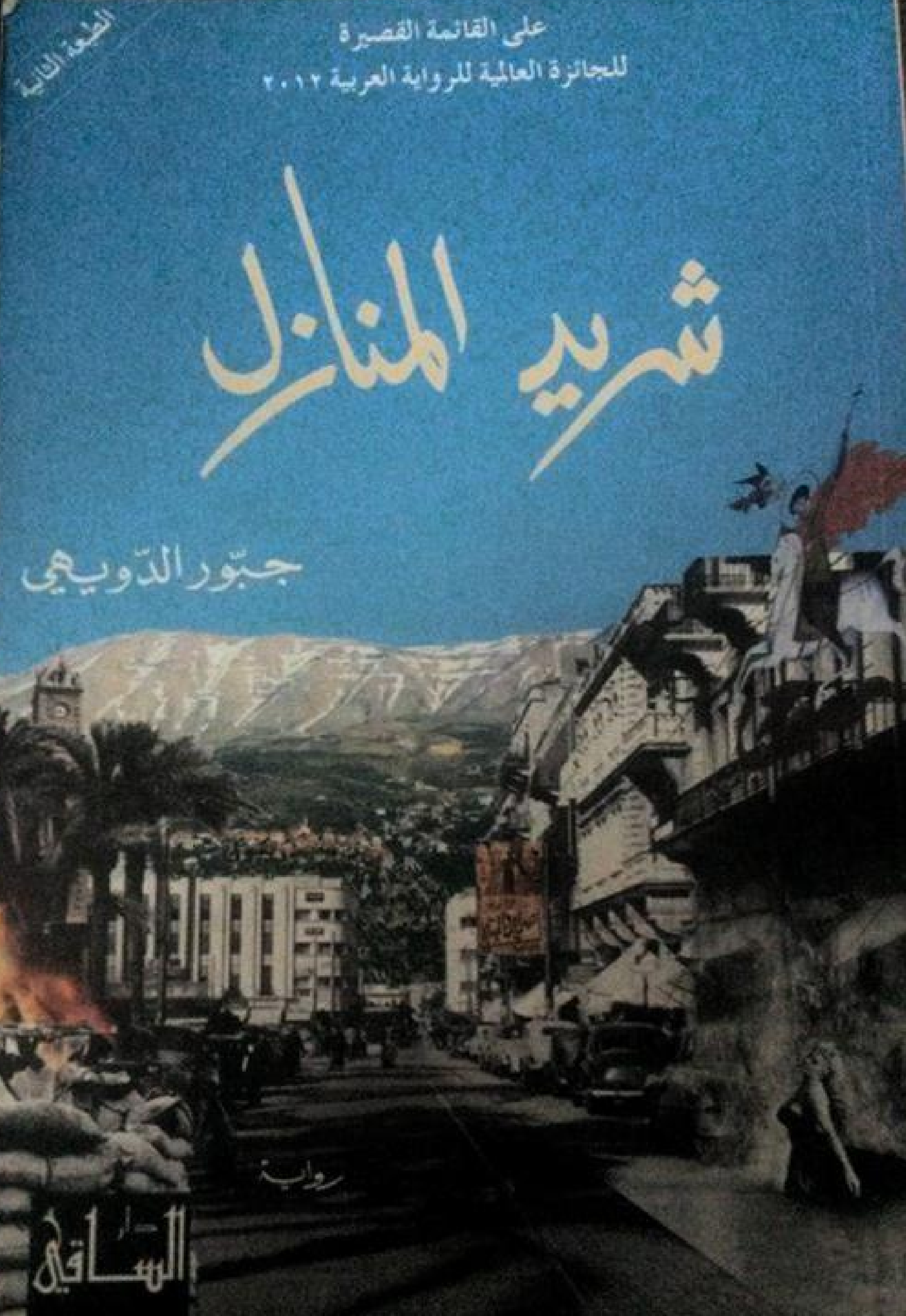


الطبعة الثانية
على القائمة القصيرة
للجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠١٢
شريد المنازل
جبّور الدويهي
رواية
دار الساقي

تصميم الغلاف: سحر مغنية
خطوط العناوين: علي عاصي

تصميم الغلاف: سحر مغنية
خطوط العناوين: علي عاصي

جبّور الدّويهي

شريد المنازل



الطبعة الأولى، دار النهار 2010
الطبعة الثانية، دار الساقي 2012

ISBN 978-1-85516-870-1

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

الى جاد وأنسي وبشرى وغبريال وأيمّا



المحتويات



الفصل الأول

الخزامى وأشياء أخرى



1

فجأة صار الاصطياف في حَورا أقرب إلى العدوى.

حَورا بسطوحها القرميد الجالسة بصعوبة بين جبل صخريّ يسمّونه باب الهواء ودير القديس يعقوب الحبشي الذي لم تُعرف له سيرة حياة مؤكّدة.

انتشرت في المقهى البرازيلي في طرابلس قرب برج الساعة العثمانيّ أصداء ضاحكة لمباريات المصارعة الحرّة على شرفة أوتيل بالاس، فوق، بين النسر المقنّع وفتى النيل، وهي أسماء رنّانة لأشباه الهواة، يطيلان العراك ويتقاسمان الأرباح مناصفة.

وصلت أيضاً أخبار تصوير فيلم القلب الضائع في بساتين التفّاح العامر الأغصان في أعالي حَورا حيث ترك المزارعون أعمال الريّ ومعاديرهم على أكتافهم يلتهمون بنظراتهم الممثلة الحسناء وهي تتبرّج قبل أن يطلب المخرج السكوت صارخاً:

«أكشن!»

شهود عيان رددوا تفاصيل المراهنات المتهوّرة لثريَّين حلبيَّين يشترطان اللعب وحدهما فوق طاولة الروليت الكلاسيكية وكثر الهمس والغمز حول نساء من بنات عائلات معروفة يلعبن البكارا

وظهورهن عارية وكأس الويسكي المثلّج لا يفارقهنّ.

وحَورا لم تحلُ فعلاً في نظر هؤلاء المعتادين على الاصطياف وغيرهم من تجّار سوق البازركان أو موظّفي المحافظة والمرفأ إلاّ يوم سرى الخبر بأن شقيق مفتي المدينة اشترى فيها بيتاً محاطاً بأشجار الكرز.

«اشترى؟»

نعم، اشترى ودفع ثمن البيت نقداً.

في تلك الصيفية لم تبق غرفة واحدة بلا إيجار، نام الكثيرون من أبناء البلدة في خيم فوق السطوح ليفرغوا منازلهم أمام المصطافين. كذلك وقع فيها شهر رمضان فحمّل رئيس البلدية بائع الليموناضة المتجوّل طبلاً صغيراً راح يضرب به عند الفجر في جوار بيوت العائلات المسلمة بعد أن همس له أحدهم بأن ينادي:

«قوموا على سحوركم، جايي النبي يزوركم...»

كان يوقظ الجميع مسلمين ومسيحيين. يخرج بعض هؤلاء إلى الشرفات حانقين بلباس النوم، وما إن يُدركون الغرض من الضجيج حتى يستسلموا محاولين بصعوبة العودة إلى السرير كي لا يخرّبوا الاصطياف، كما يقولون.

والاصطياف كاد يخرب في ذلك العام عندما أفرغ أمين صندوق البلدية رصاصات مسدّسه في بطن ضابط في الجيش بعد أن تأكد أن هذا الأخير يختلي بزوجته الفاتنة الجمال والقليلة العقل. فرّ الرجل إلى أحراج الصنوبر العالية فتلقى الجيش أوامر باعتقال جميع ذكور البلدة البالغين فأقدم بعض الجنود أيضاً على إصعاد من التقوه من المصطافين من أبناء المدينة في الشاحنات عنوة وبأوامر غاضبة. حاول هؤلاء الاعتراض بالقول إنهم غرباء يمضون فقط فصل الصيف هنا، لكن

الرقيب، وكان درزياً من بلاد الشوف، ظنّ أنهم يكذبون ليتهرّبوا. طلب من سائق الشاحنة الانطلاق فتدخّل أحد أبناء البلدة موضحاً للرقيب أنه إذا كان يحقّ له سجن أبناء حَورا فلا دخل للمصطافين في القضية وعليه إطلاقهم. لم يتراجع الرقيب عن قراره إلى أن خطر لأحد المعتقلين أن يعرّف عن اسمه، عبد المجيد، واسم والده، أحمد، واسم رفيقه الجالس إلى جانبه، محمد علي، فانتبه العسكري إلى غلطته. طلب هوياتهم وتحقق منها وأطلق المسلمين منهم في منتصف الطريق فاضطروا إلى انتظار من يقلّهم رجوعاً إلى عائلاتهم. لم يجد القاتل من يؤويه في الجرد العالي وقد أصابه الإعياء فخاف إن هبط الليل عليه في البريّة أن يموت من سكتة قلبية، فاستسلم بسرعة وانتهى الأمر.

في شهر أيار التالي قرر محمود ياسر العلمي أن الحرّ في المدينة لم يعد يُطاق.

راح يزعم كل يوم، مع هبوط الليل وعودته من عمله في مكتب السفريات، أنه يختنق في غرفة الجلوس، يخرج إلى الشرفة نصف عارٍ طالباً من زوجته صباح أن تقدّم له العكّوب بالأرزّ مع اللبن خارجاً. يتحمّل لسعة هواء الليل البارد أحياناً ليبرهن أنه لم يعد ممكناً تمضية فصل الصيف على طريق الميناء في جوار جامع البحر، مقابل محل باتيسري مودرن.

كان قد وفّق قبل أيام ببيت صيفي في حَورا، عن طريق سمسار انتظره في مقهى البلدة كي يصحو من سكرة الليلة السابقة ليدور به على المنازل الفارغة التي يحمل مفاتيحها. وكان يضطر في كل مرة إلى تجريبها في الأقفال واحداً واحداً وهو يتعثّر ويغمغم، حتى

رضي محمود بمنزل فسيح سقفه من القرميد ويملكه زوجَان تقدّما في السنّ و لم يُرزقا أولاداً لأن رخيمة، الزوجة، كما جزم سمسار البيوت المترنّح، «مثل عمّتها، صوتها يرتجف ولا تحبل». وللزوجين في الجوار بيت آخر يسكنان فيه.

كانت حمّى الاصطياف قد طالت محمود بعد أن قام للسنة الثانية بتنظيم رحلات إلى الحجّ بالطائرة وكان يحرص على تأمين التأشيرات لزبائنه ومرافقتهم إلى مكّة المكرّمة ومنها إلى المدينة لزيارة قبر الرسول. كان يعدّ هكذا لأولى مظاهر الرفاه في حياته منذ زواجه بابنة تاجر أغنام من مدينة حمص كان يتردّد على خاله في سوق العطّارين، عندما انفجرت في طرابلس تظاهرات في ذكرى قرار تقسيم فلسطين. حشد مرتجل من الشبان الغاضبين بعضهم يحمل العلم العربي يهتفون منطلقين من جهة الجامع المنصوري الكبير في الأسواق القديمة نحو ساحة السرايا، كادوا يحطّمون له باب مكتب السفريات لمجرّد أنه اختار له تسمية أورينت تورز مكتوبة بالحرف اللاتيني، لو لم يقف في وجههم ويصعد على كرسي وضعها على الرصيف وراح يصرخ بهم أنه ابن الحاج ياسر العلمي الذي قاد إضراب عام 1936... فانكفأوا عنه سعياً وراء هدف أقلّ التباساً. كانت هذه القلاقل حجة مناسبة كي يُبكر محمود في نقل عائلته إلى المصيف الجديد في سيارته الستروين د. أس 19.

الطريق الموصلة إلى حَورا تلتفّ حول المرتفعات وتطلّ على الأودية المسكونة بالأديرة، فكان ابن محمود العلمي الوحيد يُغمض عينَيه خوفاً بينما تبقى أخته شاخصة إلى المنحدرات لا يرفّ لها جفن. البيت المفروش الذي استأجروه جميل الواجهة، سقفه عالٍ وأمامه مصطبة

يمكن إخراج الكراسي والجلوس عليها لاحتساء القهوة بحبّ الهال عصراً وتأمّل المقرّ الصيفي للبطريركية المارونية يغرق تدريجاً في روعة المساء.

تبدّلت بهم الحياة في يوم واحد فلم يناموا جيداً على علو ألف ومئتَي متر في الليلة الأولى التي كانت حارة وحابسة أكثر من ليالي الميناء حيث هواء البحر يلطّف الأمسيات. تقلّبوا في أسرّتهم وبقي يسمع صرير حديد التخوت حتى ساعة متأخرة قبل أن يستسلموا للنوم بُعيد الساعة الثانية صباحاً.

الصبي، نظام، نهض من سريره قبل طلوع الفجر باكياً حاملاً مجسّم طائرة نفّاثة كانت شركة الخطوط البريطانية أهدتها لوالده تشجيعاً لجهوده كي يزيّن به مكتب السفريات. تشبّث الصغير بها خلال إحدى الزيارات التي كانت أمه تباغت بها أباه في المكتب وبات لا ينام بدونها، يتأمل تفاصيلها ويقرأ المكتوب عليها قبل أن يغفو. وهو لا يغفو إلا إذا تأكّد أنه محاط ايضاً بسيارة الجاغوار الصغيرة وبالسعادين الثلاثة المحشوّة قطناً، الأعمى والأبكم والأطرش، ومسبحة انتزعها من يد عمّته زين الدار يوم كانت تتلو عليها أسماء الله الحسنى.

فتح عينَيه كأن صوتاً صارخاً أيقظه. نهض وخرج من غرفته إلى الشرفة وهو يشهق باكياً فاستفاقت شقيقته الكبرى ميسلون على صراخه ولحقت به حافية خائفة عليه أن يؤذي نفسه وهو يمشي نائماً. يتشاجران ولو مرّة في اليوم لكن عند حاجته إليها تحضر بلا نداء. وضعت يديها على رأسه وتمتمت آية قرآنية سمعتها من عمّتها و لم تحفظها جيداً ثم جلست بجانبه فهدأ قليلاً لكنه بقي تحت وطأة المنام. سألها هامساً:

– لماذا لا تأتي أمي لنجدتي عندما أناديها؟
– أين؟
– في شارع بور سعيد...
– ماذا تفعل في شارع بور سعيد؟
– أنا هارب والسماء تمطر والناس في الميناء يسخرون منّي وهي لا تردّ عليّ، لا تسمعني...

كان يحكي وهو يلوّح بطائرة الخطوط الجوية البريطانية فكاد يجرح بها وجه ميسلون التي لم تعرف بما تجيبه. اكتفت بضمّه بين ذراعيها فنام واضعاً رأسه على صدرها وغفت هي أيضاً حتى شروق الشمس حيث أيقظهما محمود الذي فوجئ بهما وهو خارج إلى الهواء الطلق باحثاً عن التمتّع بصباحات الجبل الموعودة.

في اليوم التالي وقبل أن ترتب صباح البيت، بدأت تسعى للتعويض عن شعور الغربة الذي انتابهم جراء الانتقال المفاجئ. استعلمت عن نساء المدينة المصطافات في الجوار كي تدعوهن إلى صبحية عندها على أمل أن تنطلق العادة فتستعيد شيئاً من طعم الحياة التي تعرفها.

بعد فوضى البدايات، بدأت الأيام تتوالى برتابة. محمود ينزل إلى المدينة كل صباح، وقيل في مثابرته على قطع هذه المسافة الطويلة أن لا طاقة له على فراق مدام جانيت، وهي إحدى موظّفتَين تديران أعماله في المدينة. ما يكاد محمود يغادر المصيف إلى مكتب سفريات الشرق الجديد الذي انصاع لكتابة لافتته باللغة العربية فقط حتى تبدأ نساء المدينة من المصطافات بالتوافد. يتنقلن مداورة بين البيوت مع أرجحية لبيت العلمي الذي سرعان ما يعبق برائحة الفحم والتنباك العجمي وسط الأحاديث التي كانت تتناول الغائبات عن الصبحية عموماً.

ينسحب نظام وميسلون إلى الشرفة حيث لا يجد الصبي الضجور ما يسلّيه سوى عدّ السيارات القاصدة غابة الأرز بالصوت العالي، فيقف ممسكاً بطائرته مترقباً كلّ ما يعبر في الطريق الملتوية صعوداً، بينما تكتب ميسلون على دفتر صغير، حالمة مستوحدة. لم تسع و لم تجد لنفسها رفيقات من بنات البلدة لكنها على عكس نظام لا تعاني الضجر وتكتفي بما يعطى لها. ولدت كبيرة تقول عنها أمّها، وتضيف أحياناً ومن دون سبب واضح:

– ستتعذّب ميسلون في حياتها.

ميسلون، نظام، اسمان تندّر بهما طويلاً جيران آل العلمي في الميناء قبل أن يعتادوا عليهما. فمحمود الذي بدأ حياته التجارية بفتح مكتبة في شارع عزّ الدين، أمضى وقتاً طويلاً بعد انقضاء مواسم الدخول إلى المدارس وتراجع حركة البيع، في قراءة كتب كانت شائعة مثل **نشوء الأمم** و**في سبيل البعث**، حتى إنه تنطّح لكتاب **رأس المال** وقال عنه بعض معارفه ساخراً إنه حاول قراءة كتاب كارل ماركس من باب المكابرة، ويؤكدون أنه كان يبقى ساعات يقرأ ولا يفهم ويتابع مع ذلك تقليب الصفحات. وكان هؤلاء محقّين ربما لأن محمود العلمي لم يتمكن يوماً من الأفكار بالرغم من تنطّحه الدائم لها. ولا يتذكّر صحبه القدامى مداخلة له ذات مغزى عندما كانت المكتبة تتحول في الأوقات الميتة تجارياً إلى ملتقى لأساتذة في المدارس الحكومية وموظّفين في مصلحة المياه او في دوائر البلدية. لا يجدون مقاعد كافية لجلوسهم فيقفون متكئين على رفوف الكتب، يدخّنون ويتجادلون عالياً في تأميم قناة السويس أو في تأثير اللغة والدين على وحدة الشعوب. وكان محمود

المتمترس خلف مكتبه يحاول عبثاً المشاركة في النقاش المحتدم حول واجب تعليم النساء أو حول انقلاب الضباط الأحرار في مصر. ينجح أحياناً في لفت انتباه المتساجلين بالطرق على سطح المكتب فيعطونه فرصة للإدلاء بدلوه. إلاً أن الفكرة البسيطة التي يتفوّه بها، ودخوله الأبواب المشرّعة، بأن ينهض منفعلاً من دون مقدّمات ليقول إن «اليهود أعداء لنا في ديننا ووطننا»، وذلك مهما كان موضوع الحوار، سرعان ما كانت تدفع بالآخرين إلى مقاطعته ومتابعة التعبير عن أفكارهم التي لم ينجح في مجاراتهم فيها.

وكان محمود يتيه عن الجدال إذا ظهر في باب المكتبة أحد معارفه، سمسار العقارات أو صاحب الملهى الليلي بعينيه الحمراوين من فرط السهر. أصحاب يخجل من تعريفهم بالفصحاء المتحلقين حوله فيفضل استقبالهم في الغرفة الخلفية مع القواميس ومجموعات الصحف المحلية القديمة فيتهامسون في مداولات حماسية وغامضة. مفلح الحاج حسن كان في المقابل مدعاة اعتزاز لمحمود. يدخل الرجل الكبير الجسم من باب المكتبة وهو يتقدّم بالعرض مرتدياً العقال والكوفية البعلبكية ملقياً السلام بلهجته البقاعية النافرة فينهض محمود عن كرسيّه ليعطيه مكانه متوعداً روّاد المكتبة بأن من جاء سيلقّنهم درساً في السياسة والتاريخ. يصغون إلى ابن العشيرة المتخرّج من الجامعة الأميركية في بيروت والمصرّ على لباسه التقليدي ولهجته يسترسل في الدعوة إلى المناقبية والتمسّك بالهويّة السوريّة إلى أن ينفرط عقد الجلساء مع اقتراب موعد الغداء فيختلي مفلح بمحمود في شؤون لم تُعرف طبيعتها إلا بعد حين.

شخص آخر فقط كان يعطيه محمود كرسيَه هو الشيخ باسم الخطيب الذي يكرّر بضحكته المجلجلة كلما عرّج على «مكتبة الملحدين»

كما يسمّيهم ممازحاً بأن من العبث السعي إلى التقدّم خارج الدين وبأن اضطرابات كبيرة ستقع لأن الفقراء لن يمهلوا أهل الحكم، وبأن إسرائيل هي التحدي الأكبر وهو في صدد توسيع نظريته في كتاب سيجدونه قريباً على رفوف هذه المكتبة بالذات وسيكون بعنوان **العدل في الإسلام**، يطلقه متحدياً ومشدداً على حرف الجرّ ليقول إنه لا عدل إلاّ في الإسلام.

ولما وُلدت ابنة لمحمود طرح تسميتها على روّاد المكتبة مطالباً إياهم بتخليصه من أسماء شقيقاته نجيحة وزين الدار، فانهالت الاقتراحات عليه. وبين جمال تيمّناً بالرئيس المصري المناضل وسوريا تمجيداً لسوريا الكبرى، فضّل اختيار اسم ميسلون ولو أن المعركة المعروفة انتهت بمقتل يوسف العظمة وانكسار الجيش العربي الطريّ العود في مواجهة القوات الفرنسية.

مع ولادة الصبيّ كانت مكتبة الثقافة الجديدة تحتضر ويقع صاحبها ضحية المرابين وخصوصاً واحد منهم يلبس قبعة إفرنجية ويتعتع بالكلام إلى درجة أن محمود كان يأخذ منه المال ويوقّع له على السندات ولا يفهم إلا لمعات مما يقوله. الفائدة تتضاعف والمرابي يزيد تعتعة وتهديداً باللجوء إلى المحكمة ومحمود يقترح تسويات وتأجيلات ولا يفهم اعتراضاته حتى اتفقا على أن يجلب المرابي معه شخصاً يفسّر ما يقوله. وكان أكثر ما يحزّ في نفس محمود أنه في كل مرة يقبل بإمهاله أو يوافق على تأجيل استحقاق أحد السندات كان يختار من الواجهات مرة **مذكرات تشرشل** ومرة **الحرب والسلم** في جزءين فيحملها ويخرج من دون أن يلتفت إلى صاحبها باعتبار انها ثمن لتساهله في تحصيل ماله عندما يستحق.

قرّر محمود العلمي الاتّكال على نفسه في اسم الصبيّ خصوصاً أن أصحابه المفوّهين كانوا قد هجروه في هذه الأثناء، مع تكاثر همومه المالية. وكان قد تأثّر كثيراً في آخر رواية قرأها، بمصير الوزير الفارسي المصلح نظام الملك وكيف أرسل إليه الحشاشون صبياً جاهلاً ليطعنه حتى الموت، فقرّر التجرؤ على تسمية ابنه نظام المُلك كاملاً فيفاجئ بسعة اطلاعه أصدقاء المكتبة السابقين. رفضت صباح في البداية خشية أن يتحوّل اسم الطفل مسخرة منه لكنها عادت وتذكّرت أن إحدى صديقات أمها في حماه كانت تدعى أم نظام وكانت تأتي لها بغزل البنات فوافقت على نظام بدون المُلك متذمّرة فقط بأنه سيكون من الصعب تدليله.

جاء الصبي فانفتح باب الفرج في وجه والده بعدما أصغى، من يأسه أمام فرص العمل المقفلة في وجهه، إلى نصيحة المرابي نفسه الذي صار كلما دخل المكتبة عند استحقاق سنداته اللعينة يوبّخه وهو يشير إلى الكتب نافضاً الغبار عن سترته ومؤكداً أنها لا تأتي إلاّ بالعثّ. ثم تنفرج أساريره عندما يقترح على محمود أن يتاجر بالسفر وهو يقلّد بذراعَيه العصفور الذي يضرب الهواء بجناحيه. تحوّلت المكتبة إلى مكتب سفريات، انقطع عنه الأصدقاء القدامى باستثناء مفلح الحاج حسن الذي كان يأتي في الشتاء متدثراً بعباءة من وبر الجمل وبيده مسبحة طويلة ليكمل مداولاته مع محمود العلمي.

بدأت السفريات تحقق مداخيل أراحت محمود من ديونه، حتى إنه بدأ بتوفير المال في حساب فتحه في فرع المصرف القائم في الشارع المقابل. كان كلّما عاد من مباراة التحدّي في طاولة الزهر بينه وبين

أحد تجار الأقمشة من أصدقاء المدينة في أوتيل بالاس في حَورا، يجلس على شرفة منزله الصيفي مواجهاً غروب الشمس فينتابه للمرة الأولى في حياته شعور خفيف بالارتياح والرضى. يخصّ ميسلون بمداعبة لم تعتدها ثم يسأل عن نظام الذي لم يكن يجد لنفسه مكاناً في البيت قبل الظهر فينزل إلى الفسحة الخلفية حيث لا يمكن رؤيته من الشرفة فكان على شقيقته الذهاب إلى نافذة غرفة النوم والتأكد من سلوكه هناك كلما خفت صوته أو غابت ضجّته. لكن سرعان ما اكتشف نظام برج المراقبة هذا فصار ينقل ألعابه إلى حيث تعجز عن اكتشافه.

كان الجيران يتحرشون به في الدكّان القريب أو في الطريق، يطيلون النظر إليه، ومن النساء من يمسكنه من ذقنه ليثبّتن وجهه تحت أنظارهن ويتأملن قسماته وعينيه الزرقاوين، يتوحّمن عليه، هو يبتعد رافعاً كتفه وهنّ يتمتمن:

«باسم الصليب!»

يستغربون في سرّهم كيف يكون الصبي مسلماً وله هذا اللون الأشقر مدّعين أن لعائلته ربما أصولاً كرديّة. يبسبسون له أو ينادونه باسمه صراحة عند إطلالهم من شرفات بيوتهم أو يلمسون شعره المتموّج ويداعبونه سرقة عند عبورهم الفسحة قبل أن ينفر منهم إلى حيث كان يلعب بالكرة وحده مع الجدار بحماسة لا تفتر.

يقذفها فترتدّ، يقذفها بقوة أكثر فترتدّ، إلى اليوم الذي اكتشفت فيه ميسلون وهي تلقي عليه نظرة اطمئنان، كيف غطّى الجدار برسوم بالفحم الأسود لوجوه نساء، مع ضفيرتَين لكل منها، كتب تحتها أسماء أمه وشقيقته وضيفات الصبحيات، أم أحمد، فاطمة الحلواني أو الحاجة افتخار. يتراجع ويركل الكرة ويهلل فرحاً ما إن يصيب إحداهنّ إصابة

مباشرة. ضحكت ميسلون في سرّها و لم تخبر أحداً. كذلك لم تسارع إلى الكشف أمام أمها أن نظام يلعب مع صبيّين من الجيرة سمعتهما يكفران بإطلاق السباب والشتائم على العزّة الإلهية والأموات ونظام كان يفرح بشتائمهما، يضحك منها طويلاً، يضيف عليها ويجرّبها بدوره في حقّ كل ما يتحرّك في الجوار، طيرٌ يرفرف أو جرّار زراعيّ يطول ضجيجه. يطلقها متسلسلة ويضحك بينما لا يضجر رفيقاه من تقليد لهجته الطرابلسية، يكرّران كلماته ويقهقهان بدورهما وهو يشاركهما مطاردة القطط والكلاب واكتشاف أعشاش عصافير الدوري. وكان عندما ينفكّ عقد النساء يماطل قدر الإمكان في ألعابه إلى أن يسمع منبّه سيارة والده فيرمي الكرة إلى رفيقَيه المتواريين في الخلف ليلعبا في غيابه ويدخل البيت مسرعاً لتناول الغداء مع العائلة حيث يلتهم كل ما تصل إليه يداه بعد أن نسي نفسه بلا أكل طوال قبل الظهر. يُفرض عليه من بعدها الصمت المطبق لأن محمود ما يكاد يخبر صباح مثلاً بمقتل أحد القبضايات في سوق الذهب في المدينة على يد شاب لم يتحمّل إهانة منه حتى يسارع إلى التمدّد فوق الأريكة في الصالون رافضاً الدخول إلى غرفة النوم مدّعياً في كل مرة أنه لا يريد النوم طويلاً، ما يمنع على الجميع الاستماع إلى الراديو أو حتى التحادث خشية إيقاظه، فهو متعب من نزوله وطلوعه اليومي.

ينسل نظام إلى الخارج من جديد ليعاود لعب الكرة مصوّباً على رؤوس النساء، وكان قد بدأ يشرك رفيقَيه في اللعبة حتى ركل أحدهما الكرة ذات يوم عالياً فطاشت في البعيد. استاء نظام والتفّ حول الجدار لاهثاً متوعداً المذنب، فوجد باب الحديد مفتوحاً.

2

تقدّم بضع خطوات مسروقة داخل البستان ثم توقّف ليصغي إلى صوت ما، إلى وجود أُنس، قبل أن يكمل سَيره، متهيّباً، كمن يلج دنيا الأسرار غير المحسوبة. نسي ما هو باحث عنه وهو يتأمل شجرة الجوز العبيّة والشمس تخترقها فتجعل أوراقها الخضراء شفافة غارقة في غبار الضوء الدقيق الذي يمدّ حبالاً طويلة من نور في أرجاء البستان. اقترب من نبتة ورد أحمر ضخمة يمكن الجلوس في فيئها عندما سمع صفير الرجل الذي ظهر حاملاً مقصّ التقليم بيد وكرة نظام الضائعة باليد الأخرى. كان مربوع القامة عالي الكتفين وأقرب بهندامه المرتّب إلى أصحاب الحرف الأنيقة: بنطال مع حمّالات على الكتفَين، قميص نظيف مزرّر إلى أعلى وقبعة بناما بيضاء. لا تفضح عمله في البستنة سوى جزمة الكاوتشوك الموحلة.

هكذا التقى نظام للمرة الأولى بتوما أبو شاهين الذي ناداه باسمه.

التقط الكرة لكنه لم يمش نحو الباب إذ بقي مستغرقاً في تأمّل احتمالات البستان. بقيت عيناه تسألان عن الصناديق الصغيرة المربّعة التي يحوم حولها النحل وتتربصان بكلب الصيد الأسود والأبيض الذي كان يلحق بتوما وهو يحرّك أذنيه. لم يكن نظام العلمي، قبل

لحظات، يتخيّل وجود كل ذلك خلف هذا الجدار الرديء.

اختفى توما من جديد وراء الأجمة. استغلّ نظام الفرصة ليقلّد مواء الهرّ تحدّياً للكلب الذي نبح بصورة مباغتة في وجهه فعاد توما مالئاً راحتَيه الواسعتَين بالكرز الزهريّ الفرِح ودلقها في يدي الصبي اللتين لم تتسعا إلاّ للقليل منها. رافقه إلى الباب وهو يتابعه كيف بدأ يلتهمها وعيناه تلمعان شبه مغمضتَين من لذّة مذاقها.

في اليوم التالي، فور نزوله إلى اللعب، هرع إلى باب البستان فوجده مقفلاً، قرعه بصخب، بقبضته ثم بالضرب عليه بالحجر لكن من دون جدوى. توقف لحظة ثم التقط الكرة وركلها عالياً وبعيداً. كأن سقوطها وسط البستان مفتاح السرّ للدخول إليه. وهكذا كان. سمع بعد وقت قصير صرير الباب فركض فرحاً لاهثاً. استقبله توما وهو يقشّر له إجاصة من صنف مخّ البغل ففاضت زوماً على وجهه وثيابه وراح يأكل ويضحك حتى أتى على ثلاث إجاصات كاد توما يجرح يده من فرط سرعته في تقشيرها له. نظام يأكل وهو يحاذر الكلب الذي كان يلهث مادّاً لسانه بجانبه من دون توقّف، لكن توما بدأ يعلّمه كيف يتقرّب منه ليألفه:

– ريكس، أغلق الباب.

أسرع وفعل. أخبره توما أن الكلب كان يصفق الباب الحديد في المرات الأولى لكنه درّبه على إغلاقه بتمهّل. طلب من نظام أن يداعبه ثم أن يضع يده بين حنكَيه فصار الكلب يركض إليه ما إن يدخل من الباب ويواكبه عند خروجه المتأخر دائماً عن المواقيت التي حدّدها أهله.

أضاعته ميسلون هذه المرّة، نادته فخرج إلى الفسحة كي تراه

وثيابه متسخة بألوان الفواكه. طلب مهلة إضافية بحجة أنه مشغول بتحضير دبق للعصافير لكن محمود تدخّل شخصياً لإرجاعه إلى البيت قبل غياب الشمس.

يعود في اليوم التالي فيعلّمه توما كيف يمسك بالزيز ذي الظهر الأخضر والأسود، يربط رأسه بخيط رفيع ويحبسه في علبة كبريت فارغة بعد أن يحشوها بورق الورد، وإذا أخرج الزيز ليطيّره ممسكاً إياه بطرف الخيط لقّنه كيف يغنّي له كي لا يحزن لسجنه الطويل:

«إن كنت أنثى نام نام إن كنت ذَكَر قوم قوم».

في التجربة الثانية أفلت نظام الخيط عمداً فطار الزيز والخيط متدلّ منه ليعلق به من جديد في أغصان شجرة الورد فأصرّ على تحريره متحملاً وخز الأشواك حتى تمكن من إطلاقه إلى البعيد قبل أن يطالب بزيز آخر وبعلبة كبريت يسجنه فيها.

– وتطيّره من جديد؟

يطوّق توما كتفَي نظام ويدور به في البستان، يُلبسه قبعته، يدلّه كيف يهمل الجيران أرضهم فيأكلها الهيش الذي يأتي بالأفاعي، يحذّره من أن يمدّ يده إلى شجرة الخوخ الأصفر هناك ولو أن أحد أغصانها تجاوز الحدود إلى داخل بستان توما:

– هذه ليست لنا...

يقف نظام إلى جانب شجرة تفّاح الجبل، يربّت على جذعها ويسأله:

– وهذه لنا؟

يبتسم توما، يحسّ بدفء كبير، فيذيقه ثمارها الخضراء الصغيرة الحادّة الطعم.

اطمأن والداه لتمضيته اوقاتاً طويلة في بستان توما، ما يريحهم من تذمّره الدائم طوال الأيام الأولى لإقامتهم المستجدة وتنغيصه الصيفية المشتهاة عليهم واستيقاظه المتكرر ليلاً وهو يبكي من هول ما يراه في المنام. انتبهت ميسلون إلى أن الأحلام لم تكن تزوره يوم يمضي ما يشاء من وقت في بستان توما، أما إذا حرموه ذلك فكان يرى نفسه في منتصف الليل راكضاً لاهثاً من جديد في شارع بور سعيد في الميناء والسماء تمطر... حفظوا تفاصيل حلمه فصاروا يتغاضون عن تأخّره قليلاً في البستان وأحياناً حتى هبوط المساء. وكان توما يتحيّن هذه الفرصة ليدلّه على يراعة الليل التي تنطفئ وتضيء وهي تطير على علو في متناول اليد. تحدّاه أن يمسك بها فحاول نظام مراراً من دون جدوى وتوما يضحك ويفسّر له أنه عندما يطبق كفّه على اليراعة معتقداً أن لا مفرّ لها تكون قد انطفأت وغيّرت مكانها. يحاول مجدداً إلى أن يغتاظ ويحرد ويبكي ويكاد يضرب رأسه بجذع شجرة الجوز. يراضيه توما ويمسك له بخفّة بواحدة يحبسها في كفّه ويعطيه إياها. لكن نظام يصرّ على اصطيادها بنفسه فيمرّ الوقت بلا حساب إلى أن ينادوه من نافذة البيت مجدداً فيعود إلى أهله مطبقاً كفّيه أحداهما على الأخرى معتقداً أنه ممسك بتلك الحبحبة المضاءة فيؤخر فكّ راحتَيه إلى أن يضطرّ إلى غسل يدَيه قبل العشاء فيكتشف أنه طوال الوقت بعد خروجه من البستان كان قابضاً على الهواء.

أخبره توما في الأيام الأولى لتردّده عليه وبعد حشريته التي لا تحتمل التأجيل كيف يطلق النار على الخلد من بندقية الصيد في التراب للتخلّص من أذاه، وإذ تطوّع لإدخال يده بحثاً عن الخلد منعه توما

لأنه قد يعضّه. عرّفه على مالوش البندورة ودود الشجر الذي ينخر جذوع الكرز فتيبس وصولاً إلى المنّ الذي يغطّي أوراق الجوز. تحوّل البستان إلى أرض معركة لا تهدأ ضد أعداء يقف لهم توما بالمرصاد وله لكل منها دواء وسلاح.

توما الذي ما كان يغيب لفترة وجيزة كي يحوّل مجرى ماء الريّ حتى يعود ليجد نظام قد أطعم ثيابه ووجهه ويدَيه التوت الشامي بعد أن يصعد إلى الشجرة ويقطف ويأكل. يعود إلى البيت متسخاً فيعاقب بحرمانه من النزول إلى البستان في اليوم التالي. لكن عندما يرجع مشرقاً وعيناه تلعبان في أرجاء المكان كان توما يوفّر عليه تسلّق الأشجار فيركّبه على ظهره، يوسّخ له نظام قمصانه، يشدّ حمّالة بنطاله من على كتفَيه ويرخيها فيوجعه، فيرفعه توما كي يتمكن من الوصول بيده الصغيرة إلى أعلى شجرة الخوخ الرين كلود. يتطلّع نظام من فوق، من على كتفَي توما، ويسأل:

— من هذا؟

وهو يشير بيده إلى القديس ماما، الجندي الروماني الذي اعتنق المسيحية، شفيع العرسان في حَورا، لا يمرّ به موكب زفاف إلا ويترجّل العروسان لإضاءة شمعة أمامه، استشهد يوم زفافه، صورته موضوعة في بستان توما داخل مزار صغير محفور في الصخر، مغلق بباب من الحديد وأمامه أيضاً شمعة مضاءة. ضحك نظام من اسمه وتهيّب من قصته.

— تحبه رخيمة، وتقول إنه يردّ العين عنّا وعن البستان.

قالها توما مبتسماً كأنه لا يصدّق ما تؤمن به زوجته.

رخيمة أبو شاهين.

سمع صوتها للمرة الأولى قبل أن يراها.

نادت:

– يا توما!

بصوتها المتهدّج الرقيق.

حمراء الوجنتين، كأنها خجلت مرة خجلاً شديداً وبقيت وجنتاها على احمرار لا يبوخ.

رخيمة رقيقة، فساتينها منقّطة، خمارها أسود مطرّز تطويه وتفتحه بتأنّ وخشوع، لا تضعه على رأسها إلاّ عند دخولها كنيسة مار يوسف.

شعرها دائماً كالمبلل المغسول لتوّه. ورائحتها، الخزامى وأشياء أخرى.

كل الذين كانوا يضمّون نظام إلى صدورهم، من أمّه إلى عمّاته، إلى أبيه، أبيه نادراً، فقط عندما يعود من رحلة تستغرق أسبوعين يرافق فيها زبائن مكتب السفريات في الرحلات المنظمة، وصباح لا تفهم لماذا يرافقهم، كلّهم يقبّلونه بشغف أو يمسكون به بأيديهم الغليظة وخصوصاً أولئك الذين يشدّونه من وجنتَيه الممتلئتَين تدليلاً، كانوا يخنقونه، يُفقدونه صبره، فيطلق لحن تذمّر مديداً ويسارع إلى الإفلات محارباً بيديه ورجلَيه.

إلا من رخيمة.

يتمنّى أحياناً عندما تحيط رأسه بذراعيها لو تطول ضمّتها، لو يبقي وجهه غارقاً في صدرها، لا يشبع من رائحتها. مثل يوم طلبت منه إغماض عينَيه لتعقد له حول عنقه سلسلة تتدلّى منها خرزة زرقاء أوصت توما أن يشتريها من سوق الذهب في المدينة حيث يتبضّع

سماداً وأدوية لرشّ النمش وفخاخاً لفئران الحقول. أوصته عليها منذ اللحظة الأولى التي جذبها توما إلى النافذة ليدلّها على نظام وهو يتعلّم ضرب الكرة برأسه على رسوم أمّه ورفيقاتها في الباحة الخلفية.

«هناك عيون فارغة!»

لم يفهم ما شدّدت عليه وهي تضع له القلادة وتقبّله على وجنتَيه من دون أن تعصر وجهه بيديها. يشعر بأنها تدافع عنه في وجه آخرين طامعين فيه. لم تطلب منه كتم الأمر عن أحد لكنه فضّل أن يخبّئ الخرزة الزرقاء عن أهله وعن ميسلون كي لا تسخر منه. اكتشفتها أمّه بعد يومين عندما كانت تساعده كي يستحم فامتنعت عن نزعها كي لا تتحدّى بدورها القدر. لم تسأله من ألبسه إياها فهي أحبت الاعتقاد أنها أرسلت إلى ابنها بإرادة خفيّة تسهر عليه.

تضع رخيمة دائماً زهر اللافاند في جيب المريول الذي ترتديه حماية لفستانها، يسرق منها نظام أغصاناً صغيرة، ينزع عنها أفصاصها الزرقاء ويبذرها في الهواء. تعتني برائحتها، تفتح القلب رخيمة. أمّه صباح كانت متبرّجة، لا تظهر على أحد إلاّ وهي في أفضل حال، مرتّبة دائماً لا يمكنه العبث بها، لا يقترب منها إلاّ وتقف على دفاعاتها:

أبعد يدَيك!

لا يلامسها إلاّ ويخرّب فيها شيئاً، شعرها، أظافرها، طلاء وجنتَيها، طيّات ثوبها التي ثبتتها طويلاً بالمكواة. رخيمة مباحة، مستسلمة، يفعل بها ما يشاء، يخرّب ما يشاء، يجلس في حضنها ساعة بكاملها، يرسم على وجهها ويديها، يفتّل لها شعرها خصلاً ويمسح فمه المليء بالتوت بمريولها.

صيفيته الأولى كانت غالباً برفقة توما لكنه طالب ذات يوم بدخول البيت في لحظة اكتفاء من البستان فأخذته رخيمة إلى المطبخ وراحت بدورها تدلّه على أوعية المربّيات والمكابيس التي تصفّها فوق الرفّ العالي بعيداً عن الأيدي. تصنع رخيمة مؤونة من كل ما يطيب لها فيصّر نظام على التطاول للوصول إليها، توقفه على كرسي، يسألها عن البندورة الخضراء الصغيرة، تفتح له الباذنجان المحشوّ بالجوز واللوز، تذيقه المشمش والعنب المنقوع بالسكّر.

«هذه كلّها لك، مثل شجرة تفّاح الجبل...»

توما أخبرها.

تطوّعت مع اقتراب موعد المدرسة لمساعدته في القراءة والكتابة. تجلس إلى جانبه على مصطبة الحجر في البستان بعد أن يكون توما هدّده بأنه لن يرفعه على كتفَيه ويشجّعه كي يمسك العصفور الصغير العاري على أن يعيده إلى العشّ رأفة بأمه، إن لم يتجاوب مع دروس رخيمة، ولو لمدة نصف ساعة في اليوم. هذا كان الحدّ الأقصى من عذاب تمارين الحساب الذي يمكنه تحمّله، بعده يتيه، يتلّهى بصفّ النمل، يصفّر لعصفور الدوري أو يرسل ريكس في مهمة.

تأتي بدفتر خطّ قديم وتمسك بيده، أصابعها الجميلة تقود أصابعه كي لا يتجاوز الخطوط المرسومة. تمسح عرقه إذا لحقته الشمس، تسقيه ماءً قبل أن يطلب وتعده إذا ما أحسن الكتابة بجولة في البلدة على ظهر الحمار الأبيض الذي يخرج به أيام الآحاد صاحبه بالشروال والطربوش الأحمر لينزّه أبناء المصطافين الصغار مقابل أجر ولا تكتمل فرحتهم إلاّ إذا حصلوا على دولاب هواء من الورق الملوّن يلوّح به بعضهم لبعض طوال الرحلة.

يوماً بعد يوم بدأت صديقات صباح يفتقدنه. تخبرهنّ أمّه وهي تقدّم لهن الكنافة بالجبن، كم أن الجيران محبّون ولطفاء داعية «ربّ العالمين أن يطعمهما أولاداً ويطعم الناس كلّهم»، وأن ذهاب نظام إلى البستان المجاور أفضل حلّ لإراحة بالها من عشرة السوء. تخفض صوتها لتقول إن «الناس هنا» وترسم بيدها دائرة واسعة حول البيت، «يكفرون كثيراً»، ولو دار مع رفاق من البلدة كما بدأ حين وصلوا إلى حَورا لتعلَّم أشكالاً وألواناً من الرذائل. يضحكون على الخوري ويقلّدون صوته عندما يلتقونه في الطريق. ترفع حاجبَيها وتفتح يديها مستسلمة، «الناس أجناس»، وهي لا تطيل الانتقاد خفراً ولو أن من تتحدث أمامهن في صالون بيتها كنّ من المسلمات. تسارع إلى التعويض بالقول إنها تجدهم رغم ذلك «أوادم يحبّون الضيف وقفاهم حلو». وكانت إذا شعرت أنها بالغت في الانتقاد تكرّر لمن لا تعرف من النساء أن أمها مسيحية و لم تشهر إسلامها عند زواجها بل ظلّت تحلف بالعذراء مريم وتستنجد بها أمام أولادها، وأنها أخذتها وأخواتها في زيارة إلى دير مار سمعان العامودي حيث ركعت وصلّت.

«أتعرفون كنيسة مار سمعان العامودي؟»

سؤال تغيّر به الموضوع وتطرحه بلهجة سورية لم تعدّل منها عشرة أهل طرابلس. لهجة أخذتها عنها ميسلون التي بادرت أمها مرة عندما سألتها بعد ارفضاض الصبحية وتهوية البيت من رائحة التنباك إذا كانت لمحت أخاها، بنبوءة جازمة ادارت لها صباح أذناً صمّاء:

«سيأخذون نظام!»

3

أخيراً حمل اعتدال الخريف الشتوة المنذرة بانقضاء فصل الصيف فحزم آل العلمي بعض أمتعتهم وودّعوا الجيران، وقف توما ورخيمة يلوّحان لنظام بأيديهما طويلاً، وهو لم ينصع للنزول إلا بعد جدال وحرد وصراخ. ذكّروه بأسماء رفاقه في الميناء وبمدينة الألعاب القريبة فلم ينفع، هدّدوه بالضرب فوضع شرطاً بأن يحمل معه عنباً وجوزاً والمخدّة المطرّزة التي كانت تجلسه عليها رخيمة كي لا «يأخذ برداً» بينما كان يكتب فروضه الصيفية. أخرج رأسه من النافذة أولاً ثم عندما نهروه ألصق وجهه بزجاج السيارة الخلفي يتفرّس بتوما ورخيمة يبتعدان وسط الغبار، لا يدري تماماً ما يحدث له، فصنع من لهاثه على الزجاج غشاوة منعته من الرؤية. كان حريصاً على علبة الكبريت المحشوّة بورق الورد حيث حبس له توما سراً زيزاً آخر، هدية صغيرة يحملها معه إلى المدينة ليتباهى بها أمام رفاقه. لكنه لم يتمالك نفسه بعد يومين على عودتهم إلى المدينة من تحرير الزيز خلسة داخل جامع البحر حيث ذهب مع رفاق له يتسلّون بنزع أحذيتهم وبمشهد المصلّين فانتبه بعض المؤمنين لهذه الحشرة المتطفّلة الغريبة أثناء صلاة الظهر وحاولوا إبعادها من فوق رؤوسهم بالتلويح بأيديهم ونظام

مبتهج من فعلته التي أبقاها سراً حتى على رفاقه.

في حَورا، وفي اليوم التالي على نزول آل العلمي، حمت الشمس و لم يسمع توما صرير باب البستان مبشّراً بدخول نظام عليه. جلس صامتاً على حافة الصخر مكتّف اليدين وقد أصيب بشيء من الوهن. أمضى النهار في ظلّ شجرة الجوز لا نخوة له على حمل المجرفة أو مقصّ تقليم أغصان الشجر.

مرّ الظهر و لم تأته رخيمة بالغداء.

«لم تفتح نفسي اليوم».

تفادى أحدهما الإلتقاء بالآخر. انزوت رخيمة في المطبخ وهي تنقّي العدس مرة واثنتَين لأنها كانت شاردة تمرر الحبّ بين أصابعها لا تتفحّصه. لازم توما البستان حتى ساعة متقدّمة من المساء فلم تناده على عادتها عند مغيب الشمس. لم يشعرا بالجوع في ذلك اليوم، وبقيت هي طويلاً بعده تتقلّب في الفراش.

توالت الأيام رتيبة بعد أن صار عمل توما في البستان افتراءً على الحقل والزرع مع حلول البرد وظهور أول قشرة ثلج على أعلى سفوح جبل المكمل. استعادا بعضاً من حيويتهما، لم يبوحا عالياً باشتياقهما إلى نظام، يحتفظ كلاهما لنفسه بشعور الفراغ. في المقابل، كانا يتنافسان في امتداح آل العلمي ولا يأتيان على ذكر نظام، كأن تحدثهما عنه قد يسيء إلى ما هي حالهما معه من هشاشة. في حلمها المستعر بالأولاد بعد السنة الثانية على زواجهما لم تتخيّل رخيمة ابناً لها «أجمل منه، أكمل منه»، كما تكرر لنفسها لأنها تخاف إن حكت عالياً أن تجرح قلب توما، توما الذي ازداد حبها له منذ راحا يستعدان لحياة بلا أولاد.

لم يمض عيد جميع القديسين حتى اقترح توما على رخيمة زيارة آل العلمي في بيتهم عند مدخل الميناء، فهم غادروا المنزل وأبقوا المفتاح معهم ما يشير إلى أنهم لا بدّ عائدون لتمضية الصيف القادم فيه. تنبّهت رخيمة إلى احتمال وجود الصغير في المدرسة في بحر الأسبوع ففضلت النزول لزيارتهم يوم الأحد. حمّلا صندوق سيارة الأجرة عنباً في آخر مواسمه وآنية من ربّ البندورة وخلاً. احتفى بهم آل العلمي، توما يمسك بنظام ورخيمة تنادي ميسلون كي تجالسهم وميسلون تبتعد. صباح تخبرهم عن نظام وشيطناته، كيف يستغلّ فرصة ركوعها للصلاة ليصعد فوق كتفيها وهو يعرف أنها بسبب حرمة الصلاة لن تتمكن من زجره ويفرّ عندما تشارف الانتهاء من تلاوة فرضها. يضحك الجميع ولا يعود الزوجان إلى حَورا إلاّ مع اقتراب هبوط الظلام.

كانت الهدايا التي يرسلانها ولو مرة في الاسبوع بديلاً من حيائهما من تكرار الزيارات. لكنهما لم يترددا في النزول مجدداً إلى الميناء عندما علِما أن صباح حامل. راحت رخيمة تُكثر لها من النصائح لأن المرأة بعد سنّ الأربعين عليها توخّي الحذر. تنزل أحياناً وحدها، يوصلها التاكسي إلى الميناء ويرجع ليأخذها في نهاية النهار. تمضي الوقت ملتصقة بصباح، تربّت لها على بطنها بحنوّ وتقوم عنها بكلّ واجب اضطراري مثل فتح الباب للزوّار وتحضير القهوة، عدا عن شرائها ثياباً للرُضّع وألعاباً من سوق المدينة. وعند سؤال الفتاة البائعة عن جنس المولود كانت رخيمة تجيب بلا تردد «صبيّ». يشعر توما عندما يكون برفقتها بالحرج فيبتعد لينتظر زوجته خارجاً على الرصيف.

أرادت صباح أن تردّ لهما الصنيع فدعتهما إلى ختان نظام فالتقى توما ورخيمة بأقرباء العائلة من جهة محمود. عند دخولهما الصالون المكتظّ، سعيا إلى إلقاء التحية على الجميع بحرارة، لكن عمّات نظام ادّعَين فجأة أنهّن لا يضعن أيديهنّ بأيدي الرجال ما أثار استغراب شقيقهما محمود، فاكتفَين بمصافحة سريعة مع رخيمة وحدها مشفوعة بابتسامات مصطنعة. جلسا جنباً إلى جنب في زاوية ضيّقة من زوايا الصالون حيث لاحقتهما النظرات والهمسات وهما يبحثان في أرجاء المكان عن نظام الذي خرج بعد قليل وصوته يصدح من إحدى غرف النوم مرتدياً عباءة المناسبة متحرراً من ثيابه الداخلية وهو يجري بين الحضور فرحاً متسلياً تتجاذبه الأيدي وتطارده القبلات. كان مركّزاً على ما بين فخذيه وعندما جلس المطهّر وفتح شنطته الصغيرة بكل أبهة وأخرج ملقطه ومقصّه وتمكّن من حمامته وقطع جلدته الزائدة ارتفع ضجيج المحتفلين ليغطوا على ألم الصغير الذي بكى من دون أن يصرخ كأن عليه البكاء لأن بعض الدم القاني سال على عباءته البيضاء النقيّة. دمعت عينا رخيمة وهي تنظر إليه فزعاً مضطرباً، وكان الختان أسهل عليه من محاولات النساء التخفيف عنه بالكلام أو الضمّ والتقبيل بعد انصراف المطهّر الذي أوصاه بأن يبقى ممسكاً بطرف العباءة ليبعدها عن ذكره كي لا يتألم. لم يفهم توما ورخيمة سبب السعادة التي كانت تغمر أقاربه بمناسبة هذا الختان فانتابهما شعور غامض بأنهما غريبان وأطالا المكوث في حفل ما كان يجدر بهما حضوره. ودّعا الجماعة دون تسليم بالأيدي هذه المرة وخرجا من الباب كالهاربَين ومحمود العلمي الذي شعر بحرجهما يكرّر عليهما اعتذاره من أعلى الدرج.

لم يتراجعا. استدلاّ على مدرسة نظام، مدرسة الأميركان في حيّ الزاهريّة وزاراه فيها غير مرة. يتحدّيان الثلج وسوء الطقس في نزولهما من الجرد حيث يكون الكثير من الطرقات مقفلاً، فيسيران في شوارع طرابلس مرتديين الثياب السميكة كي يحملا لنظام السكاكر ونقوداً يشتري بها من دكان المدرسة.

وقد صادف نزولهما ذات يوم اندلاع تمرّد مسلّح في المدينة حيث أعلنت حركة أطلقت على نفسها اسم «المعذّبون في أرضنا الطيّبة» قيام «حكومة» لها داخل الأسواق القديمة. وزّعت البيانات على المارة وقيل إن من حرر هذه الصياغات الثورية أستاذ فلسفة في الصفوف الثانوية انضمّ إلى الثوار بعد أن أطلق النار على زوجته التي تصغره بأكثر من عشرين عاماً لتأكده من خيانتها له فأرداها وفرّ إلى معقل المطلوبين. بدأت الفوضى تدبّ مع سماع إطلاق نار. حثّ توما ورخيمة الخطى إلى المدرسة حيث البلبلة في أقصاها، فمن قرأ بيانات الثوار التي وزعت ليلاً والمليئة بالتهجم على الاستعمار الاميركي حليف الصهيونية قد يخشى تعرّض المدرسة للاعتداء باعتبارها هدفاً نموذجياً. وكانت شعارات كتبت على طول سورها الخارجي تهاجم النظام التعليمي وتتوعّد الرئيس جونسون بعظائم الأمور. وصلا إلى المدرسة والإدارة لا تعرف كيف تتدبّر سلامة التلامذة، فالشوارع غير آمنة لتسيير الحافلات وتُسمع بوضوح بعض الانفجارات المتباعدة ومعها كل أنواع الأخبار المجنونة.

«سرقوا سوق الصاغة!»

وصل من يخبر أنهم أطلقوا سراح السجناء من السرايا القديمة وجميعهم من المحكومين بجرائم قتل أو سرقة، وقد حملوا أستاذ الفلسفة على الأكتاف فخطب فيهم:

«تخرجون من السجن الصغير إلى السجن الكبير!»

طالب توما ورخيمة بنظام وكان موظفو المدرسة اعتادوا عليهما ولو لم تتضح قرابتهما مع ابن العلمي. وصل نظام ضاحكاً عيناه تلمعان وقد بدا مسروراً بالفوضى التي دبّت في الصفوف وفرطت عقدها. انتبه رفاقه المتدافعون للخروج من الباب الذي ضاق بهم، إلى هذا الرجل الغريب الذي يعتمر قبعة الفرو ومعطفاً سميكاً يحمل نظام رافعاً إياه من بين الجمع. أوصلاه إلى بيت أهله قبل أن يتحرّك أحد من عائلته للبحث عنه إذ انقطع التواصل بينهم بسبب التمرد الذي انتهى بدخول الجيش إلى الأسواق الداخلية. سقط خمسة قتلى من بين المطلوبين واستسلم الباقون بعد أن حاولوا التحصّن داخل أحد المساجد، كما قتل جنديّان ضاعا داخل أزقّة السوق فأطلقت عليهما النار من مكان لم يتمكن أحد من تحديده في متاهة المداخل والمنافذ.

في الموسم التالي انتقل آل العلمي باكراً إلى حَورا، لأسباب مختلفة هذه المرة، فصباح بلغت شهرها السابع وطلب منها الطبيب أن تمتنع عن الجهد.

– أنام؟

– يمكنك الجلوس والوقوف عند اللزوم فقط.

صار السيران الصباحي ينعقد عندها كل يوم ما حرر باقي المصطافات من تعب الاستقبال. فوق ذلك أصيبت ميسلون بالسعال الديكي الذي كانت تتعبها نوباته فتنزوي في غرفة النوم تشهق وتبكي بعيداً عن آذان أهلها. وصف لها الأطباء هواء المصايف مع الاحتياط من نقل العدوى إلى شقيقها الصغير الذي انتقل إلى رعاية رخيمة وتوما

بطلب من والدَيه. صار أكثر صلابة فعلّمه توما كيف يمسك بمقصّ الشجر وينقّي عيدان الورد الرفيعة ويرفع أغصان الشجرة الكبيرة لكشف الصغيرة منها أمام نور الشمس. ألبسه ثوب الحماية من النحل فسرق من القفير مربعاً من العسل بشهده جلس يمتصّه عن آخره فدفع ثمن فعلته لسعة في طرف أنفه دامت آثارها لأكثر من أسبوع. علّمه أسماء أنواع العنب، مشدداً عليه إذ رآه مستعجلاً لتذوّقها أن لا يقطفها قبل أوانها. أركبه الحمار وعلّمه كيف يقوده بالرسن ويلقي عليه أوامر التوقّف والانطلاق. صنع وإياه الفزّاعة ما إن نضجت الفواكه التي تحبّها العصافير، علّمه توقّع المطر إذا لمعت الدنيا من جهة اللاذقية، والحرّ إذا كان الهواء شرقياً. أبعده عند تقطيعه حطب الأغصان اليابسة بالفرّاعة تفادياً لتطاير نثرة خشب إلى عينيه واشتمّ وإياه رائحة التراب بعد شتوة أيلول.

في آخر شهر آب وضعت صباح توأمَين وعند عودتها من المستشفى، أعدّت لها رخيمة استقبالاً أطلقت فيه الزغاريد ووزّعت الحلوى وعصير الرمّان وتطوّعت لخدمتها. تحمل الثياب إلى بيتها، تكويها، تغنّي وحدها من سعادتها وهي تنتظر بجانب النار قبل أن تأتيهم بالطبخ ساخناً جاهزاً. كأنها في أيام عرسها. تخبر توما عن التوأمَين، لا تبخل في مديحهما ولو أنها لا تقارنهما بنظام. تكرّر اسميهما وهي تحاول أن تجد لهما صدى في نفسها، اعتادت على اسم نظام لكن صعب عليها تدجين خالد وبلال. سمّاهما محمود هكذا بعد أن ارتاح من سطوة الأصدقاء العليمين، وربما للتعويض عن غرابة اسمَي ميسلون ونظام.

مع ولادة شقيقَيه، انقطع هذا الأخير فجأة عن البستان لأكثر من

عشرة أيام أمضاها في جوار صباح يتفرّج على التوأمين يرضعان معاً من صدر أمهما. انتابته غيرة حادة طالب خلالها دفعة واحدة بكل حقوقه التي أهملها في غيباته الطويلة لدى توما ورخيمة. أصابته حمى لم يتمكن طبيب البلدة من الوقوع على أي أسباب صحيّة لها كالرشح او التهاب اللوزتين.

نهض بعد ثلاثة ايام فأدار ظهره وعاد إلى البستان حيث أمضى في ذلك الصيف بعض الليالي حتى طلوع الفجر لم يدع توما ينام فيها. كان يغالب النعاس من أجل الصغير، وكانت أجمل ما أمضياه معاً تلك الليالي الحارّة منها في شهر آب، في العرزال الذي بناه له توما، نظام يسأل عن كل ما يراه وتوما يدلّه على الدبّ الكبير والدبّ الصغير ويعده بنجمة الصباح إذا بقي مستيقظاً لكن توما ينعس وينام فيبقى نظام بعده لوقت طويل يتطلّع إلى السماء الصافية المضاءة كالثريّا بالرغم من شخير توما ونقيق الضفادع وسائر أصوات الليل في البستان.

ذاق من يد رخيمة البيض البلديّ وفوقه السمّاق الأحمر والنعناع المجفف، والتبّولة التهمها بيديه أو بورق الخسّ فكان زيت الزيتون يسقسق على ذراعَيه وهو يضحك من أعماق قلبه، شرب من يدها لبن الماعز فراح يصدر أصواتاً وهو يشرق عالياً على راحته. بدأت تتحسّب لشهيّته فراحت تحضّر الغداء وأحياناً العشاء كأن في عهدتها عائلة كبيرة. ويوم اضطرّ توما إلى النزول إلى المدينة لشراء بعض المبيدات، اصطحبته معها إلى كنيسة مار يوسف بعد أن تلاشت رقابة ميسلون على رواحه ومجيئه.

أدخلته معها من باب النساء اللواتي فتحن عيونهنّ واسعة في زوجة توما أبي شاهين ومرافقها الصغير. أول ما تابع في نصف عتمة

الداخل كيف يضع المؤمنون إصبعهم في جرن الماء المقدّس ويرسمون إشارة الصليب. باغته المشهد فبقي في دخوله الأول إلى مار يوسف ملتصقاً برخيمة وانتباهه مسمّر على المذبح والكاهن الذي يرفع بثيابه المزركشة الكأس وهو يمطّ بالكلام الجوهري. نظر إلى تلك الأيدي التي تتلامس من مقعد إلى مقعد فلا تنسى أحداً حتى تصل البركة إلى رخيمة فتمررها إلى المرأة الواقفة عن يسارها ثم تعطيها إلى نظام وهي تحيط وجهه بيديها.

في دخوله الثاني إلى الكنيسة، تآلف مع المكان فابتعد عنها ليدور وحده متأملاً صور القدّيسين المحنيّي الرؤوس ومراحل درب الصليب المحفورة في الخشب والمطلية بالذهب قدّمها نذراً لشفاء ابنته أحد أبناء البلدة الأثرياء. لفت تجواله المستمر في الكنيسة انتباه المصلّين الذين كانوا يتطلعون ناحية رخيمة لعلّها تمسكه عن هذا التسكّع غير المألوف لولد لا يرسم إشارة الصليب عند مروره أمام المذبح ويشبه في سلوكه بعض السيّاح الأجانب الذين يدخلون كنيسة مار يوسف كمن يدخل بيتاً أو معرضاً للصور.

اعتاد على الكنيسة فصار يعرف متى يفترض بالمؤمنين الوقوف أو إحناء رؤوسهم إجلالاً لاسم يسوع عند قراءة الإنجيل. لكنه لا يهدأ، «مثل السمك في البحر»، يقول عنه الجيران، يتحرّش بكرسي الاعتراف، يراقب دخول النساء خلف ستار مقابل لحيث يختفي الكاهن فينسلّ بين معترفتَين لكن الكاهن يطرده. جميع روّاد الكنيسة باتوا يعرفون من هو هذا الصغير الأشقر الشعر الجميل الوجه، ورخيمة راضية عن رغبته في التردّد معها إلى مار يوسف. لم تردعه في إحدى المرات عن التقدّم إلى تناول القربان المقدّس في الصفّ الطويل يوم

الأحد إلى أن وصل فجأة قبالة الكاهن الذي امتنع عن إعطائه البرشانة ونظر شزراً إلى رخيمة التي اضطرّت إلى مناداته بصوت عال كي يبتعد، بقي واقفاً فاتحاً فمه مغمضاً عينَيه ينتظر حتى أزاحه الكاهن بيده من أمام المتناولين فمال إلى جهة المذبح محاولاً تفحّص المبخرة المعلّقة ودخل إلى السكرستيا ليستكشف المكان الذي يخرج منه الكاهن ومعاونوه ويعودون إليه.

اشتريا له المفرقعات في يوم عيد الربّ فرماها في كل اتجاه وكاد يُشعل حريقاً في الأرض المهملة المجاورة لبستان توما. استغلت رخيمة فرصة غياب محمود العلمي في رحلة بالطائرة قيل إنه اصطحب فيها موظّفته المفضّلة تاركاً زوجته تتخبّط مع التوأمَين فلم تطلب إذناً في اصطحاب نظام معها إلى كنيسة السيّدة في مسيرة أربع ساعات بمناسبة عيد انتقال العذراء. رافقت رخيمة مجموعة من أبناء الأخويّة يحملون أعلامها ويرتّلون ويصلّون على طول الطريق، وسرعان ما انتبه نظام إلى أن بعض هؤلاء يمشون حفاةً فأصرّ على نزع حذائه وتعليقه في رقبته ليسير هكذا بالرغم من معارضة رخيمة التي أفهمته أن الحفاة يكونون قد نذروا ذلك للسيدة العذراء مقابل شفاء مريض عزيز عليهم. ابتعد عنها وسار طويلاً حتى سال الدم من رجليه وخافت رخيمة أن يعرف بذلك آل العلمي فيغضبوا فعلاً. لم يعزف عن السير على قدميه الداميتين إلاّ بعد أن توسّلت رخيمة إلى شاب يرافق النازلين على دراجة هوائية طالبة منه أن يحمله وراءه ولما وصلوا إلى الكنيسة وبدأ القداس استسلم نظام إلى غفوة عميقة من آثار التعب وهو جالس في حضن رخيمة التي لا تشبع من النظر إليه وإلى رسوم الملائكة المرفرفة بأجنحتها والتي تزيّن سقف الكنيسة.

4

تسارعت الأحداث نهاية الصيف فصدرت بحقّ محمود العلمي مذكّرة توقيف بسبب شجار وإطلاق نار في طرابلس قرب الملهى الليلي الذي كان يشغّل بنات أجنبيات وقد نسب إلى العلمي المشاركة فيه فتوارى عن الأنظار. اضطرت زوجته إلى مغادرة حَورا والنزول إلى بيتها في الميناء وبين ذراعيها طفلان لم يبلغا من العمر شهراً فوافقت من عجزها عن رعاية عائلتها على ترك نظام في عهدة توما ورخيمة. حتى سلّم محمود نفسه إلى مخفر الدرك في طرابلس ونام ثلاث ليالٍ في السجن خرج على أثرها بكفالة مالية لم يكن يملكها فأرسل صباح إلى المرابي صاحب القبّعة وعاد إلى بيته فبقيت قصة اعتقاله لغزاً محيّراً قيل إنه عمل على عدم إذاعته على العلن حفاظاً على صيته لكن صباح علمت بكل شيء.

«تطلّقني وأرجع إلى حمص!»

هذا كان ألطف ما خططت له في الأيام الثلاثة التي شعرت فيها بأن صداقاتها وسمعتها انهارت فجأة ونهائياً وبأن كل ابتسامة لها ستخفي تأسفاً أو تشفياً لن تتحمّلهما.

«ابن الحاج ياسر العلمي يسكر ويعاشر بنات الهوى؟»

طالب محمود بنظام الذي رفض النزول إلى الميناء وراح يبكي ويلهث متمترساً في الزوايا كأن الهجوم عليه لحمله ونقله إلى طرابلس سيحصل بين دقيقة وأخرى. توسّل توما ورخيمة إليه كي يعود إلى أهله. كان يخيّم على بيت العلمي جوّ من التوتر الظاهر، ومحمود ينوي التواري عن الأنظار لأنه لم يخرج من السجن إلاّ بسند إقامة. كان يخشى إعادته إليه فاضطرت صباح إلى إدارة مكتب السفريات بدلاً منه وكانت لها ملاسنة مع مدام جانيت التي تمارضت لأكثر من أسبوعَين هرباً من المواجهة معها.

ذات مساء، عند عودتها منهكة إلى البيت وهي تتأسف عالياً على مجيئها من الأساس إلى لبنان، وجدت نظام حزيناً لا يلعب ولا يضحك. اشتكت ميسلون من أنه يتذمّر طوال النهار، يُصدر أصواتاً يائسة ويشوّر بيدَيه، وهو لم يجد تسلية عند عودته من المدرسة سوى دخوله مع رفاقه إلى جامع البحر حيث يُجلسهم أحد المشايخ في حلقة حوله ليحفظوا القرآن، وقد راقت نظام المنافسة فواظب عليها وكان فور عودته إلى البيت يعيد على مسامع ميسلون ما حفظه حتى ضجر من تكرار الآيات دون أن يُدرك معانيها. وقد سأل الشيخ عنه لاحقاً لَمَ غاب قائلاً إن الصبي سريع الحفظ وقد انتهى من جزء «عمّ» وباشر بجزء «تبارك» عندما انقطع عن جلسات الدرس وإن هذا حرام.

بعد لفّ ودوران ووعد بنزهة في القارب إلى جزيرة الأرانب بمجرد أن يصحو الطقس ويهدأ البحر، كان نظام يرفضها برفع كتفَيه والصدّ بيدَيه، قالت ميسلون:

«يريد الصعود إلى حَورا!»

لم يعارض شقيقته.

أخبرت أمها أن عمّتها نجيحة حضرت إلى البيت يوم اصطحبت صباح التوأمين إلى عيادة الطبيب من أجل إعطائهما جرعة الطعم الثانية. وصلت فجأة وبيدها سلسلة مذهّبة في طرفها لوحة صغيرة محفورة عليها آية الكرسي حرصت على تعليقها بنفسها في عنقه وحذّرته:

«نحن مسلمون يا عمتي، لا تنس يا نظام!»

سألته أمه أن يريها القلادة لكنه كان ثابتاً في حنقه ونفوره منها حتى يئست منه وسألته صراحة إذا كان يريد العودة إلى توما ورخيمة. تردّد قبل أن يقول نعم بصوت خافت وعيناه تلمعان كأنه كسب الجولة، وكانت تلك المرة الأولى التي يُعرب فيها عن رغبته هذه.

وافقت صباح:

«طيّب، مع السلامة، هذا ما يريده محمود فليكن!»

دبّت الحياة في نظام وراح يلاعب شقيقَيه الصغيرَين ويغنّجهما في سريريهما بعد أن تأكّد الوعد بإرساله إلى حَورا مع حلول عطلة الميلاد ورأس السنة.

وجد نظام رجل الثلج بانتظاره فوق في الفسحة حيث يلعب صيفاً، وكان الجيران تغامزوا طويلاً على توما وهو يجمع الثلج بمجرفته ليقيم منه تمثالاً عيناه جوزتان وبيده مكنسة قديمة، ألبسه عند إنجازه إحدى قبعاته. صنع نظام فور وصوله من الثلج كرات راح يقذفه بها بعد أن ألزمته رخيمة لبس كفّين من الصوف اتقاءً للبرد، وهو يصرخ من الفرح. لم يبتعد عن رجل الثلج إلاّ بعد أن تركه مشوّهاً مبعثراً. للمرة الأولى منذ زواجهما أقاما مغارة للطفل يسوع مرّر فيها توما الماء عبر شبكة أنابيب مقفلة كما أضاء بيوت الكرتون الملوّن التي صنعها

بصبر واختار شخوصاً كبيرة للقديس يوسف والعذراء مريم مع مجوس ثلاثة ملتحين وعلى رؤوسهم تيجان، وحمار وبقرتين وقطيع كامل من الأغنام من مختلف الأحجام وملاكَين يحرسان المدخل ببوقَيهما. وكانت رخيمة أيضاً قد زرعت قمحاً في علب التونا والسردين الفارغة لتزيّن بها المغارة. كل ذلك ونظام يقفز من حولهما متحمساً، يكتشف التفاصيل مصراً على تأمل الشخوص واحداً واحداً وتوزيعها بيده هنا وهناك. انتبه إلى أن الطفل يسوع غير موجود فطالب به لكن رخيمة أفهمته أنه لا يجوز وضعه في المغارة قبل الساعة الثانية عشرة ليلاً أي ساعة مولده فوافق لكنه طالب به وخبّأه تحت مخدّته.

أخذت توما ورخيمة الغفوة ولما قرعت أجراس منتصف الليل في كنيسة مار يوسف استيقظا ليجداه أمام المغارة يضع الطفل في المزود. اقتادته رخيمة إلى السرير وقبل أن يخلد إلى النوم سألها كيف يولد يسوع من جديد بعد أن يكون قد مات على الصليب وطعنوه بالحربة في خاصرته كما رآه في إحدى مراحل درب الصليب في كنيسة مار يوسف. استيقظ نظام مرة أخرى مرعوباً بسبب إطلاق النار في الهواء من الأسلحة الأوتوماتيكية احتفالاً بالعام الجديد. كلما انطلق رشق قريب يعصف صداه بأرجاء البيت يرتجف كأن الكهرباء صدمته فتلفّه رخيمة بعباءة صوف ويلعن توما هذه العادة المستجدة. لا تهدأ حال نظام إلا عندما يوقظانه جيداً بإعطائه ماءً ليشرب، ولا يبدأ العام الجديد إلا وقد اكتشف عند وقوع أحد المجوس أرضاً وانكساره أن شخوص مغارة الميلاد مصنوعة من الجفصين الأقرب إلى طبشور المدرسة. فكسر الراعي الذي يرفع الحمل الرضيع على كتفَيه وراح يكتب به فوق كل ما تقع يده عليه ويوسّخ جدران البيت والأثاث ببقايا من القديس

يوسف أو حيوانات المغارة التي كانت تنفخ لتدفئة الطفل يسوع الذي ولد في العراء البارد.

في النهاية خرج محمود العلمي بريئاً من المحاكمة، فسرت أقاويل بأن التحقيقات كشفت تفاصيل أخرى حول إخراجه خلسة عبر المطار مواد غير مشروعة مع مسافرين يشاركون في رحلاته السياحية، يحمّل أحدهم كخدمة منه حقيبة إضافية لأن وزن حقائبه يزيد عن المسموح به كما يدّعي، فيعبر الزبون حاجز الجمرك ومحمود يراقبه من الخلف ويده على قلبه. وبأنه بدوره كان مجرد عميل لتجار من سهل البقاع وجدوا في الرحلات السياحية المنظّمة وسيلة جديدة للإفلات من رقابة الجمارك. وقيل ايضاً إن صديقه مفلح الحاج حسن هو الوسيط بينه وبين تجار الحشيشة وهو من ابتدع هذه الحيلة في التهريب، وأن قاضي التحقيق عندما أطلق محمود حذّره بأن المسألة لم تقفل.

بعد تمديد وتردّد وتشبث من نظام الذي كان يعرف أن نزوله إلى طرابلس يعني عودته إلى مدرسة الأميركان، أوصله توما ورخيمة إلى أهله من جديد واعدَين بأنهما سيرجعان لزيارته. لكن قضية محمود لم تنته فصولاً، وفي صبيحة أحد الأيام دقّ توما ورخيمة باب آل العلمي فلم يُفتح لهما وأخبرهما الجيران أنهم ذهبوا إلى سوريا، عند أهل صباح، وأن الرحلة كانت مفاجئة، أخذوا الأولاد من صفوفهم، حمّلوهم وانطلقوا و لم يبلغوا الجيران بموعد محدد لعودتهم.

عاد توما ورخيمة خائبَين، وبعد يوم واحد لازم الاثنان الفراش وارتفعت حرارتهما معاً ورخيمة تجرّ جسمها جرّاً إلى المطبخ لتحضّر الشاي تكتفي به طوال النهار. انتشر خبرهما فعادهما ابن عمّ توما،

عزيز، وكان خياطاً رجالياً معروفاً في طرابلس التي نزل إليها من سنوات وهو يردّد مشيراً بيده إلى حَورا العالية:

«لا يسكن جرودها إلاّ قرودها».

وكان من الخياطين القلائل الذين ما زالوا يحسنون تفصيل طابيّة الكهنة الموارنة فاستغل أبونا جبرايل، خوري رعية حَورا، مروره على المطرانية في المدينة ليوصي عزيز على اثنتين منها. بادره الخياط بلهجة غامضة أن على الكنيسة الانتباه لما يجري حولها. قالها وهو يسرّج قميصاً على ركبته ولم يفصح عن مقصده إلا بعد أن استفسر الكاهن تكراراً. وتضجّر به وهمّ بالانصراف وكاد يضجر فأخبره بأن المسلمين اشتروا في السنتين الماضيتين بيوتاً في حَورا وراح يذكرها ويستكثر عددها ولو أنه لم يتجاوز في عدّها على أصابع يده الثلاثة أسماء، مضيفاً بلا مقدمات أنهم لن يكتفوا بذلك بل إنهم الآن سيرثون الأراضي. وتوقف عن الكلام تاركاً أبونا جبرايل أمام أحجية لم يجد صعوبة في حلّها فيما عزيز يقسم تارة بشرفه وطوراً بروح أبيه وأمّه بأن لا مصلحة له ولا حقّ له في التدخّل في حياة ابن عمه توما ابي شاهين لكنه ينبّه إلى ما قد يحصل إذا خطر له أن يورّث هذا الصبي المسلم أرزاقه وبيوته. اتفق الاثنان على أنه يمكن لأهل الصبي أن يدفعاه عمداً نحو توما ورخيمة لمعرفتهم أنهما ثريّان. تبصّر الرجلان بالأمر فأصرّ أبونا جبرايل على أن «لا تبنّي في الإسلام» لكن قد «يكتب» له توما في حياته ما يحلو له من الأرزاق. هذا في المختصر ما يخاف منه عزيز فنصحه الخوري بالقول:

«لا تتركوا ابن عمّكم!»

أقفل عزيز محله مصطحباً زوجته. تمالك توما نفسه أمامهما وأنكر

أنه مريض واستغرب كيف وصل هكذا خبر إلى ابن عمه ثم طلب من رخيمة بعد دقائق على جلوسهما أن تصنع لهما القهوة استعجالاً في صرفهما. كان هذا كافياً للبرهان على أن هناك شيئاً فاسداً في كل إطراء يتلقاه توما ورخيمة أبي شاهين من أقاربهما بعدما شاع الخبر أنهما فاقدان كلّ أمل في الإنجاب. ورخيمة تقول إن كل عرض خدمة عليهما من أحد الأقارب يشبه «ضربة سكين» في قلبها تضطر لرفضه بكل تهذيب، وكل دعوة إلى الغداء أشبه بمكيدة يرغمان فيها على تصنّع الابتسام واختراع الذرائع لعدم تلبيتها، وكل أكلة تُحمل إلى بابهما إحراج يصل بهما الأمر إلى وقاحة إعادتها أو إذا عجزت رخيمة عن رفضها احتفظت بالصحن لتردّ في اليوم التالي بأكلة أحسن منها، لكنها ترسل ما يكفي من الإشارات للقول إنها لا تريد لهذه المبادلة أن تستمر.

في النهاية عاد محمود العلمي وعائلته إلى الميناء. بعد يومين استيقظ باكراً للخروج إلى مكتب السفريات فوجدهما جالسَين عند مدخل البناية الخارجي، وكان قد جُهّز حديثاً بباب حديد يقفل في المساء بعد تكاثر حوادث السلب وحتى السرقات المسلحة في وضح النهار، كما شاعت أخبار كثيرة عن عصابة لسرقة الأولاد وبيعهم...

«أمضيتما الليل هنا؟»

خجلا من الإجابة لأنهما لم يجدا سبيلاً للدخول و لم يجدا سيارة أجرة تقلّهما إلى حَورا، ومن فاوضاه من السائقين تذرّع بأن الطريق ستكون في الليل مكسوّة بالجليد ما قد يعرّضه لانزلاق خطير أو اصطدام. دعاهما محمود إلى الدخول، سمع نظام صوت رخيمة

فسارع بلباس النوم ليرتمي في حضنها. اختلى محمود مع زوجته التي كرّرت أمامه كل ما يثار حوله من شكوك في السياسة والنساء وتهريب الحشيشة وكيف يضيف إليها العارفون وبعض الأقارب أنه يتخلّى لزوجَين مسيحيين عن ابنه البكر وأن شقيقتيه نجيحة وزين الدار مستاءتان جداً وتقولان عنها إنها مجرّدة من العاطفة وتبرّئانه فقط لأنه شقيقهما وتنزلان عليها بالتهم لأنها سورية.

بعد جدل طويل أصرّ فيه محمود على حسن سيرته ووعد بإسكات شقيقتيه، اتفقا على أن يمضي نظام العطل المدرسية لدى رخيمة وتوما وأبلغاهما ذلك، فاستعدّا لاستقباله ابتداءً من مساء يوم الجمعة على أن يعيداه مساء الأحد، فاقترحا إعادته صباح الاثنين وكان لهما ما أراداه شرط أن يوصلاه مباشرة إلى المدرسة التي غاب عنها كثيراً.

قبَيل موسم الصيف التالي فهم توما أن آل العلمي متردّدان في الصعود إلى حَورا، فقرر أن يكون إيجار البيت تقدمة منه. تدارسا كيفية إبلاغهم بذلك من دون أن يظهر الأمر وكأنه محاباة، ففوجئ توما .بمحمود وهو ينتحي به جانباً يطلب منه إقراضه بعض المال بانتظار أن يخرج من مصاعبه التي تراكمت بسبب غيابه عن المكتب. وافق توما، وبعد أن زفّ النبأ إلى رخيمة اتفقا على تسليمه المبلغ في اليوم التالي، ورفض توما أن يوقّع محمود أي سندات. لكن المبلغ الذي اقترضه محمود من توما لم يغيّر شيئاً في بؤس العائلة ومشاكلها. كانت صباح ما تزال تحت وطأة تربية التوأمين فأمضى نظام أيامه لدى توما ورخيمة وأصيب بالحصباء فخشيت صباح من العدوى هذه المرة على أولادها الآخرين فلم تطالب به لشهر كامل تقريباً فتناوبا ليل نهار كي لا ترتفع

حرارته فجأة. ومحمود بدأ يغيب، فتبقى صباح والأولاد وحدهم ثلاثة أو أربعة أيام متتالية يظهر بعدها محمود متعباً فينام طويلاً، وما إن يسترجع قواه حتى يرحل من جديد. طلّق لعب الطاولة والجلسات في أوتيل بالاس، يحصي أولاده بالنظر ويسأل بشكل آلي عن الغائب أو الغائبة، لا يكاد يطبع قبلة على جبين أحد التوأمين اللذين تفننت صباح في إلباسهما ثياباً مختلفة الألوان للتعود على تمييز خالد عن بلال، وكانت لعبة ميسلون البحث عن علامات فارقة لكن الشبه كان كاملاً في الوجه ولم تعثر إلاّ على إصبع مفتول في رجل بلال، لكن ذلك لم يكف فعلّقوا في رقبة بلال قلادة باسم محمد لأن بلال كان مؤذّن الرسول، واختاروا لخالد سيفاً مذهّباً.

جاءت نهاية أيلول وكان الوداع صعباً، لا فقط على توما ورخيمة بل على نظام أيضاً الذي صار واثقاً من نفسه أكثر فتمسّك بفستان رخيمة رافضاً النزول إلى المدينة، فتركه أهله على أمل أن يلحق بهم كالعادة بعد حين. صباح لم تكن في أفضل أحوالها، فمحمود غاب طوال الأسبوع الأخير والوجل والترقب باديان عليها. استأجر لهم توما سيارة تقلّهم مع بعض الحوائج إلى الميناء، وكانت رخيمة قد كرّرت على صباح عرض مساعدتهم في غياب محمود بما يلزم إلى أن اضطرت إلى القبول والشكر واعدة بردّ كل ما في ذمتهم في القريب العاجل ورخيمة تطمئنها أنها وزوجها يملكان من «خيرك الكثير» وأن لا تشغل بالها بأمور تافهة كهذه، فالمهم أن تعتني بعائلتها وأن تنتبه إلى زوجها.

5

مرّت الأيام و لم يطالب به أهله فنزل توما إلى المدينة مستقصياً. وجد مكتب السفريات مقفلاً. استطلع الأمر من صاحب أحد المحال المجاورة فأخبره أن محمود العلمي مطلوب للقضاء من جديد وقد فرّ إلى سوريا والتحقت به عائلته ولا ينصحه بالسؤال كثيراً عنه كي لا يأخذه المكتب الثاني إلى الاستجواب. وشعر توما بأن الرجل الطويل القامة الذي أخبره بذلك كله لم يكن آسفاً على ما آلت إليه أحوال جاره العلمي.

عند عودته إلى البلدة بدا توما متحمساً. عرّج على الدكان واشترى أشياء وأوصى على الكثير غيرها وهو يفكّر في مستلزمات إقامة نظام الطويلة عندهما، حمل الأكياس برشاقة، مشى برشاقة، هواء الليل القارس بدا منعشاً، راح يصفّر وحده في العتمة وهو ينحدر نحو البيت. انتظر نوم نظام ليخبر رخيمة. أخبرها متصنّعاً الأسف ما عرفه عن آل العلمي، فبادلته الأسف وحرّجت عليه ألا يخبر أحداً بهذه الشؤون حفاظاً على سمعة العائلة. تبادلا التحسّر على أصدقائهما لكنهما مع صباح اليوم التالي اصطحبا نظام لتسجيله في مدرسة الراهبات اللعازاريات القديمة العهد في البلدة والتي تكتظ بأولاد

القرى المجاورة. سألتهما المديرة بداية عن اسمه فقالا نظام وكان هذا الأخير قد عثر على إصبع طبشور ملوّن راح يخرطش به على الكراسي في مكتب المديرة. سألتهما عن اسم العائلة وهي بالتأكيد تعرف كل ما تسأل عنه فتردّدا وقال لها توما:

«ألا يكفي اسم نظام؟»

أبدت الراهبة امتعاضاً فتدخلت رخيمة طالبة منها أن تكتب ما تريد مستجدية بنظراتها تفهّم وضعهما. أصرّت الراهبة على كتابة اسمه الحقيقي كاملاً لأن على المدرسة رفع لوائح بأسماء التلامذة إلى وزارة التربية. فسجّلت على الإضبارة «نظام العلمي» مع توقف آخر عند اسم الوالد محمود. كان نظام في هذه الأثناء قد وصل إلى الرسم بالطبشور على صورة البابا يوحنا الثالث والعشرين وهو يسأل رخيمة بإصرار:

«من هذا؟»

سألتهما الراهبة عن ديانته فلم يأتها جواب أحد فابتسمت بمكر ثم فكّرت قليلاً وصرخت في نظام أن يهدأ وانتزعت منه صورة البابا ثم راحت تضرب بالقلم على خشب المكتب متحفّزة لاتخاذ قرار في هذا الشأن.

«سيكون اسمه نظام العلمي رسمياً».

تطلّع هذا الأخير إليها وهي تلفظ اسمه بصوت عال، كأنها تناديه في أخذ تعداد التلاميذ صباحاً.

في الأيام الأولى، صعدت رخيمة معه في باص الطلاب، فالمدرسة بعيدة وهي تخشى عليه، تجلس إلى جانبه، يصرّ هو على الجلوس إلى جهة النافذة، يرمقها الصغار بنظرة استغراب، يطمئنها السائق

أنه قادر على العناية به وأن لا لزوم لمرافقتها إياه، تصرّ وتوصله إلى باب الراهبات. ترجع وحيدة جالسة في الصفّ الأمامي خلف مقعد السائق، تعبر البوسطة الشارع العام حيث تشيح رخيمة بوجهها كي لا تقع عيناها في عيون رواد المقهى الصباحيين أو النساء القاصدات الكنيسة لحضور قداس الساعة الثامنة. إذا كان الطقس صاحياً تذهب بعد الظهر سيراً على الأقدام لتعود جالسة إلى جانبه، وقد بدأ يعتاد رفاق الصفّ والحافلة، فيشاركهم المزاح وراح بعضهم يسخر منه وناداه أحد الصبية المعروفين بشقاوتهم:

«نظام رخيمة!»

فزجرتهم المدرّسة وضحك البعض من هنا وهناك. في اليوم التالي طالب بالمجيء بالحافلة وحده كما رفض ارتداء المريول مثل البنات، وإذا أرغم على ذلك كان يعود في المساء وقد ملأ الحبر والشوكولاته جيوبه فترميه رخيمة مباشرة في الغسيل حتى اقتنوا له نصف دزينة منها...

أحبّته المعلمات، لا يمرّ بجانب إحداهن إلا وتداعبه على رقبته او تمرر يدها في شعره. موظّفة الاستعلامات لا تفوّت فرصة لتقبيله قبل أن يزأر ويدفعها بعيداً عنه. حتى المديرة الأخت فرنسيسكا تمسكه طويلاً بيديه إذا ما أعطت ملاحظة تخصّه. تزعم أنها من الاكليروس التقدّمي العامل بتوصيات المجمع الفاتيكاني الثاني، فوجدت في نظام ضالتها لتجعل منه حالة نموذجية لتلميذ مسلم يتحوّل إلى المسيحية من تلقاء نفسه. تشجّعه على حضور القداس الصباحي في المدرسة، لكنه خيّب أملها في التعليم الديني الذي كان يتبرّع بتدريسه كاهن شاب يكثر من التدخين ويتناول مواضيع ضبابية مثل الروح القدس

أو خلاص النفس. كان كلامه يسقط على الأولاد كالضرب بالعصا فيتلهّون عنه بوشوشات ثنائية. وكان كلما رمى عقب سيجارة وداسها بكعب حذائه بحدّة سأل التلامذة تكراراً آخر فكرة قالها، فلا يجد من يجيبه فيستمر يتحدث وحيداً في أهمية التجسّد وكيف أن يسوع إله وإنسان في آن واحد. لاحظ نظام أن فتاتَين تجلسان على مقعد واحد كانتا تخرجان من الصفّ عند دخول الكاهن إلى درس التعليم الديني، تنهضان معاً وتتوجهان إلى الباب، بلا إذن، وكان الكاهن إذا ما تأخرتا في الخروج انتظرهما واقفاً صامتاً حتى تغلقا الباب وراءهما تطاردهما نظرات الغيرة ليبدأ درسه. سأل نظام عن سبب خروجهما فأسرّت له إحدى البنات أنهما مسلمتان. تمضي عائلتهما عادة فصل الصيف فقط في حَورا على مثال الميسورين من أبناء المدينة، لكنهم أمضوا فيها شتاء هذا العام أيضاً لأن جفاف المناخ، كما أوصى الطبيب، يساعد في شفاء ابنتهما الصغرى من داء الربو المتسلّط عليها منذ الخامسة من عمرها. في يوم مشمس ملأت فيه العصافير أشجار الحور شبه العارية في ملعب المدرسة، انتظر نظام كي تقف الفتاتان وتخرجا من الصفّ ليلحق بهما نحو الباب. ناداه الكاهن:

– إلى أين؟

كان جوابه حاضراً:

– إلى الملعب.

ظن الكاهن أنه يمازحه أو يتذاكى فنهره طالباً إليه أن يعود إلى مكانه.

– أنا كمان مسلم.

تجهّم الكاهن فساد الهرج والمرج. ترك الفتاتَين تخرجان ثم أقفل

الباب وطلب من إحدى التلميذات أن تنادي المديرة.

– يقول إنه مسلم ولا يريد حضور التعليم الديني...

احمرّت وجنتا الأخت فرنسيسكا. كان التلامذة قد وقفوا يتفرّجون كأن حادثاً وقع في الفسحة الأمامية من قاعة الصف. تردّدت المديرة كعادتها، بدا نظام مصمّماً لا يريد تفويت فرصة الخلاص من الكاهن، فأشارت عليه بالخروج إلى الملعب.

– أنت حرّ...

قالت له وهي تكتم صدمتها خلف وجهها الحاد القسمات. فصار نظام يهيم مرّتين في الاسبوع في أرجاء الملعب بصحبة الفتاتَين اللتين لا تفترقان أبداً ولا تتحادثان معه فأصيب بضجر من نوع آخر، فحاول مرة من غير إنذار تقبيل الصغرى فصرخت الكبرى وسمع صراخها من مبنى الإدارة كأن خطراً داهماً ومميتاً يحدق بأختها.

– إنها مريضة!

ابتعد نظام عنهما وصار إذا ضاقت به هذه الفرصة التي أرادها لنفسه، وإذا كان الطقس حاراً بعض الشيء يدخل إلى المرحاض ويطيل بقاءه فيه بسبب برودة المكان.

في هذه الأثناء استأجر آل العلمي بيتاً في حمص وأرسلوا ميسلون إلى المدرسة الرسمية المجانية و لم تكن صباح قادرة على تحمّل أكلاف خادمة تساعدها. كانت عند كل زيارة خاطفة إلى لبنان، وفي دورتها على الأقارب لتطمينهم على محمود، تضطر إلى تحمّل حديث متكرّر تنبري فيه إحدى بنات حميها للسؤال عن الأولاد واحداً واحداً، وكانت صباح تعرف تماماً خاتمة هذا التعداد، ترمي في البداية

الأجوبة كيفما اتفق، تساير نجيحة بالقول إن شخصية ميسلون قوية، «طالعة متل عمتها»، يقول عنها محمود، والإطراء ليس كافياً لانتزاع ابتسامة. يطول الكلام بعض الشيء عند أحوال التوأمَين خالد وبلال وأمراضهما المتزامنة.

«ونظام؟ كيف نظام؟»

يتركونه للأخير بغية الاستفاضة. تبدأ السائلة بتجاهل العارف موحية بأنها تسأل عنه باعتباره بطبيعة الحال مقيماً مع العائلة في حمص لتتمتع بتلعثم صباح التي تخرج في كل مرة من الامتحان بتورية من نوع:

«إنه في جيرتكم...»

تضيف إليها تبريراً حول «ضعف المستوى» في المدارس السورية وأن محمود يصرّ على تعليم نظام في مدرسة خاصة في لبنان، فتهتز الرؤوس دون اقتناع. وبعد صمت ثقيل، تخبر إحداهنّ صباح بلهجة التحذير أن الراهبات في المدرسة غيّرن اسمه، «إن كنت لا تعرفين». فتستبعد صباح الاحتمال وتحتار بماذا تجيب. وكانت أخبار نظام هذه تصل إلى عمّاته عن طريق العائلة المسلمة التي أمضت فصل الشتاء في حَورا. الفتاتان، لا بل الكبرى وحدها لأن الصغرى المصابة بالربو كانت تستلطف نظام منذ حاول تقبيلها وتوسّع له أحياناً ليجلس بجانبها على مقعد الصفّ بالرغم من الاعتراض الصارخ من شقيقتها التي ترفض التراجع عن أدنى مساحة من النصف الخاص بها، تخبر أمها في المساء:

«هذا الولد الأشقر، نظام، الذي تحبّه الراهبة لم يعد اسمه العلمي».

كانت الدعابة انطلقت من إحدى التلميذات في الصفوف العالية

التي نادته باسم نظام أبو شاهين فراقت التسمية رفاق صفّه وراحوا يرمونه بها وهم يوجهون إليه إصبع الاتهام. بدل أن يدافع عن نفسه راح يشاركهم عندما بدأوا يصرّفون اسمه عالياً في الملعب متأثرين بدرس القواعد فيغنّون وهم يلوّحون بأيديهم:

«عَلمي، عَلمك، عَلمه، عَلمهم...»

تصعد صباح إلى حَورا فتضمّه طويلاً وتجلسه بجانبها تسأله عن أحواله ثم عن المدرسة وتطلب منه أن يكتب أمامها اسمه بالفرنسية ورخيمة تتابع بقلق. لكن نظام لم يكن ساذجاً، يكتب اسمه الأول فتعترض أمه لأنه يكتب على يده بالحبر الأزرق، يراضيها بأن يكتب العلمي على اليد الثانية بلا تردّد فتطبع على وجنته قبلة.

ترتاح من همّ صغير هي المضطرة للحلّ والترحال، تمضي ساعات طويلة على الطريق وتخشى في كل مرة أن يتعرّف إليها عند الحدود عناصر الأمن العام اللبناني. تسترسل في عرض أحوال عائلتها فيطلب توما من نظام الخروج إلى الدكان القريب ليشتري القهوة التي لم تنفد بعد. لا يريده أن يسمع كيف عجز آل العلمي عن دفع إيجار مكتب السفريات الذي استردّه صاحب الملك. تحاول صباح طمأنتهما من دون اقتناع منها بأن الأمور المادية ربما ستتحسن. محمود استأجر صالة للسينما في حمص مع كامل المعدات، بدأ تشغيلها منذ شهرين. يتبادل توما ورخيمة نظرة مفادها أن لا فائدة ترجى ايضاً من «تجارته» الجديدة. يطلب من صباح عند زيارتها لبنان أن تذهب إلى بيروت لدى وكلاء الأفلام الأميركية عساها تقنعهم بأن يرسلوا إليه في سوريا أفلاماً غير متوفرة هناك مثل «القرصان الأحمر» أو «البطل المقنّع»، وقد كتب لها الأسماء على ورقة وبينها أفلام قديمة من بطولة غلوريا

سوانسون. تخبرهم صباح أن ميسلون تحب كثيراً السينما وهي متفوّقة في الصف بحيث لا يمكن حرمانها من حضور الأفلام فتنخطف وتبقى عند خروجها مأخوذة بها لوقت طويل فيبتسم الجميع وتعود الهموم. تشتكي من أن محمود يخاف باستمرار أن تعتقله الشرطة السورية وتسلّمه للدولة اللبنانية، وأن مصيره كما يقول يتوقف على استمرار الخلاف بين الدولتين. أصرّا عليها كي تمضي الليلة عندهما وهما يقولان ممازحين إن المنزل الصيفي ما زال بانتظارهم والبيت بيتها هنا وهناك. غادرت في اليوم نفسه، فارتاح توما ورخيمة الخائفَان من أن تطالب باصطحاب نظام معها، وأصرّا على تحميلها هدية أعدّاها بعناية فيها مال نقدي وضع في مغلف أراداه رسالة لطيفة من نظام إلى أبيه وأمه وأن من الأفضل أن لا تفتحه إلا بعد أن تصل إلى منتصف الطريق.

في اليوم التالي قصد توما المدرسة طالباً من الراهبة أن تبقي على الاتفاق الأول فتنادي الولد باسم نظام العلمي لأن أهله «لا يهون عليهم» تغيير اسمه. هكذا صار، دخلت الأخت فرنسيسكا بكل بساطة إلى الصفّ، نادت نظام وأوقفته إلى جانبها وهي تمرّر يدها في شعره المتموّج وحذّرت رفاق صفّه من أن يطلقوا عليه اسماً غير اسمه، وسألت الصفّ بأكمله:

«شو اسمو نظام؟»

فأجابتها جوقة من الأصوات المتعارضة، قسم قليل منها يساير رغبة الراهبة فيقول «نظام العلمي» والقسم الأكبر، وأكثره من الفتيات، يعاند بالهتاف ورفع الأيدي صارخاً «نظام أبو شاهين»،

حتى اضطرت المديرة إلى كسر مسطرة الخشب التي لا تتخلى عنها على طاولة الأستاذ لإسكاتهم. كان نظام فرحاً بهذه الهرجة التي تسبب بها، يشارك في الصراخ مع الفريقَين ويصعد فوق الطاولات كي يُسمِع صوته. ختمت الأخت فرنسيسكا المسألة جازمة بأن من يناديه من التلامذة نظام أبو شاهين سينال العقاب. و لم يكفهم العبث باسم عائلته فلطّفوا اسمه الأول للتحبّب حيناً وللمسخرة أحياناً حتى لبسه لقب نانو الذي أطلقته عليه إحدى المعلّمات في صبيحة لم يكن مزاجها فيه متكدّراً كسائر أيام الأسبوع.

في بداية العام الدراسي التالي تسبّب لرخيمة بمفاجأة حياتها. كانت تساعده في تجليد كتبه ودفاتره الجديدة عندما وجدته قد كتب على واحد منها، واحد فقط، دفتر الحساب، اسمه نظام توما أبو شاهين، هكذا بلا إنذار ومن دون أن يطلب منه أحد. لم تصدّق رخيمة عينيها وانفعلت ونادت بالصوت الصارخ توما الذي هرع كأن النار اندلعت في البيت فأرته ما كتبه نظام وراحا يضمّانه بلا توقّف حتى ضاق خلقه وهرب منهما إلى غرفته. كانا قد خصّاه بغرفة مستقلة بقي كلاهما حتى بلوغه الرابعة عشرة من عمره كلما استيقظ ليلاً يدخل إليها ليطمئن عليه. وكانا قد احتارا في البداية ماذا يفعلان بالصليب المعلّق فوق السرير الذي ينام فيه، والدة رخيمة علمتها أن تضع صليباً فوق رأس كل نائم، فاستقر رأيهما على نزعه وتعليقه كحل وسط على الجدار المقابل. توما كان يعرف مواقيت الأذان الذي تبثّه إذاعة القاهرة يومياً، لا يفوّت عليه إلاّ نادراً ما يتلوه الشيخ عبد الباسط عبد الصمد فكان يغمض عينيه ويستلقي في غرفة الجلوس عندما يكون متعطلاً

عن أعمال الأرض. فاجأه نظام ذات يوم وهو يصغي إلى الأذان فوقف مستغرباً منظره فأسكت توما صوت الراديو كأنه في جرم مشهود محرجاً أمام نظام الذي قال إنه هو أيضاً كان يستيقظ صباحاً على صوت الأذان الطالع من جامع البحر في جوار بيتهم في الميناء.

ونظام عاد مرة إلى زيارة الميناء في الأسبوع الأخير من شهر رمضان، نزل في ضيافة عمته زين الدار التي طالبت به كي يعرف أن لديه أقارب «في هذه الدنيا»، تنزّه مع أبناء عمته في الشوارع، تهكّموا على بعض المفردات الجبلية التي أنزلها معه، مرّوا بجانب ساحة السمك التي كانت مقفرة في ذلك اليوم، لا بشر ولا سمك، فقط بيت الشعر «لا تكن للعيش مجروح الفؤاد إنما الرزق على ربّ العباد». كان الصيادون مضربين لأن الحكومة ستمنح إحدى الشركات امتيازاً لصيد الأسماك بالبواخر الصناعية وقد انضمّت إلى مطالبهم الأحزاب اليسارية. فوقف نظام وأقاربه يتفرّجون كيف أغلق الصيادون البحر بقواربهم وقطعوا الطرقات وقد ظهرت أسلحة في أيدي بعض العناصر الحزبية، وعند المساء سمع إطلاق نار فأقفرت شوارع الميناء باكراً.

في اليوم الأول لوصوله استغرب عدم قيام عمّته وعائلتها إلى الغداء، فذكّروه بأن الشهر صيام. كان قد نسي فأدركوا أن الأمر مفهوم بسبب عشرته الجديدة فرفض بدوره الأكل فقالوا إنه ليس ملزماً الصيام لأنه ليس بالغاً بعد، لكنه رفض الأكل حتى ضرب مدفع الإفطار من قلعة المدينة الصليبية وكاد في هذه الأثناء أن يغيب عن الوعي، وهو متمدّد على الأريكة فرشوّا وجهه بالماء بعد أن امتنع حتى عن الشرب في جوّ الحر الشديد. وفي أول أيام رمضان، حمّلوه

باقة زهر في زيارتهم إلى المدافن وهو يلقي نظرات متفحّصة على شواهد القبور وجمهرة الناس الزائرين كأن المقبرة تحوّلت إلى حديقة عامة. عند عودتهم إلى البيت أخذته عمته نجيحة جانباً وسألته عما إذا كانوا عمّدوه فوق في القرية، فأخبرها أنه ذهب إلى الكنيسة واعترف بخطاياه للكاهن وأنه صار يخترع له خطايا والكاهن لم يعرف أنه مسلم لأنه لم يره جيداً من خلف الحاجز الخشبي وفجواته الرفيعة. انفرجت أسارير نجيحة.

«لا يُخاف عليك يا نظام العلمي!»

فرحتها لم تطل إذ استرسل نظام بالكلام فأخبرها أن رفاقه عمّدوه في النبع، فانقبض وجهها مجدّداً:

«في النبع؟ كيف حدث ذلك؟»

نادت شقيقتها زين الدار كي تسمع قبل أن تسعى للمزيد من الاستفهام، لا بل راحت تضرب رأسها بيدها وتولول قائلة إنه سيترتب على ذلك نتائج كبيرة فاستمهلتها زين الدار كي تعرفا الخبر على حقيقته، فأحجم نظام عن الكلام عندما رأى عمّته يجنّ جنونها فلاطفتاه طويلاً قبل أن يستأنف روايته. اصطحبه رفاقه إلى نبع مار عبدا كما يسمّونه وحَورا مشهورة بنبعها هذا الذي يطلع متدفقاً في شهر أيار فيحدث دوياً أقرب إلى دويّ الرعد في فصل الشتاء، وكان رفاق نظام يعرفون أن موعد طلوعه قد اقترب فسمعوا الصوت الكبير قبل أن يشاهدوا تدفق الماء، فخلع الصبية ثيابهم وسبحوا فيه والماء بارد لا يطاق. وهو لم ينزل معهم ليس لأنه يخاف الماء بل لسبب آخر، قالها وهو ينظر إلى عمّاته ليقينه أنهما ستفهمان. طلب منه رفاقه على الأقل الوقوف في الماء، وكان بينهم شاب اكبر سنّاً من المجموعة لم

يتورّع عن التشبه بصورة في كتاب التعليم الديني ليوحنا المعمدان وهو واقف وسط نهر الأردن، رفع بنطلونه إلى فوق ركبتيه، غرف الماء بيده وسكبه على رأس نظام وهو يتلو ما يشبه الصلاة ضاحكاً إلى أن عجز نظام عن تحمّل صقيع الماء على رأسه فضرب الشاب على يده. انتهت حفلة العماد بانقسام المجموعة إلى فريقين وتضارب بالحجارة وتبليل بالماء وزعل ومصالحة كما درجت العادة.

زادت رفقته خشونة بعد انتقاله إلى مدرسة مي زيادة الرسمية لأن الراهبات لا يقبلن الصبيان بعد الصفوف التكميلية. وكانت الأخت فرنسيسكا قد انتقلت إلى دير آخر في محافظة البقاع، ففضلت المديرة الجديدة إبعاد نظام عن الفتيات لفرط ما وصلها شكاوى عن تحرّشه بهن في غرفة الصف أو في الملعب، ووراء الأشجار. يقبلن المداعبة ويشتكين منها.

هناك أيضاً لحق به اسمه وعندما كان أستاذ اللغة العربية يضرب بيده على الطاولة صارخاً «نظام»، ليفرض الصمت والرهبة على محترفي البهلوانات كان رفاق نظام يدفعونه للوقوف والإجابة:

«حاضر!»

كأن الاستاذ يناديه، ما يضاعف من أسباب الضوضاء والتضارب بكل ما تصل إليه الأيدي.

في تلك الفترة نادى رخيمة للمرة الأولى بعبارة أمّي. كاد ينزلق مرة وهو يصعد الدرجات التي تفصل البيت عن الطريق فصرخ: «يا أمّي!» بصورة لاشعورية فاختلج قلب رخيمة التي سمعته من داخل البيت لكنها كتمت نفسها. في المرة الثانية ناداها هي ولم يكن من

مجال للالتباس، كان قد بقي حتى ذلك العام تقريباً يتفادى أن ينادي توما ورخيمة بل يكلمهما مواجهة ويعبّر عن طلباته، ولما كانت تسأله إحدى رفيقاته في مدرسة الراهبات عن صلة قرابته معهما، كان يرفع كتفيه كأن السؤال يطرح عليه لمجرد إزعاجه. ناداها أمي هذه المرة ليدلّها على الطائرات المحلّقة في سماء جبل الأرز الصافية وكان فصل الصيف قد اقترب. طائرتان عاليتان لا يسمع لهما صوت تحلّقان معاً فتتركان وراءهما خطين متوازيين من الدخان الأبيض قبل أن تختفيا وراء المرتفعات. في ذلك اليوم كان توما قد ارتاح من أشغاله المتكاثرة في البستان مع حلول الربيع ليبقى في البيت، في قاعة الجلوس، قبالة الراديو، صديقه طوال فصل الشتاء، يبثّ الأخبار المتتالية والأغاني الحماسية. إنها الحرب بين العرب وإسرائيل.

لا مجال للالتباس هذه المرة، نادى رخيمة أمي قبل أن ينادي توما أبي، وراح يتسلّى بلصق الورق الأزرق على جميع نوافذ البيت كي لا يظهر الضوء على الطائرات الاسرائيلية المحلّقة في السماء كما أوصت الحكومة في تعليماتها إلى المواطنين.

6

دخل نظام سن المراهقة فاجتاحه حَبّ الشباب وتغيّر صوته، لكنه خرج سريعاً من فترة انطوائه. ندرت لقاءاته بأهله، وزاد إنفاقه على رفاقه من دون منّة، يحاسب تلقائياً في المطاعم فلا يتكلّف أحد حتى مشقّة الادعاء أنه يرغب في الدفع من ماله. وكان إذا ما فرغت جيوبه يستدين ولا يقبل أن يسهم أي من أترابه في النفقات وأصحاب الدكاكين والمقاهي يرفضون بدورهم المال من أحد غيره، ومنهم من يضاعف المبلغ المستحق على نظام يوم يأتي توما لتسديده، وإذا عاتبت الدكنجي زوجته سراً، أفهمها أن أهل البلدة أحقّ بأموال توما أبي شاهين وأملاكه التي ستذهب بالتأكيد إلى هذا «العجيّ».

نظام يقرّر وجهة الرحلات وبرنامجها، كان قادراً على إيجاد أسباب للتسلية في أمكنة ظنّ أولاد حورا أنهم يعرفونها بما يكفي ليقصدوا غيرها. كانوا هكذا ينحدرون جماعة إلى الوادي المقدّس فيتعلّق نظام فور وصولهم بحبل الجرس الكبير يساعده بدين من رفاق الرحلة حتى يُخرجا ولو دقّة وحيدة في غير موعدها فيهرع أحد الرهبان لتأنيبهم، فيرمون المسؤولية على نظام فيسأله الراهب عن اسمه فما يكاد يقول

نظام حتى تكمل الجوقة هذه المرة بصوت واحد أبي شاهين، فيصحّح لهم معانداً علمي، فيطردهم الراهب إلى خارج الدير حيث يفترشون الأرض ويأكلون. فيقطف نظام الرمان أو الإجاص من أشجار الدير غير عابئ بما يكرره رفاقه من أن «مار أنطانيوس عينه ضيّقة» وقد يصيبه بمكروه، ولا يكتفي بذلك بل يتسلل مجدّداً إلى كنيسة الدير ليتفحّص النذورات التي يضعها المؤمنون على المذبح. لولاه لكانت مواعيدهم رتيبة. وهم ما كانوا يحبونه لماله فقط بل لأنه لم يكن يحفظ ضغينة، صنف من الشباب يندر وجوده في هذه القرى الصعبة المراس. لا يمكن إغاظته مع أن اللئام كثر في مثل هذه السنّ، يعالج غضبة من يلومه بدل أن يدافع عن نفسه. كان فسحة سلامهم في عداواتهم الصغيرة وهو «لا خطيئة من ورائه» كما قالوا فيه، صورتهم الجميلة عن أنفسهم، يصالحهم، يرشوهم كي يتعانقوا ويرموا الخلافات وراء ظهورهم.

هكذا مضت سنوات كان فيها محمود العلمي يعجز يوماً عن شراء اللحمة والأرزّ للغداء نقداً ثم فجأة يظهر عليه المال وفيراً في اليوم التالي. فشلت صباح في إقناع ميسلون بعقد قرانها على شاب من عائلة ثرية ما تزال تملك الكثير بالرغم من التأميم الذي طال أراضيها لكونها هرّبت أموالها إلى المصارف اللبنانية. عاندت ميسلون و لم تبك، لا تعرفه وقد رأته مرة واحدة فلم تعجبها نظراته. بدأت تطالب يومياً بالعودة إلى لبنان وتحرّض شقيقيها التوأمين على ذلك وتقول إنهم لو عادوا إلى لبنان يعود إليهم نظام و لم يكن هناك من يسمعها، فمحمود مشغول، متلبّك على جبهات عدة، يكثر الوعود ولا يفي،

وصباح ما تزال تأتي إلى لبنان، تحمل معها علب شرائط الأفلام وتعرّج على بيت الميناء، تمضي فيه يوماً لتنظيفه وإعادة ترتيبه وتدمع عيناها بسبب طول منفاها ولو في مسقط رأسها وقرب أهلها. تردّ الأفلام إلى الموزّع في بيروت وتحمّل غيرها قبل ان تعرّج على بيت مفلح الحاج حسن في العاصمة فيكرم ضيافتها ويصرف سيارة الأجرة التي تقلّها متعهداً إيصالها إلى الحدود اللبنانية السورية. يتكفّل أيضاً بمرورها السريع على حَورا لتحمل إلى نظام، بطلب من والده محمود، سلسلة جرجي زيدان من القصص التاريخية، من مخلفات مكتبة الثقافة الجديدة، كي يتعرّف إلى الماضي المجيد للأمة العربية، ويؤمن من ثمّ وصولها إلى الحدود حيث استرعت مرة تلك العلب الحديدية المستديرة المكدسة في صندوق سيارة الأجرة الخلفي انتباه موظّف جديد في الأمن العام السوري. أخرجها وفتّشها فوجد المخدّرات مدسوسة في علب فيلم «سجين زندا». اقتادوا صباح إلى سجن الحدود المؤقت فتسبّبت بإرباك لرجال الأمن غير المعتادين على اعتقال امرأة لتنام فيه ليلة قبل أن يصل الخبر إلى حمص فتدخل لإطلاقها أحد أبناء شقيقها وكان ضابطاً في المخابرات الجويّة كما يسمّونها، لكنها أدلت باعترافات كاملة ومن شدة بكائها وحسرتها تأكد المحققون من أن مهرّبين محترفين قد استخدموها. اختفى محمود مرة جديدة تاركاً التوأمَين على ميسلون وإحدى خالاتهم. خرجت صباح غاضبة مبهدلة وهي تفتش عن زوجها لتقول له إن كل ما اشتغله في حياته كان غطاءً للتهريب، التهريب والنساء، وتقسم اليمين إنها ستدكّه في السجن، وإنها تصدق اليوم ما وصل إليها همساً من أنه عندما فتح المكتبة في طرابلس كانت الكتب أيضاً وسيلته لتهريب الحشيشة حتى

إنه لم يتورّع عن دسّها في القرآن الكريم وكتب الأحاديث السميكة. عادت إلى حمص فلم تجد ميسلون التي هربت بدورها وقصدت طرابلس بحافلة الركاب ودقت باب عمّتها نجيحة فجأة طالبة المكوث عندها لأن أهلها يريدون تزويجها بالقوة.

كانت صباح تمسك عائلتها من جهة فتفلت من جهة أخرى، ونظام في عزّ مراهقته، يقود الشلّة نفسها. نزلوا مرة إلى الوادي يسطون في طريقهم على اللوز الأخضر، وفور وصولهم تغامزوا وانقضّوا عليه، ثبّتوه ونزعوا عنه بنطلونه وسرواله الداخلي قبل أن ينتبه إلى مقصدهم فاستسلم ضاحكاً وسهّل عليهم حشريتهم. أمسك ذكره بيده وراح يدور به في جميع الاتجاهات ليعرضه على هؤلاء المتشوّقين لمعرفة كيف يكون الولد المسلم مطهّراً، ومنهم من اقترب لملاحظة الفارق وآخر أخرج ذكره وراح ينظر إلى الاثنين ويقارن بينما كشف أحدهم أن شقيقه الأصغر جرى تطهيره في المستشفى، فصفّر الآخرون استنكاراً بينما كان نظام يكمل استعراضه بأن وقف على مرتفع صغير وراح يبوّل عالياً والرفاق يتجادلون في ما إذا كان ولوج المرأة أسهل على المطهّرين، وكيف أن المسيحي يتوجّع في المرة الأولى التي يعاشر فيها النساء فوعدهم نظام بأنه سيخبرهم بالنتيجة بالنسبة للمطهّرين فور نزوله إلى بيروت. وكان بعضهم قد بدأ يتعرّف إلى العادة السريّة لكن الحياء كان يمنعهم من أيّ تلميح قد يفضحهم، وهم إذ يتشاوف بعضهم على بعض بصحبتهم مع البنات التي لم تتعدّ مرة الإمساك باليد أو القبلة كانوا يتهمون الفاشل من بينهم بأنه لا يحسن سوى التمتع وحده.

سمعوا وهم في خضم عراكهم الكلامي صوتاً حازماً صارخاً صارماً يعدّ موقّعاً:

واحد، اتنين...

على الإيقاع تليه أوامر مثل:

«قف!»

أو

«قدّم سلااااااااحك!»

تليها أصوات ضرب الأكفّ على أعقاب البنادق.

أنصت رفاق المدرسة ومشوا متسللين نحو الجهة التي صدرت منها الأصوات:

«الشباب يتدرّبون...»

تلصّصوا على صفّ ممن يكبروههم سناً بقليل يقودهم رجل بشاربَين مفتولَين يلبس جاكيتة عسكرية وسروالاً من الجوخ الرمادي العادي، وكذلك رجاله الذين كانوا يعتمرون قبعات ويضعون شارات عسكرية كيفما كان، كأن من زوّدهم بالثياب العسكرية كي يجعلهم يتآلفون مع أحوال الحرب لم يؤمّن لهم العدد الكافي من البزّات فتوزعوها في ما بينهم وفق ما اعتبروه إنصافاً.

اكتشف المدرّب المراهقين فناداهم طالباً إليهم أن يخرجوا من خلف الهيشة وينضموا إلى رفاقهم، عليهم أن يتعلموا القتال هم أيضاً كي لا يأخذ الفلسطينيون بلدتهم. تطوّع نظام مع البعض من رفاقه للسير بالمشية العسكرية خلف المجموعة المتدرّبة وهم يقلدون حركاتهم حتى انتهى الدرس، فتجمّعوا حول المدرّب الذي راح يكمل مواعظه.

فجأة أشار واحد من الصبية نحو نظام وتوجّه إلى الباقين صارخاً:

«هذا مسلم!»

حلّ شيء من التردّد والإحراج كسره المدرّب بعد أن استوعب

الصدمة التي لم يكن يتوقعها، فراح يلوم الصبي الذي أفشى بديانة نظام:

«مسلم أم مسيحي لا فرق، نحن جميعاً لبنانيون!»

لم يشعر نظام بالارتباك بل كان مشغولاً بالنظر إلى ما خاطه المتدرّبون من صلبان على أذرعة ستراتهم إضافة إلى العلم اللبناني والأرزة الخضراء وعبارة «الوطن لنا» على القبعات المتوفرة بين أيديهم.

كانت مشاريع الشيطنة المتواصلة تشغل نظام، فيحمل إلى البيت دفتر العلامات في الفصل الأول راسباً. وقيل إن بعض المدرّسين صاروا يخفضون علاماته عن قصد لعلمهم أنهم سيدعون لإعطائه دروساً خصوصية في البيت. وقد تمكّن نظام من إقناع أستاذ اللغة الفرنسية بمساعدته في الكتابة إلى الفتيات اللواتي كان يرمي عليهن شباكه، وهو أول ما ينجح في مواعدة إحداهنّ في أحد الدروب غير المدعوسة حتى يسرق منها بعض القبل، ومن هناك يحاول اجتذابهن إلى حقل بعيد وهن يضحكن من خوفهن ومن رغبتهن التي ما تزال في بداية تفتحها. وكانت رسائل الأستاذ المليئة بالإشارات إلى ضرورة التمتع بشميم الورد قبل ذبوله وركوب قطار الحياة المنطلق بأقصى سرعة، تلقى تجاوباً في نفوس بنات حَورا، بينما يُكمل نظام إغراءه لهنّ من خلال اهتمامه بجمالهن وإسدائهن النصائح في اللباس وقَصّة الشعر وحتى المشية واختيار الأحذية وصولاً إلى العطور النسائية والتمييز بين أنواعها. لكن نظام، ما إن يلقّن إحداهنّ فروض الأناقة الأوّلية ويراها كيف تتغيّر وتفاخر بين رفيقاتها بأن نظام متيّم بها حتى يضجر فيطلب من الأستاذ رسالة أخرى إلى فتاة أخرى. كان يحب صيد البنات

منفرداً، يستحم كل يوم ويدخّن السجائر في السرّ. لكنه كان يلقى في نجاحاته النسائية هذه مساعدة لم يكن يتوقّعها إذ يقال إن الأمهات كنّ يشجعن بناتهن على التقرّب منه ولو بالطرق البدائية التي تتقنها، وكان في احتمال زواجه بإحدى فتيات البلدة حلّ وسط لأرزاق توما أبي شاهين على أساس أنها «ستبقى في البلدة».

مع اقتراب شهر حزيران انشغل نظام بالتحضير مع رفاقه لامتحان شهادة البكالوريا وكتابة الأجوبة عن الأسئلة المرجّحة بالحرف الرفيع على قصاصات ورق وعدوا أنفسهم بالنقل عنها. وكان نظام تأخّر سنتَين على الأقل عن العمر النظامي للتلامذة بسبب تغييره المدارس وانقطاعه عنها من حين إلى آخر.

نجحوا جميعاً لأن اللجنة الفاحصة ارتأت خفض معدلات النجاح بناءً على توجيه من وزير التربية لأن الامتحانات جرت في بعض المحافظات ضمن ظروف أمنية غير اعتيادية حيث حصلت مواجهات دامية في الجنوب وجرت تظاهرات صاخبة تخللها إطلاق نار وسقوط جرحى في بيروت احتجاجاً على صرف بعض العمّال في مصنع للحديد. نجح أبناء حَورا ومعهم نظام في امتحانات العلوم الاختبارية فانفتحت أمامهم أبواب الانتقال إلى الجامعة ووجد توما ورخيمة نفسيهما أمام معضلة جديدة.

في تلك الفترة، تكرّرت زيارات صباح إلى طرابلس بعد أن هدأت العاصفة قليلاً. تريد العودة نهائياً إلى لبنان، لكن ميسلون تقلقها، يريدونها أن تتزوّج وهي تعاند، ينتظرون العفو العام كي يتمكن محمود من العودة معهم من حمص. تصطحب معها بلال، رفيقها الدائم، تقيم يومين أو ثلاثة في بيت الميناء، تغسل الأرضية بمياه

جارية، تفتح الشبابيك، تُدخل الشمس، تنادي الجيران، تشرب معهم القهوة والنارجيلة، ترمّم ما انقطع من علاقات بسبب البعد والأخبار السيئة، تهوّي ما خلّفوه وراءهم من ثياب، تُخرج الكتب التي بقيت لديهم من أيام المكتبة و لم ينجح محمود في تصريفها لا بالجملة ولا بالمفرّق. تقع مرة على ألبوم الصور القديمة، ألبوم زواجهما وطفولة ميسلون ونظام، تُجلس بلال إلى جانبها ويقلّبان الصفحات، صار دمعها سخيّاً، تحنّ من الصورة الأولى، هي ومحمود، يطوّقها بذراعه، يقف إلى جانبها، تحمل ميسلون يوم اشتروا لها حذاءها الأول، ومن بعدها يختفي محمود، يتركها وحدها مع رفيقات الصبحيات واقفات على الشرفة، مع ميسلون في خطواتها الأولى، مع نظام... بلال انتبه قبلها فدلّها بإصبعه على الفجوة في صورتهم إلى جانب بركة الماء في الحديقة العامة، ظنّت أن الصورة تمزقت مع مرور الزمن فتشوّه وجه نظام. تكررت الفجوة في الصورة الثانية، نظام أيضاً بلا رأس أمام باب مدرسة الأميركان مع رفاقه، فراحت تقلّب صفحات الألبوم بسرعة وتبحث عن نظام فلا تجده، لم يبق منه أثر، هناك من مزّق رأسه، لم تعرف كيف تشرح الأمر لبلال الذي بدا متسلياً ومتفاجئاً، نادت ميسلون وسألتها فأنكرت لكن صباح لم تقتنع. ميسلون فعلتها، بصبر، بشفرة الحلاقة، جمعت رؤوس نظام ووضعتها بين صفحات كتاب في ظلال الزيزفون، وعندما تضجر تكتب اسمه عشرات المرات على ورقة بيضاء، «نظام محمود توما العلمي أبو شاهين»، مستقيماً، مائلاً، بالأزرق، بالأحمر، بالحبر وبالرصاص.

هكذا وبعد أن أمضى شتاءً كاملاً في حَورا يرتاد خلاله المقاهي نفسها،

وبعد أن همست في أذنه إحدى الفتيات أنها لو التقت به في مكان بعيد، هناك، قالتها بلا خجل وهي تشير جنوباً نحو العاصمة، لأذاقته من الملذات ما لا يمكنه أن ينساه، وبعد أن اكتشف كيف أن رفيقين له التحقا بالجامعة في بيروت كانا يعودان في عطلة نهاية الأسبوع وقد أرسل أحدهما شعره طويلاً على الموضة وأدمن الثاني تدخين السجائر الفرنسية السمراء القوية وهما يتحدثان عن مغنين لم يسمع بهم وعن أفلام ربما تمضي سنوات قبل عرضها في صالة البلدة الصغيرة الباردة، فسلباه شيئاً من تفوّقه في عيون من بقوا مثله في حَورا من شبّان يستعدون كي يرثوا مِهن آبائهم أو يفكّروا في الهجرة البعيدة إلى بلدان تفتح لهم أبواب الرِزق، وبعد أن بدأت ملامح فصل كئيب آخر، وقف نظام في باب غرفة الجلوس وأعلن عليهما:

– بعد شهر أنا نازل إلى بيروت...

ادّعت رخيمة أنها لم تسمع ما قاله بينما سأله توما عمّا إذا كان لديه أمر معيّن يقضيه في العاصمة.

– أنزل إلى بيروت، أتسجّل في الحقوق، في الجامعة اليسوعية...

كانا يؤجّلان سماع ذلك.

– ماذا ينقصك هنا؟ كل ما نملكه لكَ. تنجح في امتحان القيادة ونشتري لك سيارة...

ينزل إلى بيروت، «يشمّ الهواء» مع رفاقه ويعود.

لا يعرف أحداً هناك... لا أحد يعرف أحداً هناك.

– من يطعمك؟

تسأل رخيمة وصوتها يزداد ارتجافاً.

من يغسل له ثيابه ويكويها؟

- كيف تنام وحدك؟

التظاهرات والفدائيون.

- ألم تسمع الأخبار؟

يقول الشيطان إن الدنيا خراب.

الشيطان هو صاحب السيارة المرسيدس التي تنقل الركاب من حَورا إلى بيروت. هكذا يلقبونه. تخصّص من دون سواه من السائقين العموميين بالرحلة اليومية إلى العاصمة، يعرف من هم ركابه عشيّة الرحلة، يدور على بيوتهم في الصباح، يغنّي لهم أبيات الزجل والعتابا في الطريق ويعود بمن يريد منهم العودة قبل المساء.

لن يقنعهما نظام بسهولة. يحرد، يسكت ثم يرضى، قلبه أبيض، لكنه لا يستسلم، يهدّد بالنزول وحده إلى العاصمة، بوسائله الخاصة. يجنّ جنونهما فيهدأ لأيام. يحاول مرة السفر وحده، يعود من منتصف الطريق. يقول إنه يريد أن يصبح محامياً، يلين توما ثم يقاوم، يكاد نظام يبكي غيظاً، يعتصم في غرفته، يقفل على نفسه بالمفتاح، يمتنع عن الأكل، تلين رخيمة، يلين هو أيضاً مع حلول فصل الصيف.

صمدا في وجهه عامَين لكن رخيمة أدركت أنهما لن يمنعاه إلى ما لا نهاية فخطر لها أن تأخذ منه في المقابل. اقترحت الفكرة عليه همساً، تذرّعت بتوما.

«إذا تعمّدت يرسلك إلى بيروت...»

في يوم مصقع ماطر من شهر آذار، قصد وحده قرية مَيدون التي يقال إنها انقلبت سبع مرات لتستقر حيث هي في أسفل المنحدر. لا يريد شهوداً، وجد بيت الكاهن جميلاً محاطاً بأشجار الصنوبر.

فتحت له الخورية، رأته واقفاً مبللاً مصمّماً فدعته للدخول ونادت زوجها. كان الكاهن مصاباً بنزلة صدرية يرتدي ثياب النوم ويلفّ رقبته بشال قرمزي، يشرب الزهورات الساخنة ويتكلّم من أنفه. كان نظام مستعجلاً، عرّف الكاهن عن نفسه وعن وضعه.

- أعرفك من أنت يا ابني...

يعرف توما ورخيمة وأهل حَورا جميعهم.

أخبره نظام أنه يريد أن يتعمّد شرط أن يبقى الأمر سرّاً، وأنه مستعجل وقد يعود عن قراره في أي لحظة إن لم يلبّه على الفور.

اضطر الكاهن إلى الارتجال، عدّل من جلوسه، جمع رجلَيه، رسم إشارة الصليب وسأل نظام بلهجة رسمية عمّا إذا كان راغباً في اعتناق الدين المسيحي، وإذا كان يؤمن بالثالوث الأقدس وبالعذراء مريم وبالكنيسة الجامعة المقدّسة الرسولية وبسلطة أبينا البطريرك مار بطرس بولس المعوشي. كان نظام يهزّ رأسه موافقاً على كل الاسئلة قبل أن يسمعها كاملة. ولما طلب منه الخوري تلاوة فعل الإيمان تأكيداً لأقواله السابقة انطلق نظام بالمطلع يأكل نصف الكلمات من سرعته، لكن الخوري سارع إلى إيقافه موافقاً وسأله إذا كان في نيّته تغيير اسمه فأجابه نظام بالنفي، فاقترح عليه، وكما يفعل الكثيرون، اتخاذ اسم مسيحي بالمعمودية، اسم قديس يكون شفيعاً له يبقى مدوّناً في دفتر العماد ولا يطلق عليه في حياته العادية، وأعطاه أمثلة فتردّد نظام كأن الفكرة أعجبته للحظة فقط. شجّعه الكاهن بالقول إن عيد القديس أنطونيوس واقع يوم الأحد المقبل فيكون اسماً مناسباً ويوماً مناسباً.

لم يتراجع:

«اليوم»!

نظر الكاهن في وجه نظام مليّاً، نظر من النافذة إلى المطر يضرب زجاج النافذة، انتابه سعال قويّ واتّخذ قراره. استأذنه دقائق معدودة وعاد مرتدياً جبّته وطابيته وشالاً أسوداً، سأله من يريد عرّاباً وعرّابة فوافق نظام على أي كان، فاقترح الكاهن زوجته على أن يجدا عرّاباً ذكراً في طريقهما إلى الكنيسة التي قصدوها ومعهم شمسية واحدة والمطر على أشدّه. كانت الكنيسة فارغة تماماً بسبب العاصفة فأخذ نظام شمسية الخوري وخرج بحثاً عن عرّاب بينما كان الخوري يرتدي لباس القداس فوق جبّته بمساعدة السكرستاني الذي هرع إلى الكنيسة عندما رأى الخوري يدخل من الباب الخلفي وراح يشعل بعض الشموع تحسّباً. فتح السكرستاني كتاب القدّاسات على باب العماد وتذكّر أن لا ماء في الكنيسة وسيصاب هو أيضاً بنزلة صدرية إذا اضطرّ إلى الخروج بدون شمسية فطلب منه الخوري أن يضع الطاسة خارجاً أمام الباب وينتظر أن تمتلئ من المطر على أن يباركها لاحقاً.

لم يجد نظام سوى صاحب الدكان، فاوضه فوافق الرجل من حشريته بعد أن أغلق باب دكانه بكرسي.

في الكنيسة كان الجميع مبللين ولو أن نظام كان غارقاً في الماء، والخورية أيضاً ربما لأن زوجها أبقى الشمسية فوق رأسه وهما يسيران تحت المطر الذي لم ينقطع. حرق الكاهن مراحل رتبة العماد حرقاً ولما حاول تلحين الكيرياليسون بطبقة مرتفعة اختفى صوته تماماً فتوقفت الرتبة وأشار إلى السكرستاني أن يقترب من المذبح ويقرأ معه، هو يكتفي بتحريك شفتَيه متمتماً والسكرستاني يتلو الصلوات عالياً، يعاونه صاحب الدكان بأن يكمل فقط آخر الكلام مدندناً. انتهى الجزء الأول من الصلوات بنشاز فظيع. سكب الكاهن ماء الطاسة

على رأس نظام الذي كان يقف مثابراً متحرقاً لانتهاء الرتبة، يشير بيده على السكرستاني أن يقلّب صفحات كتاب الصلاة. سال الماء البارد في ظهر نظام فكابر و لم يرتجف بل حمل شمعته وبدأ يطوف ويلحق به عرّاباه والسكرستاني فلم يكمل دورة الكنيسة بل عاد من منتصف الطريق اختصاراً لينهي الاحتفال بسرعة ويحاول أن يدفع مالاً للكاهن فيحيله هذا الأخير على السكرستاني. ينصرف العرّاب فيرسل الكاهن نظام في أثره تحت المطر ليعود به كي يوقّع على الإفادة التي كتبها الأبونا بخطّ جميل، بأن فلاناً حضر أمامي وأعلن اعتناقه دين سيدنا يسوع المسيح على المذهب الأنطاكي الماروني... دسّ نظام الورقة في جيب سترته الداخلية خوفاً عليها من البلل وحملها مباشرة إلى حَورا ليضعها على الطاولة أمام توما ورخيمة، يطلب منهما أن لا يذيعا الخبر فهو لا يخاف أمه وأباه بل عمّتيه نجيحة وزين الدار، ويعلن في الوقت نفسه أنه ذاهب في الغد إلى بيروت وبوسائله الخاصة. بدا كأنه يبرّئ ذمّته قبل أن يحصل على حرّيته.

انهزم توما ورخيمة واتفقا معه على أن يكمل الصيف في حَورا ويذهب في بداية الخريف عسى أن يحصل قبل نهاية أيلول أمر جلل يؤجّل انفصاله عنهما.

الفصل الثاني

بيروت؟ هاكَ بيروت



1

اقترحا عليه النزول مع سائق البلدة لكنه أصرّ على ركوب الحافلة.

– مثل الناس...

يقول.

رافقاه إلى طرابلس وهما يحذرانه طوال الطريق من أولاد الحرام.

– وبنات الحرام!

تضيف رخيمة وهي تهزّ برأسها وتدسّ في يده أيقونة صغيرة، «الحبل بلا دنس». وضعها في جيبه فأصرّت عليه أن يربطها حول عنقه. هو أيضاً لن يجرؤ على نزعها، إنها الثالثة بعد العين الزرقاء وآية الكرسي.

– لا تخرج من دونها...

يذهب إلى بيروت مذخّراً.

مقتنعان بأنه عاجز عن تدبير حياته بمفرده، وبأنه سيكون الضحية في كل ما سيُقدم عليه.

ترجّلوا من السيارة في ساحة التلّ وساروا في اتجاه موقف الحافلات المنطلقة إلى بيروت.

جنود انتهت إجازتهم يتجمّعون أمام محال بيع الفلافل، ينتظرون

دورهم ويتابعون حركات العامل الذي يقلّب الأقراص في المرجل وهو يتصبّب عرقاً.

مشى مسرعاً وهما يلحقان به، يلتصقان به حتى الإقلاع.

طمأنه توما:

– لا تخف. هناك بوسطة كل نصف ساعة.

بطّأ مشيته حياءً.

أكوام النفايات تأخر عمّال البلدية في رفعها، السيارات العابرة تبعثرها على الأسفلت. تتأخر معاشات العمّال فيضربون. الحزب الشيوعي يحرّكهم، يكتب لهم البيانات: رفع الأجور والضمان الصحّي والطغمة الحاكمة.

تحرّش بهم مصوّر متجوّل يرابط عند باب الحديقة العامة. طويل القامة، ينحني أمام المارة مع آلته والفلاش المستدير:

– بولارويد! تأخذون الصورة بعد دقيقة...

وقف نظام بينهما، يخشى انطلاق الحافلة من دونه. ابتسموا ثلاثتهم للكاميرا.

باعة الأشرطة المسجّلة يملأون الساحة صراخاً. لا يعلو فوقه سوى صوت المنادي على الركاب من أمام موقف الحافلات:

– بيروووووت!

محرك الحافلة يدور والسائق جالس وراء المقود. كان مخطوطاً بأناقة على جانبَي الحافلة بيتان من الشعر:

إذا رأيت الكلب في أيام دولته
فاجعل لرجلَيك أطواقاً من الزرد

وأعلم بأن عليك العار تلبسه
من عضّة الكلب لا من عضّة الأسد

صعد توما من الباب الأمامي، انحنى فوق السائق، همس في أذنه، ربما ليطلب منه القيادة بلطف وإيصال نظام إلى الفندق أو ليدلّه عليه.

أوتيل زهرة الشمال.

توما يعرف صاحبه، رفّول، يأمل أن يُبقي عيناً مفتّحة على نظام.

نزل رفّول باكراً إلى بيروت، لم يعد له أقارب أحياء في البلدة، عمل خادماً في أحد المطاعم في باب إدريس حتى توفي والداه، فباع البيت الذي ورثه في حَورا، باع قطعة أرض، كل ما يملك، واشترى هذا الفندق الصغير.

حمل نظام حوائجه وصعد إلى البوسطة. كان من عجلته أول الصاعدين. لم يحفل برائحة الزيت المقلي وانبعاثات نفايات البلدية تجتاح الحافلة. جلس عمداً إلى جهة البحر. ذكّرته رخيمة للمرة الألف بأن يعود إليهما في آخر الأسبوع ودعت له من وراء الزجاج بالسلامة.

تابعهما بنظره لدقائق يسيران على الرصيف الطويل في محاذاة الحديقة العامة، توما مكسور لجهة اليمين، يجرّ رجليه جرّاً، رخيمة مستقيمة، منديلها الأزرق المنقّط معقود على رأسها. التفتَتْ مرة أخيرة في اتجاه الحافلة. يطاردهما بإلحاح صبيّ متسوّل حافي القدمين، يُمسك توما من يده فيضربه توما عليها ليبعده عنه. يتقدّمان ببطء كأنه بعد نزول نظام إلى بيروت لم يعد لهما مقصد، كأن الحياة باتت وراءهما. ابتعدا وسط زحمة الساحة العامة وبقي من حيث يجلس يميّزهما من

انحناءة توما إلى اليمين كلما تقدّم خطوة نحو موقف سيارات الاجرة التي ستقلّهما عائدَين إلى الجبل.

امتلأت مقاعد البوسطة.

وجوه رحلات يوم الاثنين، ركّاب واجمون، عائدون إلى العاصمة وفي انتظارهم أسبوع من العمل.

ينتبه نظام لكل شيء، يجرّب كل شيء، اشترى ورقة يانصيب من البائع الذي عبر بين المقاعد في ممر الحافلة وهو يعرض الأوراق على الركاب قبل الانطلاق. كان يرغب في شراء الفلافل أيضاً لكنه خشي اعتراض رخيمة على تناوله زيت القلي، تعتقد أنه سُمّ.

نظر من جديد لعلّه يراهما مرة أخيرة.

لو ينزل من الحافلة ويلحق بهما، لو يطرد المتسوّل اللجوج من ورائهما، يلفّ ذراعَيه حول كتفَيهما ويبتسم، ينظرون معاً إلى الصورة الحنونة التي يمسك بها توما، صورة البولارويد، يعرف أنهما سيشتريان لها إطاراً ويجدان زاوية فارغة لتعليقها في البيت، ثم يشبك يديه بأيديهما فيعرّجان به على محلّ الحلويات العربية ليتأملاه يأكل وحده حلاوة الجبن وهما سعيدان. توما منعه الطبيب عن السكّر ورخيمة لن تأكل وحدها بدونه. لكنهما تواريا وراء شارع عزّ الدين حيث كان مكتب محمود العلمي للسفريات.

جلس إلى جانبه رجل تجاوز الخمسين من العمر يلبس بذلة وربطة عنق فاقعة اللون وبدا من لون شعره البنيّ الداكن أنه يضع شعراً مستعاراً. ابتسم له وجلس. ألهاه عنهما. بشعره ورائحته. صنوبر بريّ. امتلأت المقاعد لكن لا ثرثرة.

انطلقت الحافلة فرسم الرجل إلى جانبه إشارة الصليب توخياً

للسلامة. بالأصابع الخمسة. نظر إليه نظام مليّاً. ظهر البحر في محاذاة الطريق. أغمض عينيه، تخيّل توما ورخيمة وهما ما زالا يسيران إلى جانب برج الساعة، قرب المراحيض العامة.

راجع أرقام ورقة اليانصيب فاكتشف أن السحب عليها قد جرى قبل أسبوع، يفعلها الباعة الصغار مع المسافرين قبل انطلاقهم على أمل ألا يلتقوا بهم من جديد. رمى الورقة من النافذة فعلَتْ صرخات حادة من ركّاب المقاعد الأمامية.

أبطأت البوسطة سرعتها لتتوقّف بدورها قرب تجمّع سيارات أقفل الطريق العام. كان نظام أول المترجلين إلى حيث اصطفّ الجميع يتفرّجون. سقط الدرّاج في إحدى الملاّحات وبدأت البقعة الحمراء تلوّن الماء وتتسع. الشمس ما تزال في قبة السماء. شاحنة محمّلة بأكياس الاسمنت خارجة من شركة الترابة الوطنية متوقفة في منتصف الطريق. لا بدّ أنه اصطدم بها بقوة فقذفته إلى الملاّحة. درّاجته بقيت أيضاً مرمية على جنب الطريق. هارلي دافيدسون سوداء. تخلّع مقودها، طار الشرطي وحده كما قالوا وحطّ وسط بركة الماء المالحة. دمه يصبغ الماء المالح. سابح، يده خلف ظهره ووجهه نحو السماء. قالوا إنه ميت وممنوع تحريكه قبل وصول الإسعاف. رجل ملتح وسط جبهته دائرة داكنة يتمتم مغمضاً عينيه آيات من القرآن. توقّف السير في الاتجاهين. النساء يغمضن بأيديهن عيون الصغار كي لا ترتسم في أذهانهم صورة الشرطي القتيل الذي تحرّكت يده قليلاً فبات كمن ينام في الهواء الطلق سانداً رأسه بذراعه كمخدّة وبقعة الدم تتسع يساراً وترسم خطاً شبه مستقيم. ربما المراوح الهوائية المنتشرة هناك حرّكت الماء في الملاّحة فتحرّك جسمه قليلاً.

ما إن أدرك ما يجري حتى اندفع نظام نحو الشرطي الغريق. أبعد بعض الواقفين في طريقه. يصرّ على الوصول إليه، لم يقتنع بأنه مات. ولو كانوا جميعاً هنا يتفرّجون عليه وهو ينزف دمّه كله؟ سمع اعتراضات من خلف فلم يأبه. تقدّم من بركة إلى بركة حتى وصل إليه. كان هادئاً، عيناه مفتوحتان ولونهما الأزرق الصافي من لون الماء والسماء. أمسكه من كتفَيه وحاول رفعه. بقيت عيناه الزرقاوان متفرستين في السماء فعرف نظام وقد قارب الثانية والعشرين من عمره وهو واقف في الماء الممزوج بالدم والملح، لماذا يُصار قبل كل شيء إلى إغماض عينَي الميت.

حمله المسعفون الذين وصلوا وراء نظام. عاد إلى الطريق فسألته امرأة في منتصف العمر عن اسم الدرّاج. لم يعرها اهتماماً، سألت غيره. لها ابن أخ في شرطة السير، تقول. ولمّا مرّوا بالقتيل أمامها ممدداً على محمل المسعفين شهقت عالياً من إعجابها بجمال وجهه، حاولَت لمسه كأنها تريد التبرّك منه واستمرت تسأل حامليه عن اسمه فيجيبونها بأنهم لا يعرفون. كان وجهها متأثراً جداً لكنها لم تبكِ. كانت تحكي.

توقّفت ساعة الجَيب، طرازها قديم، غير مضاد للماء، ساعة توما التي أعطاها لنظام قبل نزوله إلى بيروت، رخيمة أعطته مريم العذراء وتوما ساعة الجَيب التي كان يحبّ سماع تكّتها عندما يغلق طبقتها المذهّبة.

جفّ الماء عن بنطلون نظام وبقي الدم. فُتحت الطريق وانطلقت الحافلة مجدداً، سيدخل بيروت والدماء لركبتيه كما يقال.

استؤنفت الرحلة بصمت حتى دخول النفق بعد بلدة شكّا. نفق طويل أطلّوا عند الخروج منه على زرقة البحر المديدة فدبّ الكلام

بين الركّاب كأن العتمة محت منظر الدرّاج الغارق في دمه، وبدأت مفاوضة تجارية في مقعد مجاور.

الجالس إلى جهة البحر يحاول إقناع الجالس إلى جهة الجبل بشراء الجوارب، يحلف مراراً بالنبي محمّد أنها من القطن الصافي. يحمل منها علبتَين. يرفع رجله بصعوبة إلى مستوى رأسه كاشفاً عن جواربه فهو يلبس الصنف الذي يبيعه وهذا برهان كافٍ على ضرورة اقتناع جاره بشرائها. يقرأ عليها بالانكليزية بيور وول، قطن صافي، يفاوض كأنه يؤمن للشاري امتيازاً على غيره من الناس.

المرأة التي كانت تسأل عن الشرطي القتيل أخرجت من كيسها شغل الصوف وصنارتَين، طلبت من جارتها فتح النافذة بسبب الحرّ وبدأت تحوك وهي تتمتم كأنها تعدّ القطب.

السابحون على الشاطئ قلائل لكنهم في محاذاة الطريق، نساء في ثياب البحر الخفيفة، الجالسون إلى جهة البحر ألصقوا وجوههم بالزجاج.

كان الجالس جوار نظام ينظر إلى سرواله المبلل بالدمّ ومن ثم إلى وجهه. استمرّ في رسم إشارة الصليب. أحصاها نظام، أكثر من عشر مرات. فعلها عند مرور الحافلة أمام كنيسة مشيّدة بالحجر الأبيض الصخري على الطريق العام. في غيرها من المرات لم يشاهد نظام كنيسة. نظر إليه الرجل مبتسماً، يعرف مواقع الكنائس داخل القرى التي لا تظهر من الطريق العام ويرسم إشارة الصليب عند مرور الحافلة بمحاذاة هذه القرى، وهناك مزارات صغيرة يعرف أمكنتها غيباً. تأكد نظام أن شعره مستعار. أضاف الرجل أنه لا يجوز المرور أمام كنيسة وعدم رسم إشارة الصليب.

أخرج نظام من كيسه كتاباً من بقايا مكتبة الثقافة الجديدة، لكنه لم يتجاوز قراءة بضعة سطور. تعود إليه، تلحّ عليه صورة الشرطي في الماء. يجذبه المشهد الخارجي.

مروا بجانب كازينو لبنان. مرسومة في جواره بالحجر وبعدّة ألوان على جدار الطريق كلمات الله، الوطن، العائلة، على شكل مثلّث متساوي الأضلاع، ألله من فوق والوطن والعائلة عند زاويتَي القاعدة.

سأل نظام الرجل ذا الشعر المستعار إذا كان يعرف لماذا أرادت المرأة أن يخبرها أحد باسم الشرطي القتيل.

– إنها تكذب.

جزم الرجل.

– ليس لها قريب في الشرطة، تريد أن تطمئن فقط إذا كان مسلماً أو مسيحياً.

– وهل هي مسلمة أم مسيحية؟

ابتسم الرجل من جديد:

– انظر إليها، تعرف.

كانت جالسة في الصف الثالث من الجهة الأمامية، مستقيمة لا تسند ظهرها على المقعد تشبك صنارتيها بسرعة وسلاسة وتتمتم. نظر إليها نظام فلم يعرف.

وصلت الحافلة إلى حيّ الدورة، قبالة معمل بيرة ألماسة، لتدخل من هناك الطريق المستقيم المظلل بأشجار الكينا. هذه الأغصان التي تلتقي عالياً من جانبَي الطريق كأقواس النصر كانت أقدم ذكرى له عن بيروت منذ جاؤوا به ذات يوم على عجل إلى مستشفى أوتيل ديو لمعالجة

التهاب اللوزتَين لأن رخيمة لا تثق إلاّ بأطبّاء العاصمة.

بدأ الركّاب بالتململ. رسم جار نظام مرة أخيرة إشارة الصليب وهو يدلّ بيده إلى الحيّ الداخلي لجهة اليسار ويهمس له:

– كنيسة القديس فارتان، أرمني لكن أحبّه...

المرأة التي تشتغل الصوف ابتسمت للجالسين في جوارها:

– الحمد لله على السلامة!

ظنّت على الأرجح أن دخول الحافلة الشوارع الضيقة والمزدحمة ما عاد يعرّضها لاحتمال الاصطدام قبل توقّفها الأخير.

فتح المعاون الباب تحسّباً لطلب بعض الركّاب النزول إلى أشغال لهم قبل نقطة الوصول في ساحة البرج.

صبيّ تعلّق بالحافلة من الخلف. لحقه رفيق له أحمر الشعر.

– كراد...

قال أحد الركاب وهو يلتفت إلى الخلف.

الأحمر الشعر كان يمدّ لسانه نحو الركاب.

– كْراد، نَوَرْ، اللّه أعلم...

أضاف آخر وهو يشير إلى البقعة الكبيرة الشاسعة بين الطريق والبحر.

الكرنتينا.

بائع الجوارب دلّ جاره على غابة الهوائيات فوق أكواخ الخشب والتنك. تلفزيون في كل بيت.

– نحن الفقراء.

قال له متنهداً.

مدّ نظام لسانه للصبيّ الأحمر الشعر. ردّ الصبي بتوجيه إصبعه

الأوسط نحو نظام من وراء الزجاج.

توقفت الحافلة في زحمة السير.

رجل يدخّن سيجارة على الرصيف، قرأ الشعر على جانب الحافلة فسأل المعاون ضاحكاً:

– من هو الكلب؟

– اسأل السائق.

أجابه المعاون وهو يمسك قميصه متنصّلاً.

بدوره كان الرجل يغطّي بوقوفه شعاراً مكتوباً على الجدار بخطّ متعرّج نزولاً كأن من كتبه فعل ذلك خلسة مسرعاً تحت جنح الظلام:

– زايل ما يدوم حكم الإقطاع والرأسمالية.

منذ دخلوا المدينة راح نظام يقرأ رغماً عنه كل ما يمكن قراءته. يلتهم أسماء المحال، اللافتات، أسماء الفنادق الصغيرة.

مرت الحافلة فوق جسر نهر بيروت. أقفل المعاون الباب الخلفي، رائحة المجارير لا تُطاق.

أطلّوا على المرفأ ودخلوا ساحة البرج. تقف في وسط الساحة لوحة إعلانية لوزارة الصحة العامة كتب عليها «لقحوا أطفالكم ضد الشلل قبل فوات الأوان». شطب أحدهم الشلل وكتب فوقها بخطّ اليد «الحلّ السلمي». الحلّ السلمي مع إسرائيل.

حمل كيسه وسار باتجاه الباب الخلفي بعن أن أعاد المعاون فتحه مع دنوّ الرحلة من نهايتها. أراد أن يكون أول النازلين فقفز من الحافلة قبل أن تتوقّف فلوى كاحله وصرخ عفوياً من الألم وهو يسقط ويعود ليقف بصعوبة. هتف ركّاب المقاعد الخلفية ما دفع بالسائق إلى الشدّ على

المكابح وتجميد الحافلة ونظر إلى المرآة الخلفية فرآه ينجح في الوقوف ولو على رجل واحدة فتوجّه إلى الركّاب غاضباً بأن يتمهّلوا وأنه ممنوع النزول قبل أن يطفئ المحرّك. حاول الوقوف على الرجل الثانية لكنه تألّم كثيراً فانهالت عليه النصائح من رفاق الرحلة.

– ضع رجلك في الماء الساخن كي لا تتورّم.

نصحه معاون السائق.

– لا، لا، ضعها في الماء البارد.

قال أحد الركاب وقد بدا أكثر وثوقاً برأيه.

2

هكذا نزل نظام إلى بيروت للمرة الأولى بمفرده، صباح يوم الاثنين، ووصل عرجاً إلى فندق زهرة الشمال والدم قد جفّ على سرواله.

وجد رفّول جالساً في المدخل. يمسح نظارته السميكة بمنديل أبيض، ويمضي سحابة يومه خلف طاولة عالية القوائم فوقها دفتر توقّف عن تسجيل أسماء النزلاء فيه. يسمع خطى متثاقلة على السلّم الخشبي المظلم الزوايا في وضح النهار فيرفع رأسه منتظراً ليلاحق الداخل إلى الفندق بنظرة فاحصة كأنه يراه للمرة الأولى في حياته، ولو كان من اجتاز الباب زبوناً دائماً يعرفه رفّول حلّة ونسباً.

لم يفاجأ بحضور نظام، كأنه يتوقّع دخوله من الباب.

– كيف حال توما؟

سؤال وحيد لم ينتظر عليه جواباً.

دلّه على غرفته وهو يوصيه بألا يترك فيها إذا غادرها، ليلاً أو نهاراً، مالاً أو أغراضاً ثمينة يمكن وضعها في الجيوب.

– السرقات تتكاثر...

قال، و لم يوضح إذا كان هذا يحدث في الفندق فقط أم في البلد عموماً.

دلّه على غرفة بسريرَين مطلّة على ساحة البرج، لم يعطه مفتاحاً.
في كل حال، لا مفاتيح في زهرة الشمال. ضاعت من زمان، ربما نسيها النزلاء في جيوبهم عند المغادرة.

– تمضي بضعة ليالٍ مع ابو علي السمسماني.
– من؟
– متوالي...

لم يكن يعرف الكثير من المتاولة.

– شيعي؟
– آدمي. لن تشعر بوجوده.

ظن نظام أن الرائحة التي عبقت على السلّم لن تلحق به إلى طابق الفندق. كاد يسأل رفّول كيف يجالس هذه الرائحة طوال اليوم. بقي رفّول واقفاً في باب الغرفة يتابعه وهو يفرغ ثيابه القليلة.

– تأتي ياسمين الثلاثاء والجمعة لتغيير الشراشف وغسل الثياب.

حذّره:

– لا تتحرّش بها، يمكن أن تعديك...

لم يكمل. ربما يعرفها سهلة المنال ولا ترفض المال.

تمدّد نظام ورفع رجله الملتوية على الحاجز الأسفل للسرير. يأتيه من تحت، من ساحة البرج، كل صوت، كل هدير محرّك وكل صراخ للسائقين ينادون بأسماء وجهاتهم. غرفة وسط الضوضاء، وسط الطريق العام.

أردتَ بيروت؟ هاك بيروت.

من حيث كان يسند رأسه على مخدّتَين وضعهما واحدة فوق الأخرى،

كان يمكنه رؤية اليد الحديدية التي تحمل مشعلاً شُعلته أيضاً من حديد متموّجة إلى الوراء كأن النحّات أراد ان يوحي بأن الريح تهبّ على تمثال الشهداء من الغرب باتجاه الشرق. تهبّ على الشعلة ولا تطفئها. لو رفع رأسه قليلاً عن المخدّة لتمكن من رؤية التمثال في وسط الساحة بشخوصه الأربعة كاملاً، الرجل المتدحرج أرضاً ويمدّ يده كمن يطلب العون من العلى، رفيقه الآخر الذي ينظر إلى مجسّم أنيتا أيكبرغ الخشبي المرفوع فوق سينما ريفولي. شقراء واقفة هناك ترتفع إلى علو ثلاث طبقات من المبنى المجاور. صنعوا المجسّم على الأرجح دعاية لفيلم «لا دولشي فيتا». لم يدم عرض الفيلم أكثر من أسبوع واحد لكن بقيت أنيتا أيكبرغ الخشبية العارية الكتفين واقفة وقد باخت ألوانها.

الرائحة ثابتة، لا تحول ولا تزول.

فيها المراحيض أولاً، لم يدخلها بعد، المراحيض ومسحوق الديتول الذي يرمونه فيها لإزالة رائحتها، دخان محركات السيارات العاملة بالأجرة، مئات سيارات المرسيدس العتيقة التي تعبر وتدور في ساحة البرج. تهبّ عليها، تغذّيها بين الحين والآخر رائحة شواء الكفتة الطالعة من الجهة الشرقية.

بقي مكوّن إضافي عنيد عصى عليه تحديده.

بعد فترة سأل أحد الأصدقاء عن رائحة فندق رفّول فابتسم ساخراً جازماً:

«إنها رائحة السوق العمومي»!

وحدها الغرفة التي ينام فيها رفّول لها نافذة تطلّ من الجهة الشرقية على شارع المتنبّي. اشترى الأوتيل من صاحبه الحلبي الذي كان سمّاه نزل الأدباء. حاول المساومة على ثمنه بسبب جوار السوق العمومي

فأجابه الحلبي بأن هذه الجيرة تأتي بالزبائن ولا تبعدهم وراح يبرهن له بالأمثلة والأرقام. أقام فيه رفّول، وحده في بيروت، لا ولد ولا تلد. ست غرف في طابق واحد، بما فيها غرفته التي يتخلى عنها إذا ازدحم الزبائن فيكتفي بالتمدد بثيابه على الصوفا في البهو. يقول إنه يحبّ حَورا ويُطمئن من يلومه لأنه نسيها بأنه سيعود إليها بالتأكيد، إلى مقبرتها.

مع أنه نادراً ما غادر ساحة البرج ومحيطها القريب، كان رفول دليل أهل البلدة وجوارها، ومحطتهم الأكيدة. من يحضرون منهم إلى العاصمة وتُنزلهم البوسطة أو سيارة الأجرة في ساحة البرج يبدأون يومهم بالتعريج عليه. يعلّمهم كيف يصلون مثلاً إلى عيادة الدكتور مرهج الذي ذاع صيته بينهم لكل مرض في الأمعاء. أو أحياناً، إذا وجد من يجلس مكانه وراء الطاولة، يرافقهم إلى الدوائر الرسمية القريبة، يودعون أحمالهم عنده ويترك بعضهم لبعض توصيات ورسائل لديه. إذا اضطروا إلى قضاء حاجتهم وهم وسط سوق النورية مثلاً لا يجدون وسيلة أفضل من الإسراع إلى زهرة الشمال. لا يتذمّر منهم ولا يرحّب بهم، ينبههم من أحداث قد تطرأ خلال اليوم الذي يمضونه في بيروت فيحذّرهم من التوجّه إلى منطقة الباشورة مثلاً لأنها ستشهد تشييعاً حاشداً لثلاثة من قادة الفدائيين الفلسطينيين سقطوا في عملية عسكرية ويعتقد أنه سيحصل إطلاق نار في خلالها وربما اشتبك المشيّعون مع الجيش لأن القلوب ملآنة كما كان يقول دائماً في تعليقه على أدنى حادثة تقع.

حاول نظام الوقوف على رجله الملتوية ليخرج من الغرفة متوجهاً إلى

الردهة، فحذّره رفّول ألا يبتعد كثيراً وهو يشير بيده إلى جهة الغرب.

خرج نظام إلى الضجيج الذي لا ينقطع، نفر من الرائحة، تسكّع ببطء مستكشفاً، راسماً ما يقترب من الدائرة حول زهرة الشمال لجهة الجنوب الشرقي.

توقّف إلى جانب رجال يتابعون رشاقة لاعب الورقات الثلاث، يصفّها على كرسي صغير انحنى فوقه، ملكتان حمراوان وملك أسود. أحد المتحلّقين يراهن على ملك البستوني فيربح، مرة، خمس ليرات، يراهن بالعشرة، يربحها، رأى نظام ملك البستوني، تأكد منه في الوسط، يتلفّتون جميعهم كأنهم يتوقعون حدوث شيء ما، راهن على ملك البستوني. ربح، خمس ليرات، رآه أين يضعه في المرة الثانية لكنه اخطأه، أخطأه ودفع، أصابه مرة ثم عاد يخطئه في كل ضربة، عاند، خسر مئة ليرة، وبدا راغباً في مواصلة اللعب، إلى الآخر، لكن أحد المتفرجين المولج بالمراقبة نادى بصوت هامس ومحذّر:

«جان، جان، الأمن العام!»

طوى لاعب الورقات الثلاث كرسيّه وفرّ في اتجاه الشارع الداخلي كما انسحب الباقون في اتجاه آخر. حدث الأمر بسرعة مذهلة بقي على أثرها نظام واقفاً وحده على الرصيف لا يدري ماذا يفعل. لم يبق بجانبه سوى شاب لم ينتبه إليه في خضم مراهناته، أخبره أن الرابح الأول كان شريك صاحب اللعبة وأن صاحب اللعبة تركه يربح في المرة الأولى ليطمّعه بالربح وأن من نادى على الأمن العام أنهم قادمون شريك أصحاب اللعبة أيضاً، ولاعب الثلاث أوراق لا يُدعى جان ولم يكن عناصر الأمن العام قادمين واللاعبون لم يفرّوا منهم، فهم أصدقاء معهم بل فروا من نظام. أخذوا ماله وانسحبوا، يتقاسمونه

في الشارع الخلفي. وأضاف أخيراً أن هؤلاء جميعاً أشقاء أو أبناء عمّ من عرب المسلخ.

ضحك نظام متسلياً. سأله الشاب:

– من أين أنت؟

كان نظام قد بدأ من فترة يحتار في الإجابة عن هذا السؤال وأمثاله فيتفاداها، نظر إلى محدّثه و لم يقرر. سأله:

– لهجتك من الشمال؟

أنقذه.

– انتبه لنفسك.

لا يعرفه، يكلمه للمرة الأولى ويقول له هو أيضاً انتبه. لم ينتبه. نسي ما خسره ما إن مشى خطوات ليتابع تسكّعه صعوداً.

تحرّش به رجل ينصب كميناً أمام محلّ لبيع السجائر والكحول. يحرّك جسمه ويديه كأنه مقدم على المسير، على الانتقال عبر الشارع أو على الانضمام إلى العابرين نزولاً نحو سوق الخضار، لكنه لا يبتعد ولو متراً واحداً، يحاول الإيحاء بأنه متأهب للمغادرة ولا يفعل. مكحّل العينين صوته رقيق مؤنّث. ابتسم له نظام. تبعه الرجل وهو يحدجه بنظرات قوية، يتغزّل بعينيه وشعره ويمدّ يده كأنه يريد مداعبة كتفه وعنقه. ضحك نظام و لم يغضب، بحث عن شاهد على ما يحدث له فلم يجد، أعطاه المال الذي بقي في يده والذي كان سيراهن به على الملك الأسود قبل انفراط عقد اللعبة. نشله الرجل بسرعة كأنه لا يصدق، أدار ظهره ومشى، عاد إلى موقعه أمام باب بائع السجائر يحرك جسمه من جديد في جميع الاتجاهات موحياً بأنه سيمشي.

التفت نظام فرآه يتحرّش بشاب جديد وفي عينيه نفس لهفة من وجد للتو معشوقه المنتظر.

ارتعد نظام عند وصوله إلى ساحة الدبّاس. نادته الببغاء:
«أنت أحمد؟»

بصوت جارح من محل بيع الطيور على الرصيف المقابل.

التفت من حوله، أحس أن السؤال موجّه إليه وحده بالرغم من كثرة الخارجين من صالة السينما المجاورة المتخصصة بالأفلام الهندية.
«أنت أحمد؟»

كرّر الببغاء السؤال، ارتعد نظام مجدداً فوقف على طرف الرصيف جامداً ينظر إلى الببغاء في قفصه، وراحت سيارات الأجرة تتوقف في محاذاته لاعتقاد السائقين أنه ينتظر من يقلّه. لم يرد أن يغفل عن الببغاء كيلا يغدره بالسؤال مرة أخرى. سكت الطير.

عند الضوء الأحمر في أعلى الساحة، أعطاه شاب يلفّ حول عنقه كوفية حمراء وبيضاء بياناً على رأس صفحته بندقيتان متعانقتان فوق خريطة فلسطين. النسوة الثلاث اللواتي كن يصعدن بتمهّل درج الكنيسة المشيدة بالحجارة البيضاء وهنّ يتبادلن أطراف الحديث رفضن تسلّم نسخة البيان التي مدّها نحوهن زميل الشاب بالكوفية، وذلك بإشارة من أياديهن نحو باب الكنيسة كأن حرمة الصلاة تتنافى مع الشؤون التي يتحدث عنها البيان. قرأه نظام إلى آخره ثم صنع منه مركباً.

بدأ بائع الكتب والمجلات المستعملة يجمع بضاعته بسرعة عن الرصيف. ربما بسبب هبوط الليل أو تحسباً من زخّات الرصاص

المتتالية التي كانت تُسمع في اتجاه سوق الخضار والتي جعلت بعض المارة يسرعون الخطى لا يلتفتون إلى الرجل الواقف أمام سينما راديوسيتي يدعوهم إلى حضور فيليمن إباحيين دفعة واحدة.

توقف جيب الدرك فترجّل منه أربعة عناصر وقفوا إلى جانب تمثال الشهداء كأنهم يحمون حامل الشعلة الحديدية ورفاقه من اعتداء مرتقب.

سأل نظام العنصر المتشق بندقيته والواقف إلى جانب رجل البرونز المتدحرج أرضاً عما يجري. أجابه رجل الأمن، كان يرتجف قليلاً، ربما يحتاج لمؤانسة. إنها قصة قديمة بدأت في الهرمل. عشائر. انتقلوا الآن إلى بيروت. واحد من آل دندش قتل ثلاثة في سوق الخضار ثأراً لشقيقه وبقي واقفاً ينتظر وصول الدرك ليسلّم نفسه وسلاحه. يعتبرون السجن أكثر أماناً على حياتهم من الفرار... شعر نظام بأن الدركي كان راغباً في متابعة الكلام لكن المعاون أمر نظام بفظاظة بأن يمشي.

عاد إلى زهرة الشمال، الرائحة ما تزال في السلّم لا بل اغتنت بروائح جديدة، ليلية. رفّول الحاضر الحذر ليل نهار:

– حسناً فعلت أنك رجعت، أقلقتني، لا تخرج الليلة من جديد.

كان أبو علي السمسماني قد سبقه إلى الغرفة، ينام وقد رفع اللحاف فوق رأسه يغطي به أذنه. سأل نظام عن إطلاق الرصاص فأخبره بأن هناك ثلاثة قتلى من آل ناصر الدين فشتم السمسماني الحالة و لم يلتفت نحوه. وبعد دقائق:

– أنت من ضيعة رفّول؟

سأله من تحت الغطاء.

– نعم.

حاول رؤية المتوالي وجهاً لوجه لكنه اضطر إلى لاكتفاء بصوته.

– كيف سننام في هذا الضجيج؟

سأله نظام.

رفع السمسماني اللحاف عن رأسه و لم يلتفت:

– صوت الأذان هو الأكثر إزعاجاً عند الفجر، صوت الشيخ مثل السكين.

حاول نظام النوم، لا شيء ينام خارجاً، نام السمسماني، تقلّب نظام حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ثم نهض. ارتدى ثيابه وخرج من باب الفندق المشرّع ليلاً نهاراً. رفّول ينام في غرفته. خرج نظام إلى الأصوات، وقف على الرصيف مستسلماً لحركة الليل ثم سلك الشارع الضيّق المؤدي إلى شارع المتنبّي.

خمسينية متبرّجة بإفراط نادته من عتبة أحد البيوت فدخل. لم تعترضه، هي متبرّجة فقط لجلب الزبائن. المرأتان الجالستان في الصالون أكثر شباباً منها. لم تحركا ساكناً، لم تصدّقا أنه زبون. الزبائن لا يشبهونه.

لم يقصدهم من سنوات طويلة رجل بهذه النضارة. لحقت به المرأة المتبرّجة إلى الداخل حيث وجدته يتحادث معهما. السمراء، تحكي، باللهجة المصرية، والأخرى، بيضاء، مقطبّة الحاجبين، لا تحكي ولا تصغي.

يونانية...

عرّفت عنها زميلتها قبل أن يسألها أحد.

جاءته المرأة المتبرّجة بزجاجة جوني والكر وكأسَين ووعاء ثلج.

سكب الويسكي في الكأسين، شرب القليل ثم أمسكته اليونانية الصامتة من يده فرافقها إلى الغرفة. أنزلَت سحّاب سرواله وركعَت أمامه، دغدغته فكاد يضحك، تمالك نفسه بصعوبة، راح يمرر يده في شعرها مداعباً وهي تحاول إسعاده، توقفت قليلاً لتبعد يده كي لا يخرّب لها تسريحة شعرها البائسة. اجتهدت وانتهت منه بسرعة، لم يقاوم طويلاً.

دفع لها بسخاء لم تعتده وعاد إلى الصالون، حمّلنه زجاجة الويسكي، همّ بالخروج فأوصته المرأة التي استقبلته بأن لا يعير اهتماماً للرجل المرتمي على درج المدخل، لا يصحو من السكر، طردوه من جميع بارات الزيتونة وشارع فينيسيا فصار يتسكّع هنا كل ليلة.

«حصتنا المقطوعين...»

جلس إلى جانبه على الدرج، طلب منه الرجل رشفة ويسكي أخذها من الزجاجة مباشرة وطويلاً. يتكلم خليطاً من الفرنسية والعربية، شتم النساء وفهم منه نظام أن اليونانية ليست يونانية بل تدّعي ذلك، تظن أن ذلك يرفع شأنها لدى الزبائن. توقف فجأة ونهض على قدمَيه ليسلّم على نظام ويعرّف عن نفسه:

– سيريل.

قبل أن يرتمي مجدداً على الدرج يضيف مكمّلاً التعريف عن نفسه بالفرنسية:

– أحب النساء وأحب الرجال...

انقبض شيء في نظام.

زبائن قلائل جداً يدخلون، لا ينظرون إليهما، يتجاوزونهما كأنهما عوائق في الطريق.

يبرد الليل، يعود إلى زهرة الشمال عند الفجر. كان أبو علي السمسماني يتقلّب ويشتم المؤذّن وهو يضع المخدّة فوق رأسه.

نام نظام قليلاً ثم أحس بثقل كبير في أمعائه، تقيّأ بالقرب من مكتب رفّول وهو في طريقه إلى دورة المياه. استيقظ أبو علي، أيقظ رفّول، تفحّص زجاجة الويسكي:

– يزوّرها الأرمن في برج حمود، يزوّرون كل شيء!

كان هذا يومه الأول أمضى بعده ثلاثة أشهر في ساحة البرج.

بقي تحت عيونهما.

رفّول من خلف نظّارته، وسائق حَورا يومياً.

يوماً كيس أو صندوق من رخيمة ويوماً وصيّة. يمرّ بها السائق صباحاً بعد أن يجمع ركّابه من بيوتهم. قبل أن يزمّر تكون رخيمة واقفة في الباب جاهزة، كأن نظام ما زال مقيماً معهما، تقسّم له الوجبات، مربّطة، محزّمة. يتعفف رفّول في كل مرة لكنه يضعف أمام الكبّة باللحم والصنوبر، يطالب أحياناً بحصة صغيرة لياسمين حفظها لها عندما تأتي لتنظّف، أبو علي يأكل مع نظام ويمتدح اللبنيّة، يترك نظام الفواكه جانباً، لسيريل، عندما ينام الجميع ولا يجد أحداً غيره. إذا مرّ يوم بلا أكل ترسله، تلقّن رخيمة السائق وصية شفهية، سمعت من الراديو مثلاً عن هجوم شنّه مسلّحون ملثّمون على مخفر النهر لإطلاق سراح أحد الموقوفين، تطلب منه أن يحمّله ويأتي به إلى حَورا ولو عنوة.

وكان في آخر الاسبوع الأول لنزوله إلى بيروت عاد إلى حَورا لكنه لم يمض فيها سوى ليلة واحدة. في الأسبوع التالي لم يصعد إليهما فنزلا إليه صباح الاثنين. أعطاه توما أوراقاً نقدية جديدة تجرح اليد. امتدحا الفندق بالرغم من رداءته، لم يتوقفا عند الرائحة، لم تتفحص رخيمة الغرفة والسرير، تعرف أنها مزرية والوسخ في كل مكان لكنها تفضّل إقامته هنا في زهرة الشمال.

يحزنه يوم الأحد في بيروت أحياناً فيقصدهما، يغلقان الأبواب والشبابيك، كأنهما غائبان عن البيت، يقبّلانه، يطعمانه، ينظران إليه، يحدّثانه، يشيران ولو مزاحاً إلى ضرورة زواجه عاجلاً أو آجلاً. إذا أفلت منهما يتمسّكان بأولاده.

يعود إلى بيروت صباح الاثنين متحمساً كأنه يفوّت عليه أحداثاً كبيرة هناك.

يدور نهاراً ويحضر ليلاً فيجد أبو علي نائماً والمخدّة فوق رأسه، يستيقظ متأخراً في الصباح فلا يجده.

«سبقجي...»

قال عنه رفّول في تفسير سلوكه هذا.

يذهب نظام سيراً على الأقدام إلى الجامعة، يمرّ أمام الببغاء، يجلس في الصفّ حيث يتمكّن من الانسحاب من دون إزعاج أحد، سيبقى طوال حياته طالب السنة الأولى حقوق. يكتب كلمات متفرقة على دفتره، لم يدخل جوّ الدروس أبداً، لم يكسب له صديقاً واحداً في الجامعة. ينسحب على رؤوس أصابعه، يأكل الفول على الغداء، يهمل غالباً مآكل رخيمة، بات يعرفها جيداً، يطمع بغيرها، يقف

دائماً في منتصف الوجبة حاملاً صحن الفول بيده مطالباً بالمزيد من زيت الزيتون والحامض. يدور في سوق الذهب، يتأمل واجهاته، يقرأ عناوين الصحف عند أبواب المكتبات، يقلّب صفحات بعض الكتب القديمة المعروضة للبيع على الأرصفة ولا يشتريها، يجرّب النرجيلة في مقهى فلسطين والبلياردو في مقهى الجمهورية، يلعب مع رجال يكبرونه سنّاً بكثير، أحدهم يعتمر طربوشاً ويلعب بطريقة مدهشة، يدفع نظام عندما يخسر المباراة ويدفع عندما يربحها. يعود إلى زهرة الشمال في العاشرة ليلاً فيجد رفّول قد نام، نام أبو علي السمسماني، ينام على صوت الراديو الترانزستور الخافت ينبعث منه صوت أم كلثوم وكلما انتهت أغنية يبحث وهو شبه غافٍ عن محطة أخرى، يقبل بعبد الحليم الحافظ أو وردة ويعود للنوم. يشعر نظام بالنعاس حوالى الحادية عشرة ليلاً لكن صوتاً جديداً، زموراً صارخاً يعلو فيفتح عينيه. يدور على صالات السينما، يدخل إلى تلك التي لا تزال تعرض أفلاماً بعد منتصف الليل، يتوزّع المشاهدون القلائل في أرجائها. يلتقي بلاعبي الثلاث ورقات، يبتسم لهم فيدعونه إلى اللعب، لا يقطعون الأمل منه، يكمل طريقه وينعطف دائماً نحو شارع المتنبي، قاصداً في الحقيقة سيريل لا النساء. يسلّيه، يدخل بداية إلى البنات حياءً، يعطيهن مالاً بجنس أو بدون جنس، بملاطفة. مترهّلات، أحببنه، أفرحهنّ قليلاً، ينادينه نانو، نانو، هو علّمّهن. ينادينه من الشباك عندما يخرج إلى سيريل، إلى حيث التقاه للمرة الأولى، على درج بيت ناديا، الأول إلى اليمين، مركز قيادته في الليالي غير الممطرة على الأقل. يشبعه وعظاً ورائحة ويسكي مزوّر. وحدهما لا أحد حولهما لكنه يتكلم كأنه يخطب في جمع. يضحكه، يحتقر

البورجوازية الجديدة، أغنياء الحرب، يرفض أن يؤخذ رأي الشعب في الانتخابات العامة لأنه لا يعرف صالحه. نظام يؤيده ولا يفكّر في الموضوع. يؤكد من جديد، كأنه يتبجّح، بأن ميوله الجنسية تتوزّع مناصفة على النساء والرجال، في كل مرة يتحدث عن الجنس يبتعد نظام عنه قليلاً بعد أن يكون التصق به بلا انتباه. يعتقد أن لبنان أجمل بلد في العالم، والده لبناني وأمه فرنسية وجدّته عملت في صفوف المقاومة ضد النازيين. صدّق ما تريد. يخبره كيف شارك بصفته مصمّماً للرقص، كوريغراف، كما يقول تأكيداً لمؤهلاته الفنيّة، في استعراض كازينو لبنان، باريس – بيروت، لكن البنات، الراقصات العاهرات، اشتكين إلى المخرج من أن سيريل يعرض عليهن سجائر الحشيشة في الاستراحة، كان يساعدهن على تحسين أدائهن، على تفتيح عروقهن، ففصلته الإدارة ووضعت اسمه على الباب ضمن لائحة المحظور عليهم الدخول إلى صالة الألعاب في الكازينو أيضاً. تعب من الكلام على نفسه في إحدى الليالي فسأل نديمه أين ينام. قطّب حاجبَيه حين عرف أنه يقيم في زهرة الشمال، رفع أنفه، ربما تذكّر الرائحة، شتم رفّول.

– حقير. جعلني مرة أنام على الرصيف...

وكأنه أراد معاقبة رفّول وحرمانه من أحد الزبائن، أخبر نظام أن صديقة له، غمزه، مجنونة قليلاً، تبحث عن شخص موثوق يستأجر بيتها في رأس بيروت.

في اليوم التالي ذكّره من جديد.

– شقّة جميلة تطلّ على البحر... محترقة أولغا على ايجارها، تريد السفر.

أخبره كيف حاول إدخالها إلى فريق راقصات باريس – بيروت لكنها رفضت.

ما زال نظام متردداً، اقترح عليه سيريل أن يذهب ليراها في الغد ويقرر في ما بعد. لم يذهب فأحرجه في اليوم التالي:

– تنتظرك غداً قبل سفرها، خذ معك إيجار سنة بأكملها، ربما أعجبتك الشقّة...

غمزه وأكمل:

– ... وصاحبة الشقّة.

3

أولغا فيليبوفنا.

– روسية بيضاء، روسّ بلانش...

أخبره سيريل.

تسكن في حيّ المنارة، في الطابق الأخير من بناية تطل على البحر.

وصل إليها نظام بالأوتوبيس.

تفحّصته من رأسه إلى قدميه، أمسكته من يده وراحت تدور به في البيت وهي تكرّر من دون سبب ظاهر:

– أحببتك، أحببتك.

تدلّه على الساموفار، توصيه أن يحافظ عليه. مصنوع من الفضّة، تقول. لم يكن يعرف ما هو الساموفار.

– هديّة زفاف من زوجي... لكني ما عدت أصدّقه في شيء، ربما ليس من الفضّة.

تُشعل له الغاز، شغّال، تفتح البرّاد وتغلقه، لا يضيء لكن يبرّد.

تخرج به إلى شرفة الروف الواسعة المطلة على بحر بيروت. البحر منجّم.

– المطر آتٍ.

يقولها نظام في كل مرة، يعرف لأنه كان جار البحر.

تلهث بلا تعب، تلهث تحسّباً للإثارة، لتعب الرحلة المنتظرة بالطائرة إلى لوس أنجلس. تستسلم لواقع الحال:

– لا وقت لديّ لنقل أغراضي ولا مكان أنقلها إليه.

تلثغ بقوة بحرف الراء.

توصيه بالأزهار ثم تنظر إليه وتقول:

– قد أعود وقد لا أعود، أتمنى أن لا أعود.

تداعب يده تحبّباً.

تشعر بحماسته نحوها، تتقبّلها.

وقف أمام البحر، تأمّل السفن الراسية والمقتربة من المرفأ، أخرج الأوراق النقدية من جيبه ودفع لها إيجار سنة كاملة.

– أخبرني سيريل أنك طالب في الجامعة...

تستدرك محذّرة:

– لا تأتِ بسيريل إلى هنا... أرجوك.

كانت بحاجة إلى مال الإيجار لأن جايمس كوبرن أرسل في طلبها ولم يرسل إليها مالاً. التقاها السنة الماضية في بيروت، في أحد الملاهي الليلية، أحبّها وأحبّته. أرسل إليها برقية، أخرجتها من حقيبة يدها، قرأتها على نظام بصوت متأثر:

– حجزتُ لنا...

تُغمض عينيها حالمة عند ضمير الجمع.

– ... في أوتيل ماريوت، الطابق الثلاثين، انتظرك على أحرّ من الجمر.

تستمر في كلامها المتقطع، تحذّر من أخطار:

– لن يتركوكم بسلام!

لا يسألها نظام من هم ولا من نحن.

دخلا الصالون مجدداً، هي تنظر إلى الساعة، وضعت حقائبها بجانب الباب.

سألها عن صورة الرجل باللحية الكثيفة والشاربين، يعتمر قلبقاً أسود ونظراته سوداء عميقة.

– الغراندوق نيكولا نيكولاييفيتش، عمّ القيصر نيكولا الثاني باللباس الرسمي الشركسي...

أرادت أن تضيف شيئاً لكنها تردّدت مبتسمة معتذرة، وسألته:

– ذكّرني باسمك من جديد.

اكتفى باسمه الأول، نظام. تضيع في غابة الأسماء اللبنانية.

خفضت صوتها قليلاً وهي تخبر نظام كيف كان الغراندوق فارع الطول ومتزوّجاً بالأميرة ميليتزيا من مونتينيغرو وكانت في غاية الجمال، لكن المهم أنه ثأر لهم من اليهود، في كييف وفي مدن أخرى...

تردّدت قليلاً:

– إذا كنت لا تحبه أخبّئه في الخزانة.

نظرت إلى الايقونة، أمسكت بيده من جديد، طوّقها من الخلف. لم تردعه لكنها انتفضت فجأة:

– نسيت أن أخبرك الشيء الأهم! الأيقونة! القديس جرجس! إنها في عائلتنا من عدّة أجيال، أمي حملتها من بطرسبرغ إلى هنا. تخلّت عن معطفها الفرو الذي شاركت به في استقبال القيصر نيكولا الثاني المسكين في قصر الشتاء ولم تتخلّ عنها.

لا مشاعر على وجه القديس بل تبدو على محيّاه براءة الأطفال في اللحظة التي كان يغرز فيها الرمح في فم التنين. ملاك صغير يرفرف كالعصفور ويحمل إكليل غار فوق رأسه، ابنة الملك تقف في زاوية اللوحة، في باب قصر أبيها ربما، والحصان الأبيض يحتلّ وسط المشهد. القديس جرجس يعتمر خوذة رومانية.

أبعدت يده عنها بلطف واستدارت لتواجهه:

– لا تؤاخذني على السؤال. أنت مسلم أم مسيحي؟

ابتسم ووعدها:

– إذا التقينا من جديد أخبرك قصة حياتي.

أشعرها بالحرج. أمسكها من يدها من جديد.

– لا يهمّ، أخبروني أن المسلمين يؤمنون أيضاً بمار جرجس.

ثم أوصته:

– مهما تكن، لا تنزع هذه الأيقونة عن الجدار، إنها تحميني في سفري واتركها موجّهة هكذا تنظر نحو البحر...

صحّح لها وهو يداعبها على رقبتها:

– لكن مار جرجس ينظر إلى الوحش!

فصحّحت له وهي تبتعد قليلاً:

– الأيقونة تنظر وليس القديس جرجس!

لم يفهم لكنها بدت متأكدة.

حشر نفسه معها داخل المصعد، أصرّ على مساعدتها في إنزال حقائبها. ضغط على مفتاح النزول فطوّقته هي هذه المرّة بذراعيها وقبلّته طويلاً على فمه، وهي تقول إنه سيتذوّق أحمر الشفاه، ضغط على مفتاح التوقف ليطيل العناق فتعطّل المصعد و لم يتمكنا من تشغيله

حتى ضربا على الباب وجاء البواب لإخراجهما. كانت قبلة عاشقَين قديمَين لن ينسى نظام طعمها.

صعدت إلى سيارة الأجرة وهي ما تزال تمرر يدها على شعره:

– تخبرني قصتك ذات يوم، تمنّ لي التوفيق.

مع السلامة.

قال لها، وبعد تردّد أضاف:

– أنتظرك، عودي.

– سأعود، على الأقل من أجل أمّي التي تسكن مع هرّتها وذكرياتها، هناك على الطريق الساحلي في جونيه، في بيت قديم وجميل.

أمسكته من قميصه وراحت تهزّه:

– سيحرقون بيروت قريباً، أرسلوا إليكم الفدائيين والآن جاؤوا يقتلونهم. ارتدوا لباس النساء، وضعوا باروكات ملوّنة كالعاهرات، كان لهم جواسيس هنا ساعدوهم في الوصول...

سيترك اسمها على الباب وعلى جرس المدخل، أولغا فيليبوفنا، وإذا وصلت إليها رسائل فسيحفظها لها.

انطلقت السيارة فأرسلت له قبلة ولوّح لها بيده.

توقف التاكسي فجأة. نسيت شيئاً.

أطلت رأسها من النافذة الخلفية:

– ما اسمك؟ لم أحفظه، لا تؤاخذني...

أجاب من جديد:

– نظام.

فأردفت:

– انتبه على الأيقونة يا نظام...

ووصيتها الأخيرة:

– اهرب من بيروت، سيخربونها من أساسها!

لم يهرب و لم يأت بسيريل بل جاء بكثيرين غيره.

موسى أولاً.

جاء به يوم التقاه ضائعاً في زهرة الشمال.

كان نازلاً لتوّه من حَورا، يحمل بيده لنظام كنزة صوف زرقاء سميكة مجدّلة دفعت رخيمة لإحدى النساء كي تشتغلها بالأجرة لأن يدَيها ما عادتا تهدآن لتمكّناها من الإمساك بالصنارتين وشبكهما. باتت يداها ترتعشان كما يرتجف صوتها.

– تخاف عليك من البرد.

هكذا، لا رخيمة ولا أمّك.

دعاه نظام إلى الشقّة الجديدة، نام موسى في الغرفة التي أعدّتها أولغا لأولادها الموعودين ونام نظام في السرير الفسيح حيث لا بدّ دارت مناكفاتها مع زوجها. طوال اليومَين اللذين أمضاهما في شقّة المنارة وضواحيها، كان موسى في حالة صدمة شبه دائمة. لا يتركه نظام ساعة يدور بها وحده في حيّ الفنادق القريب إلاّ ويعود مسرعاً، يمسك نظام من قميصه ويشدّه للخروج معه كي يدلّه على سيارة الجيب الخضراء المطلية بألوان الحرب العابقة والملطّخة بالوحل تمويهاً وكُتب عليه الكفاح المسلّح، ما تزال حتى اللحظة متوقفة قرب مسرح بيروت، وسائقها ينام متعباً فوق المقود، كأنه عائد منهك من معركة ليلية على جبهة قتال غير معروفة. أو يسأله هامساً عن الرجل والمرأة

الساكنَين في الطابق الأول من البناية، ابتسما له وعرضا عليه نسخة من الإنجيل مجاناً ولما أخذها عرضا عليه كتيبات أخرى. أخبره نظام أنهما يدرّسان في الجامعة الأميركية وحاول إخافته بالقول إنهما من شهود يهوه أو شيء من هذا القبيل. اضطرب موسى فجأة ورمى الإنجيل والكتيبات الأخرى من يده كأنها كهربته أو لوّثته. ضحك نظام طويلاً، ولما سأله موسى عن البنات، «الحريم في بيروت»، كما كان يقول، أخبره عن أولغا الجميلة التي سافرت إلى هوليوود للالتحاق بجايمس كوبرن.

– بمن؟ جايمس كوبرن الممثل؟

كان قد شاهده حديثاً في فيلم «السبعة الرائعون» في سينما حَورا فلم يصدّق واكتمل ذهوله.

عندما ودّعه نظام، اقترح عليه أن يعرّج قبل صعوده إلى الجبل على السوق العمومي، أوصاه بمعارفه هناك وحذّره من الوقوع في أحابيل لاعبي الورقات الثلاث. لكن موسى لم يعد يصغي، تراكمت عليه الأهوال ولم يكن يرغب سوى في الابتعاد، سيمضي الوقت في الفندق منتظراً سائق البلدة. عاد إلى حَورا وملأها بأخبار نظام.

يرمي المال من النافذة، يدخّن الحشيشة، يقامر في كل شيء، في البلياردو وسباق الخيل، يسكن في أجمل شقّة في بيروت، يعشق ممثلة سينمائية صديقة جايمس كوبرن، ينفق عليها وعلى غيرها بلا حساب، سيرغم توما على بيع الأراضي لتلبية حاجاته، توما الذي أمضى حياته يشتري، يشتري الأراضي ويرفض شراء البيوت، للبيوت حرمة، سيقضي نظام على توما، هو ومرض السكّري.

علي سويدان حضر إلى الشقّة بلا دعوة.

دقّ الباب في الحادية عشرة ليلاً، سأل عن زوج أولغا، يعرفه، يعرف كل شيء عن كل الناس.

قال إنه لا حلّ أمامه سوى المبيت هنا.

تأمل نظام في الاقتراح، وجد الشاب لطيفاً، استأنس به، استقبله.

افترض علي نفسه ضيفاً على زوج أولغا فلبس روب النوم خاصته وراح يجول به في البيت، يصنع القهوة، يعرف أين السكّر والبنّ، أصلح عطلاً في الكهرباء، أشعل سيجارة حشيش ومررها إلى نظام، انتاب نظام الضحك بعدها.

نام سعيداً ووجد عليّ عند الصباح واقفاً يغسل قمصانه ويكويها، يلاحق الطيّة بتأنّ، يفضل القمصان بيضاء من الكتّان، يرتديها بدون قبّة، هكذا يشتريها أو ينزع منها القبّة عند أحد الخياطين.

أصله من البازورية في الجنوب، كما يقول، لكنه ولد حيث يسكن أهله اليوم، في حيّ اللجا في بيروت، ولا مكان ينام فيه في البيت. ستة أشقاء، واحد فقط غادر البيت إلى أفريقيا، جنى المال من تجارة الالماس فنسي حي اللجا ومن فيه، لا خبر ولا رسالة. في البيت أيضاً ثلاث شقيقات، وغرفتا نوم فقط، ورائحة الأرجل. يقول إنه منذ أكثر من سنتَين، لم ينَم ليلة واحدة في حيّ اللجا ولم ينزل مرة في فندق. من صديق إلى صديق.

اهتم بصورة القديس جرجس، يقترب منها، يدلّ على المدينة في زاوية الصورة السفلى إلى اليمين، يتوقف عند قصر الملك، عند النساء اللواتي يتابعن معركة مار جرجس مع التنين من شرفات القصر ويسأل إذا كانت تلك المدينة هي بيروت. جال مرة بنظره في جدار الصالون

واقترح تغيير مكان مار جرجس، فاعترض نظام لأن أولغا أوصته أن يبقيه قبالة الباب المفتوح ينظر باتجاه البحر، ربما باتجاه لوس أنجلس.

«لوس أنجلس؟»

كان علي يستخف استخفاف العارف بأولغا وأفكارها ورحلتها.

خرجا معاً إلى الشوارع. كان علي يلقي السلام على باعة متجوّلين وخدم في المطاعم، أخبر نظام عن قوات الحسين الانتحارية التي انتسب إليها وكانت موزّعة بين حيّ اللجا وشارع المصبغة في منطقة الشياح. بعد أن تأسست بقليل بدأ أعضاؤها يرون الأحلام بكثرة، فاطمة الزهراء والحسين. أمله خاب لأن أعضاءها لم يفعلوا سوى تجريح سيارات الجاغوار والكاديلاك المركونة في الشوارع بآلات حادة يحملونها لهذه الغاية. اجتمع معهم أكثر من مرة في حرج القتيل ثم هرب منهم وما زال هارباً.

اختفى علي سويدان كما ظهر واختفت معه قمصان زوج أولغا، أخذ أيضاً روب النوم والثياب الداخلية. كانت فاخرة ومطرزة قليلاً وبنعومة، أقرب إلى ملابس النساء. الحرفان الأوّلان من اسم زوج أولغا واسم عائلته مدروزان على سراويله وقمصانه الناعمة.

تركه علي سويدان وحيداً لا يجد في نفسه الهمّة الكافية للذهاب إلى الجامعة، يجلس على الشرفة أحياناً يستمع إلى فتاة في الطابق الرابع من البناية تتمرن على أغاني الأوبرا تقطعها صفقة باب غاضبة لا يعرف إذا كانت من أخ ضاق بصوتها الحاد ذرعاً أو صادرة عمن تزعجهم من جيرانها الآخرين.

يضجر، ينزل، يتمنى أن يطرأ عليه ما يسلّيه ما بين المساء والنوم،

يدور في الحيّ. شباب يتحلّقون مقابل نصب جمال عبد الناصر، عند التقاطع، يتقاذفون الكلام بلهجة بيروتية. في كل مرّة كان يمرّ بهم، في أي وقت من النهار، حتى في ساعات الليل المتقدمة، يجدهم واقفين على الرصيف، دوام ومراقبة، أمام محل بيع عصير الليمون والجزر، يتبارون في الكلام بلهجة مبالغ فيها:

– لوين رايحين؟ شو في ما في؟

يسألون ولا ينتظرون جواب.

وعند مرور الفتيات على الرصيف المقابل، يطلقون العبارات المرمّزة، يشبّهون بها العابرات الجميلات بسيارات الكاديلاك أو بجياد السباق. يتوزعون الأدوار الكلامية، يستعرضون لهجتهم هذه، يمطّون آخر الكلام، وهم لا يتكلمون في أحاديثهم العادية بهذا القدر من الفظاظة لكنهم يتعمّدون ذلك ليؤكّدوا ربما على هويّة المحلّة التي يقفون حراساً عليها كما يعتقدون. مع تكرار مروره انتبه نظام إلى أنهم كانوا عند رؤيته يبدأون الكلام على الأشرفية وأولاد الأشرفية وأنهم لهم بالمرصاد وأن لا أحد قادر على أبناء عين المريسة أي عليهم. يقولون أشياء من نوع:

– نحنا ما بتفرق معنا الصيفي والمدوّر...

يحسَبون أنه مسيحي. يبتسم لهم متسلياً ويهزّ برأسه ليكمل طريقه صعوداً نحو مسرح بيروت حيث يتجمّع عند المدخل عدد من الأشخاص، حضروا كل بمفرده تقريباً، ينتظرون فتح الأبواب. يدخل معهم دون أن يلقي نظرة كافية على الصور بالأسود والأبيض. يدخلون صامتين، الصالة صغيرة والخشبة واسعة، هدوؤهم احتفالي في شبه العتمة التي يتحول فيها الجمهور القليل إلى أشباح ترمي ظلالها

أكثر ما ترخي بأجسادها على المقاعد. كأن العرض يبدأ في الصالة قبل أن ينتقل إلى الخشبة حيث يُسلّط ضوء صغير على حارس مخلّع يرتدي زياً عسكرياً هجيناً ويعلن عن دخول ملك متداعٍ على رأسه تاج من الكرتون الملوّن.

– الملك يموت.

ضحك نظام عالياً فنظر إليه بعض الحضور شزراً.

ملكتان، الأولى يابسة حادة سوداء تساعد الملك على الموت راضياً، والأخرى البدينة البشوش الأكول تريده أن يتشبث بالحياة والملك المتعثّر يعود طفلاً بصوت جهوري.

صار نظام يكتم ضحكته. كان يتسلّى كثيراً، سحرته أصوات الممثلين، خصوصاً صوت الملك الصنّاج وصوت الملكة الجافة وهي تقول:

– يجب أن نبلغ جلالتك بأنك ستموت...

عاد في اليوم التالي.

لا أحد يضحك غيره من جواب الملك:

– تضجرونني! سأموت، نعم سأموت. بعد أربعين عاماً، خمسين عاماً، ثلاثمئة عام... عندما أرغب، عندما يكون لديّ متّسع من الوقت، عندما أقرر...

أو من اهتماماته:

– صار هذا العرش قاسياً، يجب تنجيده...

في اليوم الثالث ابتسم له قاطع التذاكر على باب المسرح، والتقى بيسرى.

كان يغمض عينيه، يتمتع بالأصوات وحدها، صار يحفظ كلمات

المسرحية، يطرب لها ويسابق الممثلين عليها.

سألته فجأة إذا كان يحب المسرحية، ابتسم لها وقال انه يجدها مسلية جداً، وخصوصاً في النهاية.

– مسلّية؟

لم تقتنع. كانت وحدها أيضاً، بينه وبينها مقعد فارغ.

ما إن خرجا إلى الشارع حتى طلبت منه إشعال سيجارتها. سارا جنباً إلى جنب صامتَين. المساء رحب. تقدّما على كورنيش البحر، مقابل السفارة الأميركية. تدخن سيجارتها وهو يرافقها، قلة من باعة الذرة المسلوقة ما زالوا يأملون بالزبائن. كانت نحيفة، تدخّن بشغف، تدخّن انتقاماً من شيء ما، جميلة لو اعتنت بجمالها.

يلزمها ربما بعض الوقت كي تُفرغ من قلبها صدى صراخ الملك الأخير وهو يموت وينطفئ العالم من حوله.

رمت عقب سيجارتها بعيداً في الماء ورفعت شعرها بيديها الاثنتين إلى الوراء كأنها تنفض عن جسمها، عن قلبها، صورة الملك الحامل في يده صولجاناً أقرب إلى خشخاشة الأطفال:

– من أنتَ؟

كان سؤالها دراميا هزلياً أضحكه كأنه استمرار لحوار المسرحية.

تنزّها لساعتين وأكثر. لم يرغبا في الانفصال بسرعة.

اسمها يسرى، ولدت في أبيدجان وتسكن مع أهلها على مضض. لديها أصدقاء كثر لكنها تأتي إلى المسرح وحدها. أخبرها أنه يقيم في شقة في الجوار ولديه فسحة للأصدقاء. اتكآ على الحاجز الحديدي وأدارا ظهريهما للبحر. سمعا دويّ انفجار عميق. لجهة المطار، كما افترضت.

– لا يضربون إلاّ من الجوّ، الجبناء...

رجّحت أنها غارة يشنّها الطيران الاسرائيلي.

عادا إلى موت الملك، فقالت إنها غير مؤمنة بالله وتعتقد أن السعادة هنا، تكون أو لا تكون.

سارا في اتجاه شقته، تحاشى المرور معها في مرمى نظر التجمع النهاري الليلي لشباب عين المريسة أمام بائع عصير الليمون. دعاها إلى الصعود.

– غداً.

قالت.

فتجرّأ دفعة واحدة:

– يمكنك السكن عندي...

قبّلته مودّعة على خدّيه.

4

لم تكذب، يسرى مكتبي.

بعد الظهر بقليل، وقفت في باب الشقة لاهثة، حاملة أمتعتها، فساتين طويلة بألوان داكنة، لا تحبّذ من حيث المبدأ أن تلبس النساء السراويل. جلبت ايضاً أسطواناتها وكتباً في الكيمياء والماركسية، فلشتها في غرفة الجلوس وارتمت متعبة بعد أن اضطرت إلى الصعود على السلّم بسبب عطل في المصعد.

– جئت!

ترخي جسمها كيفما اتفق، ترفع رجلاً وتطويها أمامها على الكنبة فيبين فخذاها حتى سروالها الداخلي وهي تحكي غير آبهة كيف لم تعد تطيق السكن في بيت أهلها، أمها ورفيقات أمها، شقيقها المحامي الصاعد، هي لا تحبّ الصعود.

أعجبها البيت المطلّ على منارة بيروت المتوقفة عن العمل وعلى الجامعة الأميركية، خرجت إلى الشرفة، رفعت ذراعَيها نحو السماء ثم استدارت على نفسها فرحة، احتفاءً بإقامتها الجديدة:

– يجب أن أتعلّم الرقص...

تطوّع نظام للنوم في الصالون، رفضت، تشاطره السرير الكبير إن

لم يجد مانعاً. تسارعت الأمور أكثر مما توقّع نظام. لم يناما قبل الثالثة صباحاً بعد غرام طويل وتدخين السجائر وهي تستعيد خيبتها مع الشاب من بلدة النبطية الذي كانت تفوح منه، أو خيّل إليها ذلك، رائحة التبغ الذي كان فخوراً بأن أهله يزرعونه ويشكّونه تحت الشمس ليعيشوا منه. أحبّت سيرته البروليتارية فوقعت في غرامه لكنها اكتشفت كما تقول أنها أغرمت بقصة حياته لا به. فرّت منه ومن غبائه وجلافته ورائحة عرقه لأنه لا يعرف إلى الاستحمام سبيلاً.

– أستعير حياتي دائماً...

ابتسم دون أن يفهم.

تمشي في شوارع بيروت، تحسَب نفسها بطلة فيلم «قبلات مسروقة» تمشي في باريس. تصنع الأوهام دون توقّف.

لكنها جاءت إلى نظام بإرادتها وهي الآن مرتاحة.

مرتاحة نامت لكنه استيقظ بعد نصف ساعة على صوتها تشهق باكية وتشتكي متفجعة:

– أنا هكذا، لا أعرف ماذا أفعل بسعادتي فأبكي.

طوّقها بذراعيه، لاطفها فغفت قليلاً، حاول سحب يده من خلف رأسها، فتمسّكت بها. ارتاحت ولو بقيت تخرج شهقة من وقت إلى آخر وبقي هو مفتّح العينين حتى الصباح.

دخلت يسرى مكتبي حياته وتربّعت فيها. لازما الشقة لثلاثة أيام متتالية، يخرج للتبضّع من الدكان مرة واحدة في اليوم. لعبا بالمعركة البحرية على الورق ومارسا الجنس في كافة أنحاء البيت. كلما وقعت عينا يسرى على أحد الروس البيض من أقارب أولغا في صورته

الفوتوغرافية بقبعة الفرو أو عابساً، عابسون جميعاً لأنهم يقفون أمام المصوّر أو عابسون فقط لأنهم روس، ضابط في ثيابه الكاملة وأوسمته العسكريّة، تشعر أنه ينظر إليهما فتدير وجهه ناحية الجدار.

تنتبه أحياناً إلى غرابة الموقف فتلتفت نحو نظام وتسأل:

– ماذا نفعل هنا؟

بنفس اللهجة الدرامية المضحكة المفتعلة. تنظر إليه وتعيد النظر في الصور وتسأله مرة جديدة عن اسم صاحبة البيت. تحاول تأليف شيء ما من وجودهما في شقّة المرأة الروسية أمام صور أهلها والقديس جرجس.

أمضيا ساعات في السرير، هو يقرأ **فتاة القيروان** وهي تستمع إلى جون كولتراين وتنكبّ على معادلات الكيمياء العضوية التي تدرسها في الجامعة.

يعودان إلى العناق والرقّة فتحضر حياتها أمامها من جديد، ترميها على نظام ونظام يتحمّل. تستدرك أحياناً فتسأله عن طفولته، يراوغ في الإجابة، يبقى في العموميات فتستأنف حكايتها هي، فيقترح أن يحلاّ معاً شبكة من الكلمات المتقاطعة العملاقة، محاولاً إلهاءها عن سيرتها المليئة بالمهاوي العميقة، مثل طريق حَورا الجبلية.

في اليوم الرابع ضاق خلقه، فتح الباب ومشى.

اشتاق إلى ساحة البرج، صعد إلى زهرة الشمال، فتح له رفول ذراعيه على غير عادة ليقول إن غيابه طال، ليس عليه بالطبع، بل على ما يُرسل إليه من حَورا ويكدّسه في زاوية ردهة الفندق. اعتذر منه مرة جديدة لأنه يعطي منها ياسمين.

– فقيرة، لديها ابنة صغيرة وزوجها توفي وتركها وحدها...

كأن رفّول يعولهما أو هكذا يحب أن يكرر القول.

كانت هناك أيضاً وصية من حَورا، من توما، يتمنى عليه أن يزور والده محمود العلمي والاطمئنان عليه لأنه أصيب بعارض قلب وهو عاد من حمص إلى طرابلس ولا يعتني بصحته.

غاب نظام حتى المساء، دخل مرتين إلى السينما، وفي المرتين كان يخرج في مستهل العرض، يتسلّى بإعلانات الأفلام أكثر من الأفلام نفسها، يضجر بسرعة، يخرج في العتمة. هام على وجهه، قصد المطار. لافتة كبيرة تقطع الطريق:

«السلاح زينة الرجال».

جلس لساعتين خلف زجاج مقهى المطار المطلّ على المدرج. لا يضجر من متابعة هبوط الطائرات وإقلاعها، مثل تأمل النار المشتعلة أو الماء المنساب.

عاد إلى الشقة. انتبهت يسرى إلى رغبته في الهروب. تقول:

– أنا ثقيلة، ثقيلة...

يراضيها فتصمّم بينها وبين نفسها على عدم خسارته.

لم تعد تتحمّل الخسائر.

دعت كُرمى له أصدقاءها إلى العشاء فوافق بلا شروط. تبضّع لها من محالّ الجوار، حضّرت لهم أطباقاً إيطالية سريعة، وقف في الباب مرحّباً. امتلأت الشقة بهم. ضيوف من الجنسين.

الفتيات مثل يسرى، لا طويلات القامة ولا جميلات إلى حدّ الاكتفاء بجمالهنّ.

ديما.

مستديرة، لا تستحي بجسمها المكتنز، تضحك من قلبها، تضحك كثيراً، توحي بالثقة لكنها لا تقبل أن يتكئ عليها أحد، امرأة حرّة هي ايضاً.

هدى.

أحلى ما فيها خدّاها المنفوخان مثل حبّتي تفّاح صحيحتَين، ستغرم بنظام لوقت قصير، تختلس إليه النظر لكنها ستتراجع أمام يسرى المحاربة.

فرات.

الأسمر الطويل ذو الشاربين الدقيقين، يبدو غريباً، يتحدث بلهجة عراقية ويتقن لغة عربية أقدم بكثير من تلك التي كان يتكلمها الباقون، تجاوز الثلاثين من العمر.

الشبان لطفاء، يصافحونك، ينظرون في عينيك طويلاً ولا يعرّفون عن أنفسهم بأكثر من أسمائهم الأولى.

علاء.

صغير رصين سكوت مصمّم. يضع نظارة سميكة.

ريمون.

مرجعهم وفصيحهم، الوحيد الذي لا يدخّن بينهم، يقول إنه مصاب بالربو من صغره.

فاسكو.

مقعد، جاء في كرسيه، ينزله من السيارة ويدخله المصاعد ويسهر عليه شاب مفتول العضلات حفر وشماً على ذراعه ويرفع دائماً كمّ قميصه إلى أعلى كي يُظهره. فاسكو أشقر الشعر أخضر العينين.

موريس.

ممتلئ، حمل معه نايه الأفقي في علبته الثمينة المبطّنة بالمخمل الأحمر، يعزف فقط إذا كان الجوّ مؤاتياً للإصغاء، كما يقول.

جلبوا معهم زجاجات نبيذ، يشربون كثيراً ويتناقشون كثيراً. تحدثوا بالفرنسية المطعّمة بالعربية الخفيفة. سرعان ما انتقلوا من كتب قرأوها وأفلام شاهدوها إلى حزام الفقر الذي بدأ يلفّ العاصمة بيروت من عدة جهات. أخرج ريمون محرمة ورق من جيبه ورسم عليها دائرة وزّع حولها الأكراد وعرب المسلخ شمالاً في منطقة الكرنتينا، الشيعة النازحين إلى الضاحية الجنوبية هرباً من الاعتداءات الاسرائيلية التي تدمّر بيوتهم وتحرق حقولهم يومياً، المدينة الصناعية شرقاً، أي عمال الميكانيك والمطابع والذين لا يمر يوم إلا ويضربون فيه لسبب أو لآخر، وكذلك من سمّاهم فقراء المسيحيين من دون تفاصيل إضافية، إضافة إلى المخيمات الفلسطينية الموزعة في عدة أنحاء، رأس الحربة المخيّمات الفلسطينية. بدوا فرحين متحمسين لهذا الحزام.

– لكن لا شيء لجهة البحر...

قال نظام، و لم يعلّق على كلمته أحد.

يسأل يسرى همساً عن الاسم الكامل لأحد اصدقائها بعد مداخلة واثقة يفصّل فيها كيف أن البورجوازية مسؤولة عن كل مآسينا، فتقول إنها لا تعرف ولا تريد أن تعرف، لا يصدّقها فتفهمه، بعد إصراره، أنه لا يجوز التعرّف إلى الأسماء الكاملة للرفاق إذا هم حرصوا على إخفائها.

5

الرفاق!

أحبّهم فتحوّلت شقّة رأس بيروت إلى مقرّ اجتماعات لخليّة فرج الله الحلو التابعة لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان وكانت الخليّة سمّيت هكذا تمجيداً للمسؤول الشيوعي المناضل الذي رفض خيانة رفاقه تحت التعذيب، فذوّبته المخابرات السورية كما يقولون في برميل للأسيد في خلال أحداث ثورة العام 1958.

كانت الدعوة إلى العشاء بمثابة حفل تعارف طلبت يسرى من نظام بعده إذناً بدعوتهم إلى اجتماع في الشقّة، هم أنفسهم تقريباً أكلة السباغيتي بثمار البحر وشاربو النبيذ الفرنسي، يضاف إليهم نفر أو اثنان، حضروا بجديّة وتنظيم هذه المرة. قام نظام على خدمتهم طوعاً، كان فرحاً بكثرة عددهم يحضّر لهم القهوة مرتين أو ثلاثاً بينما هم مأخوذون بالمناقشات. سكن وحده بصعوبة فجاءت يسرى مكتبي فصارا يسكنان وحدهما، هو ويسرى مكتبي. متعلّق بها،لا يتخلّى عنها ولا يكتفي بخلوته معها. أظهر لهم الترحاب والتودد إلى درجة أنهم لم يجدوا من بعدها حرجاً في اللقاء عنده في أي وقت يتفقون عليه من دون أن يسألوه أو حتى أن يبلغوه مسبقاً. لا يتردّدون في

الدخول إلى الشقة هكذا بلا إنذار بما أنه راح يصبّ نسخاً من المفتاح يعطيها لكل من يقول إنه جاء و لم يجده. لا يبخل بالمأوى على من تسوء علاقته بأهله الذين كانوا يريدون له من صغره أن يصبح طبيباً جرّاحاً وهو اختار دراسة علم النفس أو علم الاجتماع فيهجر بيت العائلة بعد مواجهة صاخبة مع والده ولا يعرف أين يتوجّه.

لا يتعب نظام من الناس. أحصى مرة وهو يقهقه فخوراً كيف أن سبعة عشر شخصاً على الأقل باتوا يملكون نسخة عن مفتاح شقة أولغا فيليبوفنا التي كانت تبعث إليه من وقت إلى آخر رسائل غريبة، عليها طوابع بريدية من قبرص أو من اليونان، تروي له فيها تطوّر لا بل تراجع علاقتها بجايمس كوبرن وربما اضطرارها قريباً إلى العودة إلى بيروت. كتبت على قفا بطاقة بريدية عليها صورة تمثال الحريّة:

– يحبّني، لكنه مطلوب كثيراً، تهجم النساء على غرفتنا في الفندق، ينتزعنه مني!

ازدحمت الشقّة في رأس بيروت وصار نظام نفسه يقرع الجرس طويلاً قبل أن يقدم على فتح الباب بمفتاحه الخاص مفسحاً في المجال أمام من يكون في الداخل كي يستعدّ. ويكون في الداخل أصحابه الجدد، من جاءت بهم يسرى كرفاق، وآخرون جاء بهم أصحاب يسرى ولا يعرفون يسرى شخصياً قبل دخولهم الخجول الأول على الشقّة. تبنّى نظام الجميع، ابتسم للجميع. فوجئ يوماً بشاب لم يره من قبل يطارح قبل الظهر الغرام صديقة له من معارف ديما على كنبة غرفة الجلوس تحت صورة الغراندوق نيكولا نيكولاييفيتش وهما نصف عاريين من عجلتهما وشوقهما. أغرب ما في الأمر أنهما لم يتوقفا عن الشهيق

واستباق النشوة حتى بعد التفاتهما نحو نظام وتأكدهما من أنه واقف قبالتهما في الباب المشرّع لا يدري كيف يتصرّف. هكذ هو، يُشعر الآخرين بأن ما هو له لهم وفوق ذلك يبتسم في وجوههم كي لا يشعروا بالذنب. سبعة عشر إضافة إلى آخرين كثر من عابري السبيل، يجتمعون ويدخّنون مئات السجائر، الذكور من بينهم يمزجون البيرة بالملح وإناثهم يقتنين دائماً الواقي الذكري في حقائبهن اليدوية تحسّباً، ويقولون جهاراً إن الله غير موجود وهو ليس سوى اختراع أهل السلطة والأقوياء كي يقنع الضعفاء بأحوالهم. يُخطئون أحياناً بالشقة فيقرعون باب شقّة أخرى في البناية لكن ما إن تلاحظ مثلاً زوجة مأمون العيتاني صاحب محل بيع الأجواخ في شارع المعرض والساكن في الطابق الثالث، قمصانهم الفضفاضة وشعورهم المرسلة المتسخة على جباههم حتى تعرف قبل أن يسألوا أنهم يقصدون شقة نظام فتشير عليهم بنوع من الازدراء:

– في الروف، في الروف!

وتسارع إلى إقفال الباب كي لا يتسرّب شيء منهم إلى داخل شقّتها.

يتغيّر سلوكهم ما إن ينعقد الاجتماع، فينادي بعضهم بعضاً كرفاق ورفيقات ويسمّون يسرى ميرا باسمها الحركيّ كما يقولون. في البداية، اعترض الرفيق ريمون على إشراك نظام في اجتماعاتهم متذرّعاً بعناوين الروايات التي كان نظام يخلّفها في أرجاء البيت، مشيراً إلى وعيه الثوري الضعيف وبعض الآراء الغريبة التي يطلقها أحياناً.

لكنهم سرعان ما أغرموا بأخلاقه الحسنة واعتادوا شقّته المثالية

للقاءاتهم بعد أن انتزعت منه يسرى وعداً بحفظ أسرارهم، فصاروا لا يبدأوا اجتماعاتهم إلاّ إذا اطمأنوا على جلوسه بينهم، إلى جانب يسرى، تضمّه، تلتصق به، تداعبه أحياناً على وجهه لتؤكد للآخرين وخصوصاً للرفيقات أنه حصّتها. ونظام لم يكن يعرف كيف يشارك في النقاش، سيل الكلام بينهم جارف متدفق يعجز عن السباحة فيه، أطرش في الزفّة كان في البداية، حرب الشعب، الخيانة الطبقية، الأممية الرابعة، الأممية الرابعة والنصف، يحتدّون حول ليون تروتسكي ويجمعون على تمجيد هو شي منه. ينظّف المنافض من أعقاب السجائر أربع أو خمس مرات في السهرة لأن يسرى تكون مشغولة بتذكّر استشهاد من روزا لوكسمبورغ، بينما كان فاسكو يدوّن كل ما يقال على دفتر خاص به فلا يجد وقتاً طويلاً للكلام، ولما استرسل مرة في انتقاد حركة فتح لأنها تطلب من كوادرها قراءة كتاب كفاحي لأدولف هتلر وأن هذا معيب وغير مقبول، أطلق ذلك كله بالفرنسية وبلكنة أهلها. وكان لا يفوّت اجتماعاً ويبقى للأخير حتى عندما يطول النقاش إلى ساعات الفجر الأولى ويبقى معه مرافقه يحمله أحياناً كما هو ويذهب به إلى الحمّام لكي يقضي حاجته فيطلب فاسكو من الرفاق التوقف حتى عودته كي لا يفوته شيء من مناقشة اقتراح قطع طريق المطار خلال التظاهرة المقررة في اليوم التالي باعتبار طريق مطار بيروت الشريان الأساسي لاقتصاد الخدمات الكومبرادوري كما كانوا يسمّونه. وفيما يعود فاسكو إلى حمأة المجادلات كان النعاس يدبّ في عينَي مرافقه حوالى الواحدة بعد منتصف الليل فيحني رأسه على صدره وجسمه يبقى مستقيماً على كرسي الخيزران، بينما ينحرف النقاش بحدّة وبفعل ملاحظات فاسكو نحو أولوية الانتماء لدى أفراد

الطبقة العاملة بين الوطن والدين ووضعهم كأجراء مسحوقين. يصيب نظام النعاس بدوره بالرغم من مداعبات يسرى في محاولة لإبقائه متابعاً فيقولون وهم ينظرون إلى يسرى إن عليهم المغادرة لأنه حان وقت النوم فيفتح عينيه ويطلب منهم بصدق أكيد وإصرار ان يستمروا فهو يحبّ النوم وهم يتناقشون لكنه ينتبه بعد قليل أن نور المصباح الكهربائي يصيبه في عينيه فيزعج إغفاءته فيغطّي وجهه بنسخة من مجلة الحريّة التي كانت تنطق باسم منظمتهم وعنوانها العريض في صيغة سؤال عويص:

«كيف نحوّل المطالب القطاعية إلى حركة احتجاج ثورية في وجه الطغمة الحاكمة؟»

فيتمدّد قليلاً إلى الوراء ويسرى تغلّ في حضنه، ترمقها ديما أو هدى بين الحين والآخر بنظرة فيها استنكار يغطّي على الشعور بالحسد منها لأنها تحظى بهذا الشاب المطواع الباسم الخدوم الجميل الوجه والقوام، فيما يعلو ورق الصحيفة ويهبط مع تنفّسه. وكان إذ يسمع تحريك الكراسي بعد اختتام الاجتماع بتلاوة المحضر وجدول أعمال الجلسة التالية، يفتح عينَيه هلعاً فيطلب منهم المتابعة بشيء من التوسّل ليكتشف سريعاً سذاجة مطلبه بتحويل اجتماعاتهم الخطيرة مجرد مؤانسة له فيعرض عليهم كأساً أخيرة أو قهوة تنعشهم.

كل ذلك خشية أن يبقى وحده، أي وحده هو ويسرى. وصارت تنتبه لحاله فإذا سألها ماذا نفعل هذا المساء تقول له أولاً:

– لا تخف.

تطمئنه إلى أنهما سيكونان بصحبة آخرين ولن يبقيا وجهاً لوجه.

يحيّرها كيف يحبّ الرفاق ولا يكترث لما يقولونه، تطلب منه اتخاذ اسم حزبي فلا يبالي.

– أنت الوحيد بيننا بلا اسم... سأجد لك اسماً من إحدى روايات دوستويفسكي، يكون قريباً من أسماء أصدقائك الروس...

تقول وهي تشير إلى صور أقارب أولغا.

تريد لمن تحبّهم أيضاً نظيراً لهم في الأفلام التي شاهدتها أو في الروايات التي طالعتها.

لا تنفكّ تكرر عليه القول:

– أرتاح معك كثيراً.

تقصد بالراحة أنه لا يتعب من الاستماع إليها وهي في حضوره تخبر نفسها بمصاعب حياتها.

داوى وحدته بيسرى وداوى وحشته معها بحشد كبير فاض ضجيجه إلى الخارج.

ففي سهرة انحصر فيها النقاش بين اثنين أو ثلاثة من الضالعين في الفلسفة، انتهى الأمر بالرفاق والرفيقات، خصوصاً أولئك الذين أتعبتهم المفاهيم المجرّدة، إلى رفع الصوت بالغناء على الشرفة لإسكات خبراء الجدلية المادية، فطلب فاسكو فسحة صمت ليلقي فيها قصيدة بالفرنسية ظنّ نظام للوهلة الأولى أنها من تأليفه لأنه كان ينظر إلى الأفق المعتم فوق البحر وهو يتلو عن ظهر قلب مغمضاً عينيه:

«ضيقة مراكبنا، ضيقة أسرّتنا، شاسعة المياه، واسعة أمبراطوريتنا في غرف اللذة المغلقة...»

تلى ذلك غمز وهرج ومرج وصراخ استبسل فيه نظام حتى قرع عليهم الباب رقيب أول في قوى الأمن الداخلي لهجته جنوبية مقطّب الجبين يرافقه عنصر شاب فخاف أحد الرفاق الذي كان يحمل في

جيبه قطعة من حشيشة الكيف فمررها خلسة إلى إحدى الفتيات دستها في حمّالة صدرها الآمنة.

حضر رجلا الأمن بعد شكوى هاتفية من زوجة العيتاني نفسها بأن الضجيج الصادر من الروف لا يُحتمل، وأن أصوات الغناء تمنع الأطفال في الجيرة من النوم، وأن هناك مرضى لهم الحقّ في الراحة. طلب الرقيب أول الهويات من الرفاق الذكور فقط، جمعها وأمسكها كدسة واحدة بيده ثم بدأ يطلق فيهم موعظة وتحذيراً بعدم التكرار وهو يرمق الفتيات وفاسكو بنظرات استغراب ويتطلع إلى الصور المعلقة على الجدران، ثم راح يقرأ الأسماء عالياً قبل أن يردّ الهويات، وهو يصرخ الأسماء كأنه كاتب في المحكمة. وكان حشرياً له على كل اسم تعليق.

– حسين إسماعيل معلاوي!

يمدّ الرفيق ريمون يده لاسترداد بطاقته. بدا منزعجاً من صراخ اسمه الحقيقي عالياً، رنّت ضحكة نسائية صغيرة تلفت إلى تخفّي حسين خلف اسم مسيحي ربما، قبل أن يسأله الرقيب بشيء من الملامة:

– أنت من حاصبيا، إيه؟

الرقيب نفسه من حاصبيا، يلفظ القاف كاملة وربما لا يعتقد أنه يليق بأبناء منطقته التسبّب بإزعاج الجيران خصوصاً أن لديه أصدقاء محترمين من آل معلاّوي.

– جوزيف إميل الفرنيني!

رفع فاسكو يده مثل تلامذة الصفوف، مدّ مرافقه يده ليأخذ الهوية فبان وشم الأفعى على زنده، لم تتمالك ديما نفسها فسألت وعيناها تخرجان من حجريهما:

– فاسكو! أنت من بيت الفرنيني؟

كأنه اكتشاف حياتها.

تابع الرقيب استعراض معلوماته الجغرافية سائلاً:

– أنت من الأشرفية؟

– أنا من بيروت.

جواب فاسكو كان مواطنياً ناشفاً.

– أمّي من بيت الفرنيني، كيف لا أعرفك؟

أكملت ديما ضاحكة فأكمل الرقيب كأنه أراد إسكاتها:

– ألكسي بيضا!

موريس، عازف الناي.

نظر إليه الرقيب طويلاً، تفحّصه من رأسه إلى قدميه نزولاً وصعوداً، نظر إلى بطاقة هويته مرات عدّة، على الوجه وعلى القفا، لم يصدّق ما يقرأه. وضع البطاقات جميعها خلف ظهره وسأل موريس هامساً مستغرباً كأن لا بدّ من وجود خطأ ما:

– أنت إسرائيلي؟

كان جميع الرفاق يعرفون أن موريس يهودي. لم يخبروا نظام، لم يجدوا ضرورة لذلك.

– أنا لبناني يهودي بالولادة ومعادٍ للصهيونية.

بدا كأن الرقيب أول لم يفهم المقصود بجواب موريس، فأكّد من جديد:

– مكتوب هنا أنك إسرائيلي!

صحّح له موريس كأنه فعل ذلك مراراً من قبل:

– الدين إسرائيلي وليس الجنسية.

أكمل الرقيب:

– لكنك تحكي العربية جيداً.

– أحكي العربية لأني لبناني.

ولمزيد من الإيضاح سأل موريس الرقيب أول:

– ما المكتوب على هويتك أنت في خانة الدين؟

– درزي

أجاب الرقيب.

– وأنا إسرائيلي...

وتابع:

– ... مولود عام 1947 في منطقة زقاق البلاط ورقم سجّلي ثلاثة وخمسون.

نقطة على السطر.

تعقّدت الأمور أمام الرقيب فطرح سؤالاً عاماً:

– وماذا تفعلون هنا جميعكم؟

أجابوه معاً، جوقة صادقة كاذبة:

– نغنّي.

أكمل وكأنه بدأ يتسلّى باكتشاف هوياتهم:

– شمعون يوحنا رخّو.

يستضعفه، يشتمّ الرقيب رائحة الضعفاء، من أسمائهم:

– من وين انت يا رخّو؟

أجابه الرفيق فرات بلهجة المذنب وباللكنة العراقية أن أصله من مدينة الموصل في بلاد الرافدين ومقيم في جوار المتحف الوطني، مقابل قصر العدل، مستجدياً حصانة ما من ذكرهما.

أمسك الرقيب بطاقة نظام، تمعّن فيها و لم يقرأ اسمه، فتح عينيه واسعتين، ينتقل من اكتشاف إلى اكتشاف، سأله:

– شو دينك انت؟

تدخّلت يسرى سائلة مستنكرة ما أهمية الدين هنا، فأجابها الرقيب أول أنها المرة الأولى يقع فيها على هوية خانة الدين فيها فارغة.

– انظري، صديقكم بلا دين.

غمز نظام الرفاق مبتسماً واعداً بالمزيد.

هزّ الرقيب كتفيه علامة على لامبالاته وانتقل إلى الرفيق علاء، الوحيد الذي لم يعلن الرقيب اسمه الحقيقي لأنه لم يقرأه بل اكتفى بسؤاله:

– انت من صور؟

سأله محاولاً تقليد لهجة يعتقد أنها خاصة بأهل صور، فهزّ علاء رأسه بالإيجاب.

– شو بيقربك الكولونيل فواز؟

يسأل كي يسأل.

– بيي...

لم يصدّق.

– العقيد علي فوّاز؟

أصرّ علاء على الجواب وبلهجة مرتفعة قليلاً:

– إيه بيي.

احتار الرقيب ماذا يفعل بالهويات الباقية بين يديه، كاد من ارتباكه يؤدي التحية العسكرية لابن الكولونيل فواز قبل أن يغادر ويجعل أعضاء خليّة فرج الله الحلو يكتشفون للمرة الأولى أن بينهم الابن

الوحيد لقائد مفرزة طوارئ بيروت، أي الرجل الذي يعطي الأوامر برشّ المتظاهرين بخراطيم المياه وتفريقهم بالقوة أو حتى بإطلاق النار فوق رؤوسهم إذا اقتضت الحاجة. شعر الرفاق بالأمان والخيانة معاً.

6

سكتوا عن إحراج موريس لكنهم لم ينسوا نظام. طالبوه برؤية هويته فتهرّب ممازحاً، أصرّوا تكراراً فبدأ بالتأكيد أنه في تلك اللحظة لا يعرف نفسه إن كان مسلماً او مسيحياً. زادت حشريتهم.

– أنت تهزأ منّا...

قالوا.

ابتسم بمكر وأخبرهم أنه ولد في طرابلس قبالة المرفأ وتعلّم حروف الأبجدية العربية والفرنسية بفضل قراءة أسماء السفن التي تقترب للرسوّ. كان ينتظرها مع رفاقه من شرفات المنازل ليتباروا في تهجئة وقراءة أسمائها بصوت عال، أولمبيا، بنت اسكندرية أو مرسيليا. وكان أحد أقربائه يصطحب الأولاد إلى متن الباخرة حيث يوزّع القبطان عليهم الهدايا وهم مسحورون بلباس البحّارة...

– أوصلنا...

كان للرفيق فرات رأي آخر:

– كلام أدبي، أكمل أكمل...

يوصلهم إلى حَورا وكيف عاش مع عائلة مسيحية في الجبل لأن والده دخل السجن بتهمة التحضير لانقلاب عسكري وانتقل إلى

مدينة حمص في سوريا فمطّوا شفاههم غير مقتنعين. حفظ القرآن عن ظهر قلب في مسجد يدعى جامع البحر، كان الشيخ هناك، سميح الشعراني، يحبّه ويفضّله على رفاقه لأنه كان دائماً أول من يكمل السورة التي يبدأ الشيخ بتلاوتها...

يشطّ من جديد، يصل إلى فصل فيغرق فيه، لا يشفي حشريتهم ولا يعرف كيف يروي حياته.

يعيدونه إلى البداية بسؤال واضح:

- أنت رسمياً مسلم أم مسيحي؟

ما زال مسلماً ولا يريد أن يغيّر، لا يريد أن تبكي أمه الأولى مرة جديدة بعد طول بكائها بسبب أفعال والده. كاد ينحرف مرة أخرى ليروي أخبار ومشاكل محمود العلمي لو لم يرفع الرفاق أصواتهم استنكاراً فاستدرك قائلاً إنه بقي مسلماً في سجلّ الأحوال الشخصية وأخبرهم كيف أن إحدى عمّاته تدقق من وقت إلى آخر بواسطة موظّف تعرفه في دائرة النفوس إذا كان ابن شقيقها نظام ما زال مسلماً سنيّاً.

بدت حكايته منتهية، فإذا به يبتسم غامزاً الرفيق فرات من جديد ومضيفاً أن بحوزة أمه الثانية،

- أمك الثانية؟

رخيمة،

- رخيمة؟

إفادة بأنه مسيحي ماروني.

يهتف المستمعون بأنه يعبث بهم، فيقسم إنه تعمّد مسيحياً في يوم ماطر وأصيب على أثرها وبسبب المزيد من الماء الذي سكبه الكاهن

على رأسه برشح طويل دام أكثر من أسبوع وأنه في المختصر هنا، هكذا، راضٍ.

– هذا كل شيء؟

ابتسم:

– نعم، هذا كل شيء.

بقي أن والده الثاني هو الذي محا على الأرجح الإشارة إلى الدين على هويّته فهو ماهر في كل ما يصنع، و لم يسع نظام إلى الاستحصال على هوية ثانية لأنه أحبّ صورته الفوتوغرافية في الهوية الأولى.

تسلّوا بامتحانه فسألوه إذا كان يؤمن بالله.

لا يعرف تماماً. أخبرهم أن صديقاً له في المدرسة كان قد نجا وحده من حادث سيارة سقطت في الوادي على الطريق الجبلية بين طرابلس وحَورا إذ تعلّق بشجرة فيما تدهور والداه وأخته إلى القعر وماتوا تحطّماً فبقي وحده في هذه الدنيا. كان صديقه هذا يقول عندما يطلب الكاهن من التلامذة الإيمان بالله في صفّ الدين: ما دام الله موجوداً وقادراً على كل شيء فما حاجته الملحّة إلى أن أؤمن أنا به؟ استحسنوا جواب ابن حَورا الذي يعطيهم حجة جديدة مبتكرة على إلحادهم.

أكمل نظام بأن والده الثاني لا يثق بالكهنة لكنه يؤمن بالله بسبب شجر اللزاب الذي يغطّي أعلى الجبال والذي لا ينبت ما لم يحمل بذوره عصفور الكيخن.

مطّوا شفاههم محتارين به وأمضوا السهرة بطولها يتداولون بسيرته ومعانيها. صار لعبتهم لأيام، أخبروا قصته لأصحاب لهم، فاعتبره البعض ثمرة النظام الطائفي والبعض الآخر نموذجاً لما يمكن

أن يكون عليه المواطن اللبناني في مرحلة أولى تقوم على تجاوز الأديان والعصبيات من دون إنكار وجودها، في الطريق إلى بناء المجتمع العلماني القائم على «المواطنية الصرفة» العزيزة على قلب فاسكو.

وثقوا به أكثر بعد حكايته. كان سهلاً خدوماً كتوماً، فأشركوه في اجتماعات مع عمّال مصنع الحذاء الأحمر المهددين بالصرف، ورافقهم في مسيرة تحت المطر، مظلّة واحدة يحتمي تحتها هو ويسرى بطبيعة الحال، ساروا إلى مقر الأمم المتحدة انتصاراً لجبهة تحرير الصحراء الغربية ووادي الذهب. طالب معهم ضاحكاً بالموت للملك المغربي الحسن الثاني. صار في عداد أول من يتلقّون ضغط خراطيم المياه ترشّ بها إطفائية بيروت المتظاهرين لتفريقهم فيتمسك بعضهم ببعض ويبقى نظام آخر من يتزحزح عن وسط الطريق التي افترشوها ويكاد يختنق وحده في بركة الماء الجالس فيها.

كذلك لم يهرب يوم لعلع الرصاص من بنادق «أم سكستين» الأميركية في منطقة البربير. سدّت الشرطة الطريق أمام مقدمة التظاهرة، أبعد نظام يسرى والرفيقات وفاسكو نحو الشارع الفرعي وتقدم هو وفرات وريمون وموريس إلى حيث ينتظرون خراطيم المياه. لم تظهر سيارات الإطفاء. كان هناك فقط هرج ومرج وهتافات وفجأة أطلقت قنبلة مسيّلة للدموع، بكى بعض المتظاهرين و لم يتفرقوا. ردّ أحدهم بزجاجة مولوتوف في اتجاه قوى الأمن فاندلعت لهبة نار سريعة سمعت على أثرها أصوات انفجارات صغيرة فوق الرؤوس. رأى نظام الدم يسيل، انكفأ الجمع إلى الشوارع الداخلية وسط الصراخ والعويل والهتافات، انكشف المصابون المرتمون أرضاً.

– نسحبهم...

قال نظام بعد أن استرجع انفاسه وخمد الرصاص إثر أوامر صارخة من الضبّاط في الجهة المقابلة.

– نأخذهم إلى دار الإفتاء!

اقترح أحدهم.

صرخ آخر:

– ألله أكبر!

ردّ من ورائه كثيرون، كالنار في الهشيم. توقفت الشعارات الأخرى. الله أكبر انطلقت ايضاً من مأذنة المسجد المجاور. تطوّع كثيرون، نظام معهم، انتابه شعور بالمناعة، هو أيضاً. صار يكبّر وهو ممسك بأحد القتلى من كتفَيه يجرّه نحو إحدى السيارات، فرات يطلق الأوامر من الشارع الخلفي ويطلب من نظام أن لا يعرّض نفسه لمرمى النار. حمّلوا ثلاثة قتلى في ثلاث سيارات، ذهبوا بهم إلى مفتي الجمهورية كي يرى بعينه ما يحصل لأبناء بيروت. أنزلوهم في حديقة دار الإفتاء، يهتفون ويكبّرون ويحملون الجثث على الأكفّ، يرفعون أجساد القتلى وهي لثلاثة رجال، اثنان نحيفان سهل حملهما وثالث بدين اضطر حاملوه إلى إنزاله غير مرة ليستريحوا. حتى خرج مفتي الجمهورية إلى شرفة الدار وألقى فيهم خطبة طالبهم في بدايتها باحترام الأموات فقاطعوه صارخين أنهم شهداء. وافقهم الرأي وطلب منهم إنزالهم لإكرامهم بدفنهم وحمّل المسؤولية للحكومة، ولما فتشوا في جيوب القتلى تبيّن لهم أن البدين مسيحي من إحدى قرى البقاع الغربي فسلموا الجميع إلى مسعفي الصليب الأحمر قبل أن يتفرّقوا إلى بيوتهم.

صارت يسرى تسميه غافروش بين قبلتَين وتخبر جميع من غابوا عن التظاهرة عن أفعاله.

تحمّس وصار يسير في الطليعة، يكتبون له الهتافات الزجليّة الحماسية على قصاصات ورق كي يكرّرها المتظاهرون من ورائه. حمل مرة يسرى على كتفَيه وهي ترفع قبضتها في الهواء فظهرت صورتهما في اليوم التالي على الصفحة الأولى من جريدة «المحرّر» تحت عنوان «تظاهرة صاخبة دعماً لمزارعي التبغ وعمّال غندور»، وقد وصلت الصحيفة إلى حَورا بعد أن حملها معه من طرابلس شاب لمح الصورة على صفحة الجريدة التي كان يلوّح بها أحد باعة الصحف المتجوّلين فاشتراها وصعد بها إلى البلدة حيث دارت على معارف وأقرباء توما ورخيمة وهم يهزّون رؤوسهم ويقولون:

«فرخ الديب لا يجوّي!»

مشيرين إلى الكوفية الفلسطينية التي كانت تلفّها يسرى حول عنقها في الصورة، ويؤكدون مرة جديدة أنه لن يترك لتوما صحّة ولا أرزاقاً.

كان بيع الأملاك أسوأ ما يمكن أن يحدث لتوما، لو سأله أحد في عزّ شبابه عمّا إذا كان راغباً في بيع أصغر قطعة أرض يملكها لرأى في الأمر إهانة بحقّه وأجاب صاحب الاقتراح بأنه مستعد لشراء كل ما يملكه هو وبالثمن الذي يحدده. لما تزوج توما و لم يرزق أولاداً صار اقتراح من هذا النوع يدفعه إلى أجوبة جارحة قد تؤذي كرامة محدّثه فانكفأ عنه أصحاب شهوات الشراء كي لا يتبادلوا معه الإهانات. ولما كان ينفد منه المال النقدي، لم يكن يقبل الانكسار أمام هؤلاء الذين كان يزجرهم، بل كان يفضّل الاستدانة فيوقّع على سندات

محسومة منها الفائدة، وقد تخصّص به ثلاثة مرابين كانوا ينسّقون في ما بينهم، لا يرهنون له ملكاً بل يعطونه المال على الثقة. وصار أحياناً، كما يقولون في لغة الدَين، يقلب السندات أي يمدّد مهلة استحقاقها. هكذا كان توما يؤجّل تجرّع كأس البيع المرّة ويتحمّل زيارات الدائنين وتلميحاتهم وخشية بعضهم أن يصبح عاجزاً عن الدفع إذ يستمر في إرسال المال إلى نظام على شكل عملة ورقية جديدة متسلسلة الأرقام يعرف دائماً كيف يحصل عليها لتصل إلى بيروت. لا يأخذ منها سوى ما يلزم لشراء دواء السكّري، والباقي ينفق نظام القسم الأكبر منه على رفاق الخليّة ورفاق الخليّة كانوا دائماً مُفلسين، يحتقرون المال ولا يحملون في جيوبهم منه إلاّ ما يلزم لتنقّلهم أو شراء سجائرهم الفرنسية ذات التبغ الأسمر، لا يقبلون على أنفسهم أن يطلبوا مصروفهم من أهلهم مع أن بينهم أثرياء.

هكذا كانوا سائرين على هواهم، يسخرون من الفتيات العذارى و لم تكن أي من الرفيقات تجرؤ على ادّعاء البكارة خشية الهزء بها. حللوا سرقة بعض الكماليات التي لا تلبّي حاجة فعلية، وسمحوا لأنفسهم باختلاس الكتب من المكتبات التجارية وليس من المكتبات الجامعية. كان بينهم اختصاصيون في هذا الباب يرتدون في الطقس الصاحي معاطف واسعة، جيوبها الداخلية كبيرة، يطلب الرفاق منهم كتاباً بعينه فيعدون بإحضاره في غضون أربع وعشرين ساعة شرط أن يكون من أدبيات الماركسية أو في سيرة غيفارا أو مسيرة ماوتسي تونغ الطويلة أو **أجهزة الدولة الأيديولوجية** للويس ألتوسير. وإذا طلب منهم أحد سرقة **دون كيشوت** أو رواية لفرنسواز ساغان كانت شائعة مثل **صباح**

الخير أيها الحزن، اعتبروا المهمة سرقة عادية يستهجنونها ويرفضون بكل حزم الإقدام عليها. ونظام لا يفضّل شيئاً على القصص التاريخية، **أبو مسلم الخراساني** أو **قلادة الملكة**، يتسلّى بما يتكرر فيها من حصار للقلاع ودسّ السمّ في الكؤوس ورمي الأقارب في السجون. يشتريها من باعة الأرصفة في ساحة البرج، يحب غلافاتها الملوّنة، لكنه انتبه إلى أنها لا ترفع من شأنه في نظر الرفاق فصار يدسّها تحت السرير ليخفيها عن العيون. تحوّل نظام إلى مندوب لمشاريعهم الصاخبة غير السياسية، تحبّه الفتيات وتحاصره يسرى حتى التهى عن حَورا ونسي أهله بين حمص والميناء إلى أن جاءه خبر والده.

رفّول نقل إليه الخبر بعد أن وصله عبر أحد سائقي الاجرة القادمين من طرابلس، أوصله شفهياً إلى صيدلية المنارة، وكان هذا هو اتفاق نظام مع رفّول في الحالات الطارئة، فيرسل صاحب الصيدلية الشاب الذي يساعده في بيع الأدوية، إلى بواب البناية كي يبلغ نظام ما يريد رفّول إيصاله إليه. كانت المهمة مستعجلة وصعبة بعض الشيء على الشخص الأخير أي بواب البناية الذي تردّد ثم حزم أمره. قرع جرس الباب و لم يدخل بل أبلغه بأن عليه الذهاب فوراً إلى الشمال لأن والده في حالة حرجة جداً...

– أي والدي؟

سأله نظام دون تمهّل.

ظن البواب أن نظام لا يصدّق، فأكّد أن الأمر جديّ عارضاً عليه المساعدة. شكره ونزل إلى الصيدلية حيث لم يحصل على جواب شافٍ، فهرع إلى ساحة البرج ومنها إلى طرابلس حيث كانت مراسم

الدفن ستجري بعد صلاة العصر لأن محمود العلمي كان قد عاد منذ فترة وجيزة من حمص إلى بيت الميناء. عاد ليموت.

وصل نظام متأخراً، وقف أمام ورقة النعي الملصقة على مدخل البناية، حاول التقاط أنفاسه قبل أن يدخل على أمّه وإخوته، قرأ النعوة فلم يجد اسمه بين أبناء الفقيد حيث اكتُفي ببلال وخالد، وكانت المرة الأولى التي يلاحظ فيها إغفال أسماء البنات، استعاضوا عن ميسلون بزوجها، صهره، مصطفى حجازي. لو طلبوا منه ترتيب آل العلمي لوضع ميسلون في رأس القائمة. تسكن في بيروت ولم يلتقها بعد، سيبحث عنها فور عودته، فور أن يهدأ.

اقترب منه ابن البواب، كان يعرفه صغيراً يجلسونه شبه عارٍ يبكي في مدخل البناية، لم يعرف نظام، أخبره عندما رآه يقرأ النعي أنهم انتقلوا إلى المسجد للصلاة. سأله كيف مات محمود العلمي. أخبره كيف بدأ يشعر بألم حاد في صدره، ثم استشار الطبيب الذي وصف له دواءً فبدا كأنه تحسّن لكنهم وجدوه ميتاً صبيحة هذا اليوم. وجدوه على الشرفة. سأله عن أولاد الفقيد فنظر إليه متفحصاً وتفحّص مرة جديدة ورقة النعي وأجابه بلهجة محايدة، كأنه أدرك مقصده:

«ابنه الكبير صار مسيحياً ولا يذكرونه بين الأسماء».

وأضاف أنه ليس في البيت سوى النساء.

نظر نظام من جديد إلى ورقة النعي. لن يصعد إلى البيت. أكمل طريقه نحو جامع البحر. وقف بعيداً، قرب مكتب البريد حيث تصله رائحة سوق السمك وأصوات المزاد العلني. يبدو أن النوّ كان قوياً في الليلة السابقة والأسعار مرتفعة. كان الجمع قليلاً في باحة المسجد، بينهم مفلح الحاج حسن بالكوفية والعقال والعباءة والشيخ باسم

الخطيب وآخرون. بدأوا يدخلون إلى الصلاة. رأى بلال وخالد من بعيد. شابان طويلا القامة، أحدهما يضع نظارة. لم يعرف أيهما بلال وأيهما خالد.

دخلوا للصلاة وتركوا محمود وحيداً. تركوه وحيداً في الباحة الخارجية، ممدداً فوق طاولة الحجر، في كفنه الأبيض، تحت ظلال شجرة الكينا الباسقة. وحده أمام زرقة البحر.

نظام يتابع من بعيد، لا مكان له بينهم، شعر بغصّة لكنه رفع كتفَيه، لا يعترفون به، لا يريدونه، سينصرف. انتظر سيارة اجرة أقلّته إلى موقف الحافلات القاصدة العاصمة، أزيل عنها بيتا الشعر حول «الكلب في أيام دولته»، لم يجلس أحد في جواره، كان عدد الركاب قليلاً. عند مرورهم في محاذاة الملاّحات على الطريق البحرية نظر لعلّه يجد أثراً لشرطي السير، الدرّاج القتيل، فلم يلمح سوى زرقة السماء نفسها تنعكس على سطح ماء الملاحات المربّعة.

7

عاد إلى يسرى والى دوّامة الرفاق فاصطحبوه إلى مخيّم تل الزعتر للاجئين الفلسطينيين. أشركوه في برنامجهم السريّ، ما يسمّونه دورة تدريبية مكثّفة على حمل السلاح. كان عليه هناك أن لا يعرّف عن نفسه باسمه الحقيقي لأسباب أمنية كما تهامسوا، فاضطر هذه المرة لاختيار اسم ولو للمناسبة فقط.

– ادعوني نانو.

وافقوا في استعجالهم ولو اعتبروا اللقب أقرب إلى «الدلع البورجوازي الصغير».

هكذا، وبعد معلمات مدرسة راهبات المحبة في حَورا وتلامذتها، وبعد بنات السوق العمومي في شارع المتنبي، بدأ رفاق خلية فرج الله الحلو من الماركسيين اللينينيين الأقحاح يسمونّه أحياناً نانو، بين اسم الغنج والاسم الحركيّ.

لم يسأله أحد عن اسمه في المخيّم حيث لحق بهم عند دخولهم أطفال حفاة وشبه عراة في أزقة المخيّم حيث المياه المبتذلة وصور الشهداء وشعارات الفصائل. كان لافتاً منظرهم وأزياؤهم واختلاطهم جنسَين يقودهم إلى بقعة فارغة نقيب في الجبهة الشعبية الديموقراطية

لتحرير فلسطين، يرسمون حوله نصف دائرة وقوفاً، يعلّمهم تفكيك بندقية الكلاشنيكوف قطعة قطعة ويطلب منهم واحداً واحداً إعادة تركيبها. ينتقلون بعدها إلى تمارين الرماية على مجسّم الجندي الإسرائيلي المصنوع من الخشب المعاكس. انتزع نظام إعجاب الرفاق بدقّة تصويبه المتكررة، ولما شارفت الشمس على الغروب فوق بيوت الصفيح، وبعد اكتفائهم طوال النهار بسندويشات بقيت في الشمس وحام عليها الذباب في انتظار انتهاء الجميع من إعادة تركيب الكلاشنيكوف أخمص، انصرفوا وسط زغردة امرأة وصراخ أخرى حيث وصل الخبر بأن شاباً من العائلة استشهد في عملية فدائية في غور الأردن دمّر خلالها مجنزرة للعدو الاسرائيلي الذي اضطر لاستدعاء الطيران.

يكمل الرفاق الليلة وهم يصغون بخشوع إلى موريس ابن مدير المصرف الواقع في جوار الجامع العمري الكبير، يعزف لهم في صالون بيت أهله على الناي الأفقي مقطوعات لمندلسون أو موزار. يقف وسط القاعة وهم يجلسون القرفصاء أرضاً، دائرة حوله، على السجّاد. لا يجلسون على الكنبات، لا يجرؤ أحدهم على الهمس، وبدل احتساء كؤوس السوس بالثلج او الجلاّب بحبّ الصنوبر التي كانوا يقدّمونها لهم ويتعثّرون في وضعها بين أرجلهم، وخشية إصدار اصوات تعكّر انسجام موريس، كانوا يكتفون بشرب الصمت بين جمله الموسيقية الحنونة ويصفقون باتزان فقط عند نهايتها. لم يكن نظام يعرف متى يصفق فالتزم تقليد الآخرين وعدم المبادرة مهما كان.

مرّ عام بلمح البصر لم يصعد فيه إلى حَورا سوى في رأس السنة عندما تذكّر الجميع أهلهم. وجده توما ورخيمة فرحاً مشعّاً معدياً فسعدا به

واقتنعا أكثر فأكثر بأن الحياة تسير قدماً والمهم أن يبقى في صحّته. وفي مرة ثانية، وبالرغم من حشرية يسرى، لم يجرؤ على التعريج عليهما لأنه شارك مع بداية الربيع رفاق الخليّة في رحلة منظّمة وصلت بهم إلى غابة الأرز فسخروا من صغر مساحتها ومن التغنّي بها وأشعل الرفيق علاء سيجارة وهو جالس في أغصان أرزة لامارتين بغفلة عن حرّاس الغابة. لكن ضاقت الدنيا بهما فقررا يوماً النزول إلى بيروت للاطّلاع على مكان سكنه فعلّمهما رفّول أن يطلبا من التاكسي إنزالهما في المنارة فضاعا هناك بين البنايات وهما يسألان تارة عن نظام أبي شاهين أو عن نظام العلمي ولا يجدانه فعادا خائبَين ولو بدا لهما الحيّ مرتّباً.

عام استفاق خلاله نظام مرتين على مبرّر وجوده في العاصمة فجدّد تسجيله في كلية الحقوق، صمد ساعة كاملة بدت له دهراً وهو يحاول الإصغاء إلى محاضرة في قانون الموجبات والعقود، جمع المحاضرات في القانون الدستوري العام، اشترى المراجع حول المؤسسات السياسية اللبنانية وقانون الأحوال الشخصية، وضعها في زاوية غرفة النوم مع دفاتر جديدة جاهزة لتسجيل الملاحظات. جمع الصعوبة كلها في مكان واحد إلى جانب رأسه، في متناول يده عندما يتمدد فوق السرير كأن حصرها في مكان ضيّق يسهّل عليه المهمة. لكنه كان يصطدم بالكومة ويبعثرها عندما يستيقظ فجراً ويحاول التسلل إلى الشرفة متفادياً إيقاظ يسرى التي ستعكّر عليه، بكلامها المدرار، رغبة التمتع صامتاً بوهج أفق البحر ولمعان الضوء فوق قشرة الثلج الباقية في أعالي جبل صنين. يتعثّر بالكتب ولا يصل مرة إلى الشروع في قراءتها، كان

هناك دائماً موعد طارئ يلهيه، أو زيارة أجّلها طويلاً لميسلون بعد أن استدلّ إلى بيتها بصعوبة.

عند مدخل البناية، في الطريق الجديدة، رأى صورة ضخمة لقائد التنظيم الشعبي يتكلّم على الهاتف، هاتف أسود كبير مربوط بشريط. يبتسم كأن ما يقوله له محدّثه في الجانب الآخر يسرّه. وقد كتب تحت الصورة تعريفاً الأخ عصام فقط. فتحت له الباب فلم يعرفها. نظرت في عينيه وانتظرت مبتسمة. قصّت شعرها قصيراً وصارت بدينة بعض الشيء. ضمّته إلى صدرها، أحسّت بذراعيه يتشبّثان بها.

– أختي!

خرجت الصرخة من قلبه.

شريكته، ميسلون.

جلسا على مقعد واحد، يدها بيده، تغنّجه، تداعبه، طمأنها عن حياته في بيروت، روت له كيف تزوّجت، يؤجلان إنجاب الأولاد قليلاً بانتظار الانتقال إلى شقة أوسع. لا تنهض لتقدّم له القهوة كي لا تضيّع عليها دقائق في جواره. أخبرها كيف ذهب إلى جنازة والده محمود لكنه لم يدخل إلى البيت ولم يقترب من الجامع. أخبرته أنها تشاجرت مع شقيقَيها بسبب إغفال اسمه في النعوة.

– خالد عنيد...

ضحكت وهي تتذكّر كيف نزعت رأس نظام من صور العائلة، لم تفعل ذلك كرهاً به بل تسهيلاً لأمر تحرّره من آل العلمي. كانت تحبّ له ما تعتقد أنه يحبّه لنفسه لكنها الآن لم تعد تعرف شيئاً.

سألته عن عنوانه.

ستزوره قريباً في المنارة حيث كان الرفاق يبحثون في أمر توسيع صفوف الخليّة لوافدين جدد من مدرسة الليسّيه الفرنسية تأثّروا بتعاليم أستاذ شارك في ثورة طلاب باريس عام 68. يرتادون مقاهي شارع الحمراء حيث يكملون مناقشاتهم عالياً غير آبهين بشاب وفتاة يتبادلان الحميميات أو بشاعر يحاول في جلوسه وحيداً استخراج قصيدة النثر من ضجيج المدينة. ينزلون في غارة ليلية على الأسواق، ودائماً باقتراح ترفيهي من نظام، لأكل القشطلية بالعسل فجراً أو ينظمون رحلة إلى الجنوب للمساعدة في بناء الملاجئ حماية من الاعتداءات الإسرائيلية، فيمنعهم الأهالي ويطالبونهم بالمغادرة لأن المربّعات التي يحفرها هؤلاء الوافدون من بيروت لا تشبه سوى القبور. يحرّم الرفاق على بعضهم الاستماع إلى أغاني أم كلثوم، منهم من يحضر خلسة حفل داليدا السنوي ويذهبون في رحلة جماعية إلى هياكل بعلبك لحضور حفلة جون بايز فيقفون على كراسيهم مهللين عندما تبدأ صاحبة الشعر الطويل أغنية «سوف ننتصر». تسري بينهم همسات حول إرسال طرود ملغومة إلى السفارة الأميركية، ويتحدثون عن أموال بدأت تأتي من ليبيا والعراق دعماً للحركة الوطنية كما بدأوا يسمّونها، إلى أن أطلقت يسرى مكتبي النار على نظام من مسدّس الماكاروف عيار «ثمانية محيّر»، فأصابت القديس جرجس في خوذته الرومانية.

كان ليسرى غيباتها، في حيّ النبعة الفقير حيث بدأت أخيراً تنظّم في أحد البيوت ندوة حول حقوق المرأة تدعو إليها بعض نساء الحيّ اللواتي يسرقن أنفسهن قبل عودة أزواجهن من العمل جائعين متعبين. يتطوّر النقاش إلى ضرورة ان تطالب المرأة بحقوقها وأن يشارك الرجل

في الأعمال المنزلية إذا كانت هي تشتغل خارج البيت، فتضحك إحداهن لأنها تخيّلت زوجها أبو حسين يغسل الثياب أو ينشرها بالملاقط على الشرفة ويراه الجيران. لكن يسرى كانت ترفض الخضوع للثقافة السائدة وتبالغ في المطالبة بالمساواة إلى حدّ أنها اقترحت مرّة أن لا تبقى المرأة طوال وقت المجامعة في الوضعية الدنيا بل يمكنها أن تتبادل الأدوار مع الرجل، فتضحك واحدة وتنسحب اثنتان، فتختم يسرى الاجتماع لتعود إلى المنارة.

لم تجده في ذلك اليوم و لم تجد أحداً في الشقة لكنها اشتمّت شيئاً ما، أثراً في الهواء لم يعجبها. اتهمته بأنه يخونها لكنه أنكر فقالت إن قلبها لا يخدعها. صمتت أمام إصراره على النفي وبعد يومين غادرت الشقّة لأن عليها حضور الأعمال التطبيقية في الجامعة وإلاّ خسرت عامها الدراسي في كلية العلوم وحُرمت من تقديم الامتحان. في منتصف الطريق لمع شيء ما في رأسها فعادت أدراجها وفتحت الباب بمفتاحها من دون أن تقرع الجرس فتنشّقت رائحة القهوة الطازجة. توجّهت على رؤوس أصابعها إلى المطبخ حيث وجدت نظام يقف وراء فتاة سمراء جميلة حافية القدمين لم ترها من قبل، يحتضنها ويلعبان معاً بتفوير البنّ والماء على الغاز. صرخت وتراجعت في اتجاه الصالون فطمأن نظام الفتاة ولحق بيسرى ليجدها أخرجت الماكاروف من حقيبة يدها وصوّبته نحوه وهي تصرخ:

على حتى أنتَ؟

كانت قد أصرّت على أن تحصل على مسدس عندما أوصت تعليمات المكتب السياسي بأن الظرف الأمني العام يقتضي اقتناء الرفاق سلاحاً فردياً للدفاع عن النفس، وأنه يمكنهم الحصول عليه من

مكتب التنظيم اللبناني لحركة فتح في مخيّم شاتيلا للاجئين الفلسطينيين لدى المدعو أبو خالد اثينا تيمّناً بعملية قادها في العاصمة اليونانية ضد مكاتب شركة طيران العال الإسرائيلية.

قالت يسرى وهي تكاد تنفجر غيظاً إنها تحبه وإنه خائن وتلعثمت باتهامات أخرى مثل أنه بورجوازي صغير لا يرى في المرأة سوى جسدها والمتعة التي توفرها له وأن الرجال جميعهم من طينة واحدة.

ظن نظام أنها تكلمت وأفرغت ما في جعبتها فلن تفعل المزيد، لكنها انطلقت من جديد. بدت عاجزة عن احتواء شعورها بالمرارة يضاعف منه وجود الفتاة الغريبة كشاهد وسبب لهزيمتها المتكررة. تتلفّظ بعبارات مفككة، تهم ونعوت مبعثرة والمسدّس يتأرجح في يدها. عبثاً حاولت أن تصنع جملة مفيدة صارخة ترمي بها غضبها على رأس نظام فأغمضت عينيها وصوّبت المسدس نحوه. قفز لا شعورياً باتجاه باب الشرفة، أفرغت رصاصاتَين وهي مغمضة العينين بالرغم من تشديد المدرّب الفلسطيني، على أنه لا يجوز للرامي إغماض عينيه في أي حال وأن هذه الإغماضة قد تكلّفه حياته، إضافة إلى أن الماكاروف ليس مشهوراً بدقته فهو أحياناً يبصق الرصاصة بصقاً.

ضاعت إحدى الرصاصتين، بحث عنها نظام طويلاً في ما بعد فلم يجد لها أثراً، ربما خرجت من باب الشرفة.

الثانية أصابت القديس جرجس، قديس أولغا.

لما فتحت يسرى عينيها بدت هلعة من فعلتها كأن صوت الانفجارَين أيقظها، كأن شخصاً غيرها أطلق النار للتوّ. كان إحساسها بفداحة ما أقدمت عليه أقوى من شعور نظام بالتعرّض لإطلاق رصاص. بدا كأنه مجرد تكملة لقسوة الكلام. انتبه للفتاة الأخرى، ناداها قائلاً إن

كل شيء على ما يرام. أعادت يسرى المسدس إلى حقيبة يدها، أعادت تجميع قواها وجلست مستقيمة الظهر على الكنبة وهي مستعدة لتلقّي اللوم والعقاب. اقترب نظام منها وأخذ المسدس من حقيبتها. ارتاح الجوّ قليلاً فخرجت الفتاة السمراء إلى الصالون تنظر حولها متفقدة الأضرار. إنها أردنية تدرس في الجامعة الأميركية وإذا عرف أهلها بما حدث فسيستدعيها والدها على متن أول طائرة متوجّهة إلى عمّان. كانت تقصد شقّة الأستاذ الأميركي، المستر باركر، لمراجعته بشأن اختيار أرصدتها، فأخطأت ودقت باب نظام الذي دعاها لاحتساء القهوة، فأصرّت هي على تحضيرها وأصرّ هو على مساعدتها، وهذا كل ما في الأمر.

بقيت يسرى صامتة تنتظر حتى انصرفت الفتاة الأردنية فرحة بخروجها سالمة من المعمعة فدخلت غرفة النوم. جمعت فساتينها الطويلة وكتبها وأسطوانات الجاز وأغاني القلب الفرنسية فحملتها وغادرت الشقة منكوبة بأوهامها. قبل أن تغلق الباب وراءها اعتذرت عن فعلتها، التفتت إلى الأيقونة وهمست لنظام بصوت جديّ، محاولة التعويض بعض الشيء، إن لديها صديقة رسّامة وخبيرة بالترميم من رفاق المدرسة تدعى جَنان سالم. لكنها أضافت سهماً أخيراً من الخارج:

– ولا تنس أن تتحرّش بها...

لم توصه أولغا عند رحيلها إلا بالأيقونة، أمّها حملتها معها في ترحالها الشاق، علي سويدان أوصاه بها أيضاً وقال إنها لا تقدّر بثمن، حرص نظام دائماً على تنبيه الرفاق إلى عدم المسّ بها. كان واثقاً في البداية

من ترفّعهم في قضايا المال، لكنه كان تعففاً جماعياً فقط لا يمنع الاختلاسات الفردية، إذ اكتشف نظام أن أغراضاً كثيرة فُقدت من الشقة لا فائدة ثورية ترجى منها. قبعتا قشّ مزيّنتان بشرائط ملوّنة وشمسية، فيل من العاج الأسود مرفوع الخرطوم محفور الظهر تُرمى فيه الأقلام. كما أضاع السامو فار لأكثر من أسبوع ليعود ويظهر ذات يوم في مكانه المعتاد، فتأكد ربما أن السامو فار ليس مصنوعاً من الفضّة كما كان أُبلغ الرفاق واحداً واحداً، فمن ذهب به ربما عرضه على خبير أكّد أن ليس فيه من الفضّة قيراط فأعاده إلى مكانه.

مار جرجس بقي في مكانه معلقاً ينظر إلى البحر.

تغاضى عن الطلق الناري في البداية، إلى أن انتبه إليه الجميع، وكانت ملاحظة أي منهم لثقب القديس جرجس مناسبة للكلام عن يسرى التي غابت عن اجتماعات الخليّة وبدت غريبة الأطوار لا تتصل بالرفاق وإذا التقت بهم تختصر الكلام. وعادت إلى الشقة مرة واحدة فقط بعد إطلاقها النار، عادت هادئة مستسلمة لقلّة حظّها، جاءت لتردّ لنظام ساعة الجيب التي استعارتها منه، الساعة نفسها التي وقعت منه في الملاّحة وهو يهرع إلى الشرطي القتيل فتوقفت وأصلحها أو قال له الساعاتي في ساحة البرج إنه أصلحها. كان توما قد أخبره يوم أعطاه إياها بأنها هدية من عمّه يوم عاد من البرازيل وأورثه الكثير. أخبرته يسرى أنها في غضبتها منه رمت الساعة أرضاً فانكسر زجاجها لكنها لا تزال تعمل وهي انتقمت بطريقة أو بأخرى من كل ما لديها من أثره وتعتذر عن كل ما بدا منها تجاهه. كانت من اللطافة بحيث وجد نظام نفسه مضطراً إلى تطييب خاطرها وحتى مراضاتها لكنها

وجّهت اللوم إلى نفسها وتنبّأت بأن المرض الذي فيها لا شفاء منه. لما انصرفت ردّت له مفتاح الشقّة وقبلته ثلاثاً على خدّيه. سألته إذا كان قصد صديقتها لترميم الايقونة. تريد تصفية ذمّتها، إصلاح ما أفسدته. دلّته على عنوان صديقتها، «شارع لبنان، فوق محل بيع الزهور»، وودّعته بحرارة كأنهما يلتقيان للمرة الأخيرة.

خشي عودة أولغا المفاجئة، غلّف الأيقونة بعناية وحملها، عريضة، تحت إبطه وصعد بصعوبة في سيارة أجرة أشبعه سائقها أخباراً لم ينسبها لأحد. يعثرون كل يوم على جثة مجهولة الهوية مرمية هنا أو هناك، أسعار البيض واللحم ترتفع.

– العترة عالفقير!

أنزله في شارع لبنان، دفع له نظام أجراً مضاعفاً.

وصل إلى محترفها هكذا، بلا موعد.

شقراء، تربط شعرها خلف رأسها، طويلة القامة، تضع نظارة بيضويّة رقيقة. جميلة وواثقة من جمالها.

8

جَنان سالم.

واقفة وسط لوحات زيتية بدون إطار، قماش مشدود، رسوم مكتملة أو قيد الإنجاز موزّعة في أرجاء القاعة، معلّقة، موضوعة أرضاً أو مُسندة إلى الجدار، بعضها مرفوع على كراسيّ، متشابهة الألوان، كبيرة ومتوسطة الحجم. موزعة بحيث يمكن للناظر رؤيتها جميعها دفعة واحدة، كأنما ترسم مشهداً مجزّأً على عدة لوحات. الصالة غارقة في ضوء النهار الغزير الذي يقتحمها من الفتحة الزجاجية العريضة. نباتات كبيرة واقفة صفّاً في أوعيتها الفخارية. محترفها يطلّ على الجهة العمياء من بنايتَين تزيدان عنه ارتفاعاً وتطلان على الشارع من الجهة المقابلة فتحجبان جَنان عن أي أفق سوى لوحاتها.

نظرَت إليه بلا تركيز، ترتدي فوق ثوبها مئزر رسّام ملطّخاً بمختلف الألوان، وصليب متوسّط الحجم من ذهب يتدلى من عنقها.

– يسرى مكتبي رفيقتك في مدرسة لويز فاغمان أرسلتني إليكِ.

ابتسمَت.

– تعرف يسرى مكتبي؟

– معي لوحة أريد ترميمها.

أشارت إليه بيدها أن يجلس في الكنبة الوحيدة بمقعدَين كما رفعت إصبعها للقول إن انتظاره لن يطول. لا تقطع تركيزها، تريد إكمال ما كانت تقوم به كأنه دخل عليها في منتصف احتفال عليها إنهاؤه، وسط جملة تريد إتمامها.

ترسم اللوحات معاً، ضربة هنا ثم تتراجع، جراح صغيرة تكسو ذراعها، من المعصم صعوداً، تغطّيها بقميصها الفضفاض. تغيّر الريشة، تطيل تأمّلها، تمزج لوناً بها، تقترب من أخرى، تضيف تفصيلاً لا يكاد يُرى.

سماء غاضبة في جميع اللوحات، سماء بلون الغيوم، ألوان داكنة متقاربة، أخضر غامق حشيشيّ يتزاوج مع الرماديّ المائل إلى القَتامة. الرمادي في كل أحواله، في كل إمكاناته. لكن هنا وهناك، مرة في اللوحة أو مرتين على الأكثر، أحمر قانٍ بحجم ضئيل وفاقع مثل خيط يرسم ثنايا نافذة خشبية تفسّخت ألواحها الصغيرة. نافذة تتدلى منها زهرة الأضاليا بألوان ميتة على شرفة منزل قديم. أو بقعة بلون الدمّ على بلاط الرصيف المرسوم بدقّة متناهية، حتى ما برته منه الأقدام. بقعة تكوّنت من تسرّب قطرات متوالية من قسطل الصرف الصحي المثقوب الذي يتدلى مكشوفاً، بلون واجهة البناية وعلى طولها. دم يقطر من البيوت، يفيض من مسامها، ضروف ضاقت بسوائلها. الشوارع مكتظة بسيارات باهتة الألوان، هياكل فارغة منقولة أشكالها بمنتهى الدقّة. الواجهات، الأبواب، كل شيء مكفهرّ وواضح المعالم، زوايا الشوارع، شوارع بيروت، نافرة. لكن أجسام المارة غائرة ووجوههم غامضة، خيالات أكثر منها أجساداً. تتعمّد جَنان عدم إكمال كل ما يدبّ على قدمين، كل ما هو بشر.

لم تضف شيئاً يُذكر على لوحاتها في الدقائق القليلة التي طلبتها من زائرها غير المتوقع قبل أن تتفرّغ للاهتمام به. ربما كانت بحاجة فقط لتمرير ريشتها هنا وهناك لتؤكد على تفاصيل كانت رسمتها قبل دخول نظام. تلامسها بريشتها فقط لتثبّتها.

لم يجلس. بقي واقفاً يحمل الأيقونة تحت إبطه، يتأمل الرسّامة، تشعّ منها جاذبية لا يمكنه مقاومتها. كانت واثقة، واقفة، مكتفية. رمت ريشتها والتفتت إليه، عيناها غريبتان.

نزع غلاف الورق الأبيض عن الأيقونة، أسندها إلى الأرض وأدارها كي تراها. دُهشت، انجذبت نحو الأيقونة، اقتربت لتلمسها. تأمّل يديها الناعمتَين، النظيفتَين بالرغم من ألوانها وزيوتها. تمرّر أصابعها حول الفجوة عند رأس القديس جرجس، على مستوى أذنه، تتحسّسها بألفة تأكيداً لشيء ما، كما يتحسّس الطبيب كتفاً مخلوعة أو زائدة ملتهبة.

يداها، أصابعها الطويلة المتناسقة، كل ما تفعله، كل ما هي عليه، لون بشرتها، مئزرها، لون السماء الظاهر من الزجاج خلفها، مقعدها الوحيد المصنوع من جلد أسود قديم متفسخ، كل شيء كان كاملاً ومكملاً لصورتها التامة.

أنزلت إحدى لوحاتها عن سيبة الرسم ووضعت أيقونة مار جرجس مكانها. ابتعدت عنها وتراجعت في اتجاه نظام كي تتأملها، تأسفت للإصابة:

– حرام...

كادت تلامسه وهي مديرة له ظهرها كأنها نسيت وجوده. لم تعره اهتماماً. تسأله وهي لا تنظر إليه عن سبب الفجوة في رأس مار

جرجس، فيقول إنها من طلق ناري. لا تنفعل، لا تُفاجأ.

– من مسدس ماكاروف عيار ثمانية محيّر.

كأن نوع السلاح قد يفيدها في معالجة الإصابة.

صاحبة الأيقونة مسافرة، في لوس أنجلس، ربما تعود قريباً وعليه إصلاح الضرر. قدر الإمكان.

يوسّع التفاصيل على عادته.

نظرت في عينَيه للمرة الأولى.

عيناها كل عين بلون.

مشى طويلاً تحت تأثير سحرها قبل أن يجد سيارة تاكسي تعيده إلى البيت، كتب رقم هاتف بيت أهلها على يده، خاف أن يمحى فاستعار قلماً من السائق الذي كان يحلّ به كلمات متقاطعة في زحمة السير، ونقل الرقم على قفا بطاقة هويته.

أصابه منها مسّ لم يصبه من قبل.

استيقظ في اليوم التالي وكأن حضورها معه لم ينقطع حتى وهو نائم.

لم يستوحش تمضية الليل وحده في السرير، أطال تقلّبه، يراجع سيناريوهات من كل نوع تؤدّي جميعها إلى استسلامها له متنهدة، مستجدية بنظراتها، هناك وسط لوحاتها وشوارعها القاتمة والفتحة الزجاجية المطلّة على جدران البنايات الملساء. في كل احتمالات فوزه بها كانت تضع صليبها الذهب، تعوّض بطراوة جلدها وحرارة عناقها عن بقايا الطلاء الذي يعلو مئزرها. ألوانه من ألوان لوحاتها، داكن مع نقاط حمراء متفرقة، لوحة إضافية من لوحاتها المتشابهة. كان ما

إن يصل إلى خاتمة ما يرويه لنفسه ويتقلّب في صوره واحتمالاته أو ما يتخيّله من سلوك من طرفه يغويها، حتى يعود إلى البداية ليستأنف رغبته ولذّته في تأكيد استسلامها.

أحسّ أمام المرآة للمرة الأولى، في صباح اليوم التالي، أنه بحاجة للاعتناء بنفسه، تغيير قصّة شعره. نظر إلى أصابعه، إلى أظافره، كشفت له نواقصه وهي بالكاد اهتمّت به، بالكاد رأته. فجأة صارت لجَنان عينٌ خاصة ينظر من خلالها إلى هندامه. استحمّ مرتين في ذلك اليوم ولو أنه لم يكن في وارد اللقاء بها، اشترى ثلاثة أنواع من العطر الرجّالي. يسرى ورفيقات الخليّة يحرّمن العطر، ارتمين عليه كما هو، لا بل فرض الرفاق عليه ما يعتبرونه إهمالاً للمظاهر. أعطى بواب البناية ثياباً اعتقد أنها لم تعد تناسب أناقته. سأل عنها يميناً ويساراً حتى أوصلته ديما إلى صديقة لها في معهد الفنون أخبرته أن جَنان معروفة هناك لأنها تركت الكلية قبل أن تحصل على دبلوم في الرسم، كانت متفوقة لكنها تتشاجر باستمرار مع الأساتذة فغادرت من دون رجعة.

زادت هذه الأخبار من سحرها فصار يعدّ الأيام قبل انقضاء مهلة الأسبوع التي طلبتها لتعمل على القديس جرجس الذي افتقده الرفاق أيضاً. سألوه عنه، فأجابهم بصيغة الجمع ضاحكاً:

– إننا نُصلحه...

عاد إليها سيراً على الأقدام، كان الموعد محدداً في الحادية عشرة، قلبه بدأ يخفق مع اقترابه من شارع لبنان وهو مرتد أجمل ما تخيّله يلفت نظرها.

لم تنتبه أو ربما افتعلت اللامبالاة عندما فتحت له الباب ورمت عليه تلك النظرة المتوقّعة، وكلمتين خافتتين:

– آه، هذا أنتَ؟

اعتنت بهندامها هي أيضاً، ربطت حول عنقها منديلاً من الحرير بلونَين يتناسبان مع لونَي عينيها. لا بدّ أنها تعبت للعثور على البنيّ والأزرق مجتمعَين في منديل واحد.

اقتصدت في الكلام. بذلت قصارى جهدها لترميم الأيقونة ولا يمكنها فعل المزيد لأن ثقب الرصاصة كان واسعاً. خوذة القديس جرجس استعادت شيئاً من بريقها، لم تتوسّع في الكلام عنها. على كل حال لم يكن يصغي ولا ينظر إلى رأس القديس، كان يتابع حركات يديها.

سكتت فعرض عليها مالاً مقابل ما فعلته عساه يفتح كوة في جدار لامبالاتها. رفضت. بدت مصرّة على إنهاء كل كلام، على وضع حدّ لكل محاولة يقوم بها. طلبت منه فقط أن يسجّل لها اسمه وعنوانه من أجل محفوظاتها، كما قالت. امتدح محترفها، لم يعرف ماذا يخترع، لم يشعر مرة من قبل بهذه القوة في مشاعره وهذا النضوب في مخيّلته. ربما كان نظام العلمي الذي لم يبذل في حياته كبير جهد لإغراء الفتيات يتعرّف للمرة الأولى على ما يسمونه الحبّ الحقيقي. حاول سؤالها عن موضوع رسومها المتكرر فلم تستجب، بدا كأنه متحرّش يرفع الكلفة بلا مبرر مع شخص لا يعرفه جيداً. قال لها في النهاية إن ثوبها جميل، فأغلقت الكلام بابتسامة.

لفّ الايقونة من جديد بالورق الأبيض، اعتذر منها لأنه «أخذ من وقتها» فابتسمت. تمهّل و لم يحدث شيء، كأنها قطعت تنفسها، تتابعه يلصق الورق فوق الأيقونة، تريد رؤية نهاية العملية وخروجه كي

تنصرف إلى عمل آخر أوقفها عنه. تدمن ما تفعله. رسومها، ألوانها، البيوت والشوارع تلتهمها.

حمل الأيقونة وتوجّه نحو الباب فبقيت واقفة لا تتحرك. وصل إلى الباب، فتحه وخرج، سمعها تغلقه بهدوء مقصود للحؤول دون إصدار أدنى ضجة ممكنة وهو ينزل الدرج. ينزل ببطء، كان مغلوباً، مثل أول وآخر صفعة على خدّه من والده محمود العلمي يوم عاد من عند بائع البوظة في الميناء وقد أطعم وجهه وثيابه أكثر مما أكل بفمه.

رجع إلى بيت المنارة حاملاً تحت إبطه القديس جرجس مضمّداً وفجوة في قلبه، فجوة لم يعرف ألمها من قبل.

لاحظوه في الأيام التالية، ظنّوا أن جلوسه منتقلاً صامتاً هو من آثار فعلة يسرى، فادّعى أنه قلق على والده بسبب مرض السكّري، والده الباقي في حَورا. فتنه شارع لبنان، احتلت جَنان دائرته القريبة، الحيوية، ولم يعد بحاجة إلى الرفاق كي يملأوها ليلاً نهاراً. لا يجرؤ حتى على استعادة سيناريوهات استسلامها له بل تراجع إلى مجرد تدبير خطط وذرائع متينة لدقّ باب محترفها من جديد. لن يعرف ماذا يقول على الهاتف إذا اتصل بأهلها. لو أخذت منه مالاً لكان عاد إليها بلوحة مهما كانت، يخرّبها بيده كي ترمّمها.

عاد إلى المرآة، نظر إلى نفسه. ربما هو ليس من عالمها.

صبيحة يوم في منتصف الأسبوع ناداه بواب البناية وهو يخرج من الباب كالعاصفة. ساعي البريد وضع له رسالة في علبة البريد. قال في نفسه إنها لأولغا أو من أولغا فأكمل اندفاعته باتجاه الشارع لكن شيئاً، أملاً يغلق به فجوة قلبه، أعاده إلى العلبة.

«نظام العلمي، بناية كذا، شارع كذا، منطقة المنارة، بيروت...»
حرفياً، العنوان الذي تركه لها.

ارتبك عند فتح المغلّف ووصل أخيراً إلى جملة وحيدة بخطّ جميل، خطّ رسّامة:

«عملت على مار جاورجيوس خمسة أيام، ألا تدعوني للعشاء مقابل تعبي؟»

لا اسم ولا توقيع.

لو تبصّر نظام في أحاسيسه الماضية لأدرك أن دعوة جَنان المتجددة له تُشبه المرة الثانية التي شرّع فيها توما باب البستان أمامه. باب الجنّة يفتح مرتين.

ترك علبة الرسائل مفتوحة، حمل الرسالة مفتوحة إلى المصعد حيث قرأها عشر مرات في ثوان فإلى الشقّة حيث تلبّك في فتح الباب إلى الحمّام بعصبيّة إلى خزانة الثياب إلى المرآة طويلاً إلى العطر إلى شارع لبنان. كانت تتوقع قدومه، ضحكا عالياً وانفتح وهج جديد في حياة نظام.

9

رافقته في الأمسية نفسها إلى الفلاينغ كوكوت حيث كانت بريجيت باردو قد تناولت العشاء قبل أسبوع بدعوة من نجل رئيس الجمهورية. وافقت جَنان على الخروج من البيت على غير عادتها. تتحاشى الزحام والضجيج، وهو احتار هذا المساء كيف يُسعدها فراح يشيع المزاح والألفة حوله، يهرّج، يُضحكها بأخبار حَورا وأشقيائها، يتبادل المجاملات مع شاب وفتاة جالسَين مثلهما يتناولان العشاء، يدعوهما لاحتساء القهوة معهما. لا يشبع من الناس. هي بقيت صامتة مهذّبة لكنها مع مرور الوقت بدت قلقة، مستعجلة للعودة فرافقها إلى المحترف حيث استرجعت هدوء نظراتها بعد أن وقفت لدقائق أمام لوحتها المثبتة على السيبة. أضافت شيئاً على سمائها قبل أن تودّعه بلطافة. خاف من محاولة تقبيلها.

تعلّق بها فزاد تسامحه مع الآخرين وزادت نزعته للإنفاق. كانت دعوته لها مفتوحة للخروج، هي تفضّل محترفها وهو يخترع لها كل يوم سبباً لكي تحبّه. صارت واحته، يخرج إليها كل يوم، لا تقتني هاتفاً، محترفها في البناية التي يملكها أهلها، يسكنون في الشقة فوق المحترف،

تقول إنها لا تطيق الهاتف، صدمة الخارج ترنّ فجأة فتقتلعها مما هي غارقة فيه.

– تشتاق إليّ تأتي إليّ...

الوصول إليها لم يكن دائماً سهلاً:

– أحبّ الشعور بأنك تدور حول محترفي قبل أن تصعد، لو تدور مرة أو مرتين، من خلف ملعب الكرة الطائرة نزولاً إلى المكتبة وتعود من جهة شركة التأمين...

سقط فيها سقطة واحدة مدوية.

كان يدور في الحيّ كما تريد قبل أن يدخل باب البناية، يدور مرتين وثلاثاً، يرمي عليه السلام راهب يسوعيّ محنيّ الظهر يخرج من الباب الخلفي لمعهد الدراسات الشرقية. بعد مروره الثاني ينظر إليه باستغراب عامل التنظيفات في بلدية بيروت. يفعل ما تحب جَنان أن يفعله بانضباط، من دون اختزال، كأنها تراه وتسعد بما يفعله.

يسرّب متأخراً إلى رأس بيروت، متحمساً في الغالب، مشحوناً بجَنان، فيخبرونه بأن الزوجَين المدرّسَين، جوناثان وبرباره باركر المقيمَين في الطابق الثاني من البناية واللذين جذبتهما الجلبة في شقة الروف، صارا ينضمان بانتظام إلى الرفاق، ما إن يتحرران من واجباتهما التعليمية. كانا يقيمان في بيروت من دون أولاد فيحضران مع ابتسامتهما الأميركية العريضة. كانا من اللطافة بحيث لقيا معاملة رحبة حتى من الذين كانوا يعتبرونهما بما لا يقبل الجدل جواسيس لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. يقبلان كل ما يوجّه إليهما ولا يتعبان من التعرّف إلى الناس ومن توزيع مطبوعاتهما حتى على هؤلاء الذين يشهرون إلحادهم بلا مواربة، أوضحا أنهما ليسا من شهود

يهوه بل من الكوايكرز وأنهما يحترمان جميع الأديان والمعتقدات ويعتبرانها متساوية.

أخبروه أيضاً أن شقيقته ميسلون زارته هي وزوجها، مصطفى حجازي.

حفظوا اسمه لأنه يصافح الجميع ويطيل التسليم ويكرّر التعريف عن نفسه بكل ثقة.

أعجبوا باسم شقيقته، كأنه اسم حركي اختير بعناية، يغارون منه هم السئمون من أسمائهم بالولادة.

فوجئوا بوجودها:

– لديك أخت؟

– وشقيقان لا أميّز واحدهما من الآخر...

صار يحبّ كل ما تحبّه جَنان. يرافقها إلى القدّاس الأرثوذكسي الذي لا تنتهي فصوله ركوعاً وقوفاً والقليل جلوساً يوم الأحد حيث تغمض جَنان عينيها طوال الذبيحة الإلهية، كأنها ترى ما لا يراه الآخرون. يساعدها في مزج الألوان بصبر ودقة، يضرب ريشة تجريبية، تعلّم كيف يشدّ لها القماش، يتطوّع دائماً للنزول إلى المكتبة وشراء دفاتر الرسم أو أنابيب الألوان، توصيه خصوصاً على الأسود والأبيض، تستخرج منها الرمادي، لونها الوحيد.

واظب عليها فصارت تنتظر قدومه كل يوم، جعل من لقائه بها طقساً. ينزل من البيت في التاسعة صباحاً، يدخل باكراً في جوّها، في تفرّغه للقائها، يجتاز بيروت من غربها إلى شرقها، يسير بعكس خطّ سير التظاهرات وهو يصفّر، يبتسم للمارة، هم ذاهبون إلى أشغالهم

وهو إلى سعادته، لا يتفادى زحمة الأسواق الصباحية، لا يصل إلى بابها إلاّ وبيده وردٌ أو حلوى. يدخل على رؤوس أصابعه كي لا يعكّر تركيزها، تبتسم من طرف شفتَيها ما إن تراه داخلاً متهيّباً، تدّعي الصمود قليلاً أمام لوحتها المرفوعة على السيبة أمامها، ينتظر واقفاً متحفزاً حتى ترمي ريشتها وتهرع إليه فيحملها ويدور بها وهي تعانقه. كل صباح اكتشاف. صار حاجتها وصارت احتفاله اليومي، يتفقان على أن يقصدا يوم الأحد مسبح اللونغ بيتش أو يوم الخميس شارع الحمراء لتختار له ثياباً. يخططان لرحلات أبعد ولتعريف واحدهما الآخر بأصحابه، «هذا ستحبّينه» و«هذه ستعجبك» لكنهما لا يفيان بأيّ من وعودهما، يكتفيان ببعضهما، يمضيان النهار كاملاً فوق المقعد الجلدي لشخصين وحوله. يتحادثان بهدوء. تخبره أنها تعمل أحياناً في ترميم الرسوم في الكنائس، ينصبون لها سيبة من الحديد فتصعد إلى السقف حيث تمضي أياماً وحدها فوق تعيد إلى وجوه القديسين ما أسقطه مرور الزمن من بريق. لا تستكشف عالمه، لا تسأله عن أصوله وفصوله، لم يصطحبها إلى شقّة المنارة، أخبرها عن المفاتيح الموزّعة على الأصحاب فخافت من الفكرة، سألته مرة أو مرتين فقط عن معرفته بيسرى مكتبي زميلة صفّها في المدرسة الألمانية التي لم يكن يعجبها العجب من صغرها، والتي انقطعت عن رؤيتها منذ غادرتا المدرسة. لم يخبرها أنها هي التي أطلقت عليه النار فأصابت القديس جرجس.

جاء يوماً و لم يجدها.

حمل إليها قالب حلوى على شكل قلب أحمر محشوّاً باللوز

والسكّر طلب من البائع أن يكتب فوقه اسمها بالكريما.

لم يصعد إلى الطابق الأعلى ليسأل أهلها عنها.

اختفت لأيام تعذّب فيها نظام ثم ظهرت ذابلة سقيمة فاصطحبها في نزهة في الجوار كما يُخرج المريض في نقاهته إلى ضوء الشمس، لا تفسّر غيابها ولا يسألها، ثرثرا وضحكا فاستعادت شيئاً من رونقها.

هكذا دخل نظام متاهة جَنان، تغيب، يومين غالباً أو أسبوعاً بأكمله أحياناً، تنذره فجأة بأن من الأفضل ألا يلتقيا، تنطوي على نفسها فينكفئ على نفسه في شقّة رأس بيروت. أيامه معلّقة، تغيب عنه فيحاول الكتابة إليها، هي طلبت منه، تقول إن مفتاح قلبها الكلمات، عبارة جميلة مناسبة لمزاجها وتستسلم. ينتهز فرصة فراغ الشقّة ليتمدّد فوق السرير ويبحث عما يقوله فلا يجد سوى كلمات أستاذ اللغة الفرنسية في حَورا. يضحك منها، يضحك من نفسه ويقرر أنه ليس مؤهلاً للكتابة. يتأكد من ذلك أكثر عندما يراجع بلا ملل الرسائل المقتضبة التي كانت تبعث إليه بها إلى شقّة المنارة بالبريد، في غيباتها الأولى. قصاصات ورق أو صورة كتب على قفاها جملة لن ينجح يوماً في ابتكار ما يشبهها:

«أعود إلى عيون المارة، إلى أزهار الشوارع البنفسجية، أنا السمكة خارج مائك، لا تتأخر عليّ».

تمرّ بفترات نشاط قويّ، خصوبة جارفة، تدوم أربعة أو خمسة أيام، ترسم نهاراً وساعات طويلة من الليل. لا تشبع، لا تضجر، يقلق أهلها عليها فتنزل أمها تتفقدها، تجدها وسط لوحاتها فتتركها على سجيّتها ولو أن الحماسة المفرطة لا تروقها. تدعوه جَنان للبقاء معها، تبقى واقفة والريشة في يدها حتى انبلاج الفجر أحياناً، ترسم، لا بل

تضع هذه اللمسات التي لا تنتهي، ثم تستدير نحوه فجأة وتقول:

– إن شيئاً ما بين جسدي وروحي يعتبرك مميزاً، حملك عليّ خفيف وثقيل في آن واحد.

تشبّهه بالمظلّة، تقول إنها تشعر بأن بإمكانها رمي نفسها من مكان عال إذا كان معها، إذا كانت متأكدة أنه يحبّها، تحطّ من دون أن تتأذى لأنها ستتمسك به.

ترسم، يأكلان، يتحابّان بشغف ثم يتوقف كل شيء فجأة، لا حياة، ترغب في الاحتجاب من جديد، إذا أصر على البقاء يمضي وقتهما أبيض جافاً شبه صامت، لا تجدي محاولاته فيه نفعاً.

ينسحب، يترك الرفاق بحالهم ويزور ميسلون من جديد، تبلغه هذه المرة أن عليه الذهاب إلى خالد وبلال إلى طرابلس للاجتماع بهما بخصوص وفاة والده.

ضحك:

– الورثة؟

– لم لا؟ أنت مثلهما ابن محمود العلمي. لا تتساهل.

وقبل أن يغادر تقول له بعينين حنونتَين:

– هذا بيتك يا نظام، عُد متى شئت.

يعود إلى شارع لبنان، يدور في الحيّ، يدخل إلى البناية، يجد باب محترف جَنان مفتوحاً ولا يجدها في الداخل، تصعد أحياناً إلى شقة أهلها، تستحم أو تأكل. استأنس عنها بلوحاتها، بكتب الرسم الملوّنة والصور الرائعة الألوان، ينتظرها بهدوء. مرّة، قرابة الظهر سمع صوتها، ليس صوت الموجوع بل الغاضب الذي يخرج ما في قلبه،

تصرخ في وجه امرأة. ترفض تناول الغداء، لا تتحمّل أهلها:

– خصوصاً أنتِ...

تقول لأمها.

لم ينتظر نزولها بل ترك لها فوق كنبة الجلد السوداء باقة الورد التي اشتراها من عند بائعة الأزهار البكماء المبتسمة في أسفل البناية وخرج هائماً.

يزداد شعوره بالعجز فلا يبقى أمامه سوى انتظارها كي تعود إلى طبعها، إلى تشبثّها به:

– أريدك هنا...

واقفاً مستنفراً وراءها، صامتاً لا يكلّمها ولا يداعبها، ساعتين وثلاثاً، عاقلاً راضياً لأنها تشعر بتوتره إذا فقد صبره أو شعر بالحاجة إلى الخروج:

– إنك ترسم معي، أفقد تركيزي ما إن تتململ.

بدأ شيء ما يتغيّر في رسومها، الأحمر القاني الذي كانت تخصّ به بعض التفاصيل النادرة في اللوحة راحت مساحاته تتسع لتطال طبقة من طبقات الأفق، قسم أكبر من جدار أو نافذة. أما الناس، العابرون التائهون، فبقوا على غموضهم وامّحاء تفاصيل وجوههم وأجسادهم، لا ذكور ولا إناث، مجرد أشكال بشرية على قائمتَين.

في يوم من الأيام، سوف تصنع من لوحاتها المتشابهة هذه معرضاً. «المدينة الموقوفة».

لم يكونا طوال الوقت في تركيز ورهبة أمام رسماتها. كانا يلهوان، عندما تكون في يوم فرحتها، راضية عن ألوانها وتفاصيلها. تصبح كنبة

الجلد الأسود ملعباً لهما يتضاربان فوقها بالوسادات الكثيرة وحتى بالأيدي أحياناً. يأتي عناقهما شغوفاً والقبلات أكثر حرارة، يغطّيان ما يحدثانه من ضجيج قد يصل إلى الشقق الأخرى بموسيقى عالية تحبّها. تلعب من قلبها، كالطفلة. يقبّلها في كل مكان من جسمها كما يُقبّل الأطفال، يقبّل أصابع يديها. يضحكان ويضحكان ويسقطان على الكنبة ومنها يتدحرجان أرضاً ليتوقفا فجأة مقطوعَي النفس يلهثان ويبرّدان من قوة مشاعرهما لدقائق يستأنفان بعدها الإثارة، فيتسابقان في التقاط أكبر عدد من حبات مسبحة انفرط عقدها في أرجاء الغرفة. يزحفان، يتنازعان الكرات الزجاجية الصغيرة، يتلاصق جسداهما، يهدآن، يرتميان على ظهريهما، يسألها تكراراً عن الجروح في ذراعها فلا تجيب بل تداعبه فتسكته عن السؤال. ينزع سترته، ينحني فوقها، يبدأ ولو بنعومة بفكّ أول زرّ من أزرار قميصها، تغمض عينَيها، يسرّ لها أنه لم يحبّ أحداً من قبل مثلما أحبّها. لا تطول بهما الأمور، تتوقف، ينكسر إيقاعها، تقول إنها كانت تتخيّل أن الأمور ستحدث بصورة مختلفة، ينقلب مزاجها، ترتب هندامها، تجلس مستقيمة، تستعيد حصانتها مصرّة على الانكفاء. لم يعرف نظام لها سلوكاً يناسب مزاجها، سيكون عليه بذل جهود جديدة وابتكار وسائل إغراء لمحاصرتها على أمل أن تستسلم في المرة المقبلة.

حاول إخراجها من ملعبها، اصطحبها إلى الشمال في يوم كانت فيه متفائلة. أخذها إلى أهله. لم تذهب إلى الشمال سوى مرة واحدة في رحلة مدرسية إلى غابة الأرز لم تحفظ منها في ذاكرتها سوى المطر المنهمر بغزارة على زجاج شبّاك الحافلة. لم تسأله الكثير و لم يخبرها

الكثير. تريده وحده، كما جاء إليها حاملاً القديس جرجس تحت إبطه. أخذها إلى بيت الميناء، لم يصعدا إلى الطابق الثالث، لم يدقّا باب البيت، لم يكن يعرف من سيفتح له. تنظر جَنان حولها باستغراب. دلّها أين كان والده محمود مسجّى قبالة جزيرة الأرانب في باحة جامع البحر وحيداً والآخرون جميعهم منهمكون بالصلاة داخل المسجد، وهو وحده ينظر إليه من بعيد، من هنا، ولا يجرؤ على الاقتراب منه ليودّعه. قالت إنها ترغب في الدخول إلى الجامع ولو مرة في حياتها.

– سيحسبوننا من السيّاح، تعالي...

هو أشقر وهي شقراء ملوّنة العينين. نزع حذاءه، دلّها أين كانوا يجلسون دائرة حول الشيخ سميح الشعراني وكيف أفلت الزيز الأخضر فوق الرؤوس. طلبت منه أن يصلّي لكنهما لم يطيلا الوقوف، هربا من نظرات بعض المؤمنين المحدّقة فيهما. سارا على الرصيف البحري، كان الموج عالياً، سرحت جَنان في تأمّل الأفق المضطرب. عادا في اتجاه البيت، جلسا في المقهى الصغير المقابل، يمكنهما رؤية الداخلين والخارجين من البناية. لم يتعرّف إليه صاحب المقهى السمين المقطّب الجبين دائماً. يسمّونه كاسترو. أستأجر مكان باتيسري مودرن واكتفى بآلة الإكسبرسو وتقديم الشاي والمرطبات. بقي عازباً ويقولون في الحيّ إنه أغرم مرة واحدة في حياته،.بميسلون العلمي و لم يعرف كيف يعبّر لها عن حبّه فأفلتت من يده.

فجأة ظهرت أمّه صباح، وحيدة مثل شجرة عبوس، استكشفت الطريق ومشت. فستانها أسود ومنديلها أبيض، ما تزال في حداد على محمود. أصرّت جَنان على أن يتبعاها، ينتابها حبّ اللعب من جديد. دفعا الحساب وخرجا. مرّت أمام باب المسمكة، صيادون عائدون

متعبون يجلسون صفاً واحداً، عيونهم في الأفق، يشربون النراجيل وينفخون الدخان. تمشي صباح على رؤوس أصابعها كي لا يعلق شيء بحذائها من بقايا البحر. تلقي نظرة خاطفة مشمئزة إلى الداخل. أكملت بخطاها الصغيرة. همس لجَنان أنها ذاهبة إلى الخيّاطة، ذاهبة للتركيز هذه المرة، لأنها لا تحمل قماشاً في يدها. تشجّعه جَنان على التحرش بها وهو لا يجرؤ، كادت تلحق بها وتتكلم معها لو لم يمسك بها عنوة.

لم ينتظرا نزولها من عند الخياطة فقصدا حَورا.

الأودية المحاذية للطريق لم تعد مخيفة، استعارت جَنان سيارة أمها التي أوصت نظام سراً بالانتباه:

– تقود جيداً لكن ابق متيقظاً لأنها لا تعرف الطرقات...

في طرابلس كان الأمر سهلاً، لا يعرفه الكثيرون أما في حَورا فالجميع يترقبونه.

وصلا مع هبوط المساء، يردّ الليل عنهما بعض الحشرية، رأته رخيمة أولاً.

– أمّي.

قال متوجهاً إلى جَنان يعرّفها بها. لا تطارده جَنان بالاستفهام، تكتشف حياته تكتشف أهله، تتسلّى.

بكت رخيمة، بكت لأنه سمّاها أمي ولأنها اشتاقت لرؤيته ولأنه جاء إليهما ولأنه سيقفل عائداً بعد وقت قصير ولأنه صار رجلاً ترافقه النساء.

توما كان ما يزال يعمل في البستان.

– قدر ما يستطيع.

ذهبوا إليه. كان برفقته عامل يساعده، البستان عراك يومي وهو مريض.

رآهم يدخلون، ابتسم وصرف العامل بسرعة، دفع له وأشار إلى الباب، كأنهم فاجأوه في وضع لا يريده. فرح بنظام لكنه لا يعرف التقبيل، أمسكه من يده، أبقاها طويلاً في يده. تعثّرت جَنان بواحدة من تلال التراب الصغيرة المتكاثرة في البستان، تلال الخلد التي ترتفع في جوار وكره، توما ما عاد يكافحها كالسابق.

– البيت يليق أكثر برفيقتك.

حاول نظام وهم يخرجون التقاط يراعة الليل العابرة، ضرب يده خلفها معتقداً مرة جديدة أنه قبض عليها لكنه فتح يده فلم يجد شيئاً. ضحك توما وحاول بدوره، نجح في القبض عليها من محاولة ثالثة، أعطاها لنظام، اعطاها نظام لجَنان، أفلتت منها.

– بنت المدينة...

ضحكوا جميعاً.

دلّوها على صور نظام المعلّقة على جدران البيت، في جميع الغرف، حتى في المطبخ حيث تمضي رخيمة وقتاً طويلاً. بيتهما معرضه، مشاغباً مع بنات مدرسة الراهبات تحوطهم مادموازيل لور والأخت فرنسيسكا، جالساً في عبّ شجرة التوت يرفض النزول قبل أن يأكل شبعته، صوّرتهم معاً قبل صعوده إلى الحافلة للسفر إلى بيروت في نزلته الأولى.

بعد أن رأت صباح من الخلف ورخيمة وجهاً لوجه، عاملته جَنان

بالمثل. دعاه والداها إلى العشاء فاحتفيا به وعرض عليه والدها سيجاراً مع الكونياك بعد العشاء. تحدثا في السياسة، كان والدها مسؤولاً عن التشريفات في وزارة الخارجية، يعرف كل أصول الاستقبالات والألقاب. شدد على ضرورة الدفاع عن لبنان ووضع حدّ لدولة الفدائيين. نظام يتذكّر رفاق خلية فرج الله الحلو ولا يعترض. ويؤكد والد جَنان مخاوفه من تداعيات عملية خطف الرهائن التي حصلت قبل ظهر ذلك اليوم في شارع المصارف داخل البنك البريطاني. أطلق الخاطفون النار على أحد موظفي البنك الذي حاول الفرار فسقط جريحاً عند الباب الخارجي. تدخلت فرقة المغاوير في الجيش اللبناني وألقت القبض على الخاطفين وتبيّن أنهم اشتراكيون متطرفون كما سمّتهم الإذاعة، وبينهم فتاة لم تُعرف هويتها.

كانت علاقة والدَي جَنان بابنتهما في منتهى اللطافة، واقفَين على خاطرها، يفعلان ما بوسعهما لإراحتها، كأنهما يشعران بذنب ما تجاهها يحاولان دون انقطاع التكفير عنه باهتمامهما البالغ بها وبرضاهما عن حريتها في السكن وحدها واختيار أصدقائها. يستقبلانه بكل هذه المودة إرضاءً لها فما يسعدها يسعدهما. مستقلّة لكن أهلها، عائلتها كلها، تراقبها. جَنان كالحليب على النار، كما تقول رخيمة عن الذين لا يمكن توقّع انفعالاتهم، قد تفور في أي لحظة يغفلون فيها عنها.

انتقلت حياة نظام إلى شارع لبنان، إلى المقلب الآخر من بيروت، فصار عندما يسرّب إلى المنارة يشعر بأنه آت من عند الأعداء. يعطي الرفاق أعذاراً لغيابه فلا يصدّقون، يشعرونً بأنه غارق في مغامرة ما حتى أذنَيه. يدخل عليهم حوالى منتصف الليل بعد جلسة عمل طويلة

في محترف جَنان، يوسّعون له مكاناً في مجلسهم، لا يصغي إلى النقاش. بعد قليل يعتذر ويخرج إلى الشرفة. يقولون فيه إنه مغروم.

صباح اليوم التالي، ظهرت يسرى من جديد.

بالحرفين الأوّلين لاسمها واسم عائلتها في صحيفة «النهار» التي كتب مراسلها في موقع الأحداث أن الذين سطوا على البنك البريطاني وزعوا عند دخولهم بياناً نقله بعض من فروا إلى خارج المصرف وهو موقّع باسم منظمة الاشتراكيين العرب يهاجمون فيه النظام المصرفي والرأسمالية العالمية... وقد روى أحد الشهود أنهم كانوا أربعة وبصحبتهم فتاة، أرعبوا زبائن البنك وموظفيه بتصويب الكلاشنيكوفات إلى صدورهم وإطلاق الأوامر الزاعقة في اتجاههم.

في الصباح، أخبره الرفيق فرات الذي وصل إلى الشقّة مضطرباً:

– إنها يسرى، فتاة البنك...

– يسرى؟

كان فرات قلقاً أكثر من الجميع لأنه إذا ورد اسمه في التحقيقات فسيبعدونه إلى العراق.

– لن أعود إلى الموصل مهما حصل، سيقتلونني هناك!

وصل الرفاق تباعاً، مستنفرين قلقين مما قد تعترف به يسرى. لكن يبدو أنها عنيدة تحافظ على صمت مطبق ولم يحصل معها سوى مشكلة واحدة عندما راح المحقق يؤنبها ويلومها على فعلتها خصوصاً أنها ابنة «عائلة محترمة». سايرها إيجاباً وبدأ يسألها عن دوافع العملية التي قاموا بها ومن غرّر بهم وهي صامتة مطرقة، إلى أن تمتمت شيئاً لم يفهمه المحقق فطلب منها رفع صوتها فغمغمت:

– دوغ داي أفترنون...

فيلم «بعد ظهر ابن كلب» لآل باشينو الذي يسطو مع رفيق له على أحد المصارف. كانت شاهدته على شاشة سينما إلدورادو قبل أيام.

لفظت اسم الفيلم بالإنكليزية فصفعها المحقق الذي لا يتقن الإنكليزية جيداً لاعتقاده أنها تنعته بالكلب وطلب من الحراس إعادتها إلى الزنزانة الانفرادية.

ارتبطت بهؤلاء الشبان، ظنّت أنها تنطلق من جديد. كانوا يؤمنون بالأفعال الثورية وينتقدون بألذع الكلام أصحاب النظريات الذين لا يحسنون حتى النطق بالعربية. لم يبلغوها شيئاً، طلبوا منها مرافقتهم صباحاً في «عملية استكشافية» كما سمّوها لكنهم ما إن دخلوا البنك البريطاني حتى شهروا أسلحتهم. انساقت معهم لكنها لن تفيد التحقيق بالكثير، لن تشي بأحد من أعضاء خلية فرج الله الحلو ولا من مرتادي شقّة المنارة.

10

شقّة المنارة حيث اختلط الحابل بالنابل.

الشقّة الصغيرة ذات الشرفة الواسعة تحوّلت مركباً ينوء بحمولته، مشغولة، بابها مفتوح نهاراً ومصباحها مضاء ليلاً، من يجُع يشترِ أكلاً وشرباً. وحده فاسكو كان يدفع فاتورة الكهرباء أو الماء إذا جاء بها الجابي وهو موجود. لا أحد ينظّف، لا أحد يشتكي.

احتفظ منها نظام، من أيام ازدحامها هذه، بصورة فوتوغرافية بالأسود والأبيض تظهر فيها سوالف الشبّان طويلة بشعة وكذلك الشوارب الكثّة الإلزامية. من علامات التجهّم الثوري. صورة جماعية للنزل بكامل أعضائه باستثناء يسرى مكتبي. أُخبروا بأن والدها لا يتوقف عن القول إنه تعب عمراً في أفريقيا ليرى ابنته في السجن بتهمة السرقة. لكن أهلها كانوا يعطونها المال بكثرة فتوزع الجزء الأكبر على السجينات، يحملون إليها الأكل الساخن فتتقاسمه معهن. تهلع أمها من فكرة أن تلتقط ابنتها مرضاً.

غابت يسرى وحضرت ميسلون.

هي أيضاً تذكّرت عيد ميلاده.

نظام نفسه لم يتذكّر، رخيمة ذكّرته.

أرسلت من حَورا إلى زهرة الشمال ما تسمّيه «أكلة» وهو ما يقيت في الواقع عشرين شخصاً. طنجرتان كبيرتان من ورق العنب المحشوّ بالأرزّ وفوقه فوارغ الماعز الدقيقة المحشوّة بدورها أرزاً وصنوبراً ولحماً مفروماً مع الثوم المقشّر والنعنع في كيس مستقل. لا بدّ أنها عملت عليها على مدى يومين وأكثر. أرفقتها برسالة بخط يدها المرتجفة تقول فيها إن توما «تعبان» والمقصود أن مرضه يزداد وإنه صار «ضيّقاً» أي إن السكري يجعله عصبياً، وتتمنى لنظام فيها طول العمر، مئة سنة والسعادة، وتضيف في النهاية أن ليس عليه سوى أن يسخّن ورق العنب على نار خفيفة ثم يأكلها بالهناء.

ميسلون حضرت بلا موعد، دخلت بصحبة زوجها وهما يحملان قالب حلوى. ارتبك نظام قليلاً لكنه استسلم لوجودها. زوجها يصافح الجميع، يتذكّر بعض الوجوه. في الصورة الفوتوغرافية، كان مصطفى حجازي ضائعاً في صخب روّاد شقّة أولغا، واقفاً في الصفّ الخلفي، مع كبار السنّ، الأستاذ الأميركي وزوجته. لم يقف إلى جانب ميسلون عند التقاط الصورة، كانت مشغولة عنه بنظام منذ وصولهما. ينظر مصطفى ولا يرتاح ويبدو عليه أنه مشكك في سبب وجوده بين هؤلاء القوم الواقفين صفّين أو ثلاثة كتلامذة المدارس يوم تخرّجهم، يحاول أن يفهم سبب اجتماعهم وصداقتهم أكثر مما ينظر إلى عدسة المصوّر.

كانت رخيمة حاضرة بما صنعت يداها. مدّت ميسلون تساعدها ديما كل ما ورد من حَورا على الطاولة التي أخرجوها إلى الشرفة، وكانت ميسلون من زيارتها الثانية إلى شقة نظام استكشفت البرّاد

والخزائن ومحتوياتها وبدأت تتصرّف كربّة المنزل.

تداعوا للأكل فانقضّوا على مربّى السفرجل المصبوغ أحمر قانياً وحبّ العنب السابح في ماء محلّى يمتصون أصابعهم وراءه، يطلقون صيحات الاستحسان عند كل اكتشاف. يسألون عن كل صنف وعن كيفية تحضيره ولا من يجيب. لم يبقَ من بعدهم شيء يذكر. كان نظام فرحاً لا يصدّق أن صنعة امرأة حَورا، كبيس قوالب البندورة الخضراء الصغيرة بالخلّ والملح والزيت هذه، ستروق أبناء بيروت هؤلاء. كما ستروق موريس الذي وصل متأخراً حاملاً نايه الأفقي في علبته الثمينة ومعتمراً قبعة سوداء غريبة. أمام عدسة المصوّر، بقي موريس متمسكاً أيضاً بنايه وقبعته. أحبّ موريس ليمون الصفاري المرّ المغمّس في السكّر، يغمض عينيه طويلاً ليستطعم به جيداً.

جوناثان باركر وبرباره كانا أيضاً يأكلان بشراهة ويسألان عن سرّ مآكل رخيمة بلغتهما العربية المكسّرة. كانت حشريتهما بلا حدود، يريدان من ميسلون أن تعدّد لهما مكوّنات قالب الحلوى الذي اشترته جاهزاً، يسألان فاسكو عن دينه بالبساطة التي يسألانه فيها عن اسمه، يريدان أن يعرفا من الحاضرين الآن لماذا لا يعتبرون لبنان بلداً ديموقراطياً. يخرج جوناثان دفتره الصغير ويسجل بعض الكلمات، يحاولان بكل جدية أن يستمزجا رأي موريس تحديداً، وبعد أن عرفا أنه يهودي، في قرار تقسيم فلسطين عام 1948، لكنهما لم يعرفا تماماً، وسط تضارب الكلام بالعربية تارة وبالفرنسية أحياناً، ما كان سبب الاحتفال الذي انضموا إليه في الشقة إلى أن بدأ الرفيق فرات غرس الشموع في قالب الحلوى وإشعالها. يطلب الجميع من نظام إطفاءها

قبل أن يغنّوا له وينهالوا عليه بالقبلات وينحني هو كي يقبّله فاسكو بينما خرج بعض الجيران إلى شرفاتهم في البنايات المقابلة كي يتابعوا الاحتفال، هذه المرة من دون تعبير عن الانزعاج.

ثم جاء دور التقاط الصور. أفسحوا المجال أولاً أمام فاسكو وكرسيّه المتحرك، أوقفوه في الوسط وتوزعوا حوله. الرفيق فرات وقف إلى طرف الصورة. لم يكن يريد الظهور لو لم يلحّوا عليه، لا يتخلّص من مخاوفه العراقية. صوّر لرفاق الخليّة الموصل كأنها سجن رطب ينقلون إليه الناس عند الفجر، يخشى الصورة الفوتوغرافية كدليل حسّي، كشهادة دامغة على وجوده في بيروت لكنه وافق نزولاً عند رغبة الجميع، فوقف في مكان ظن على الأرجح أن الآلة لن تلتقطه لكنها التقطته متهرّباً.

لم يكتمل عقدهم على الشرفة إلاّ بعد دعوات ونداءات متكررة. كانت الصورة فكرة فاسكو. أحضر معه آلة تصوير مع سيبة مثلّثة الأطراف نصبها مرافقه والتقط غالبية الصور. كانت الرفيقتان ديما وهدى تبتسمان كأنهما تتابعان بنظراتهما أمراً مسلياً يحدث أمامهما، لجهة المصوّر. كان مرافق فاسكو يلتقط الصور. لمع الفلاش عدة مرات في وجوههم قبل أن يتفرقوا ويعودوا إلى الشرب وأكل ورق العنب.

تقدّم الليل فوقف موريس في الوسط وراح يُخرج نايه من علبته بحركات بطيئة فأدرك الرفاق أنه ينوي العزف. استغربوا لأنهم كانوا عادة يتهلون إليه ليعزف، فإذا هو يقرر تلك الليلة أن يفعلها تلقائياً. تحلقوا حوله، أصغوا إليه كالعادة بصمت تام أوصل إلى مسامعهم أصوات المدينة، صفقوا له عندما انتهى فابتسم ونزع قبعته وانحنى

طويلاً أمامهم، القبعة في يد والناي في اليد الآخر. لم يكن التصفيق القصير الذي أعقب عزف موريس يبرّر هذا القدر من الشكر وتلك الانحناءة حتى ملامسة الأرض.

أكلوا كل شيء وشربوا كل شيء، الفودكا خصوصاً. ضعفت همّتهم مع استماعهم إلى ناي موريس، جلسوا، ارتخوا، نظّفت ميسلون الطاولة وشرعت في جلي الصحون وغسلها. كادوا يتفرّقون، ينسحبون، فاقترح عليهم نظام نزهة ليلية. الطقس جميل ولو على شيء من البرودة. كانوا يلمحون وميضاً خاطفاً من وقت لآخر في الأفق البحري. كان الربيع في بدايته والوقت ما زال مبكراً. تساعدوا في إخراج فاسكو وكرسيّه، نزلوا بالمصعد على دفعات، جوقة ليلية كاملة. توجهوا من دون تخطيط نحو الشوارع الساهرة في منطقة رأس بيروت وكان نظام الأكثر حماسة بينهم. يؤلفون كورَساً متفاوت النبرات. سلكوا شارع فينيقيا صعوداً وهم ينتقلون من أغنية «العشّاق القدامى» على اللحن الفرنسي الناعم والمعاناة الوجدانية المبحوحة إلى الإيقاع العسكري لـ «الراية الحمراء» وانتصارها الحتمي باللغة الإيطالية الثورية. لم يطل بهم المسير فوق الرصيف إذ انتقلوا إلى وسط الطريق، كانت السيارات تبطئ خلفهم وتنتظرهم أن يفسحوا لها مجالاً للمرور فيطلق السائقون منبهاتهم تحية لهم.

الزوجان باركر كانا متأخرين قليلاً عن الركب، تردّدا بداية في الانضمام إليهم. يقولان إن النوم باكراً هو جزء من نظام حياتهما. سعيا لتوديعهم عند باب المصعد والنزول إلى شقتهما لكن الجميع أصرّ عليهما فانضمّا إلى الجوقة. ربما يشعران بأنهما يكبرانهم سناً

ولو أنهما كانا يبتسمان ابتسامة التعاطف وهما يتابعانهم يمرّون أمام مداخل الكباريهات يرفعون أصواتهم بالغناء كلما التقوا بمن يلتفت إليهم، فيزداد تنافر هذه الأصوات لفرط ما فعل الخمر فعله في حناجر بعضهم فيبتسم لهم الداخلون إلى الـ كيت كات ويتزاحم عليهم البوّابون بلباسهم الفولكلوري يحاول كل منهم أن يجتذب الجمع إلى ملهاه الليلي.

كانوا يتناوبون على دفع كرسيّ فاسكو وكانت الرفيقة ديما تتذكّر الأغاني، فهي تحفظ الشائعة منها جميعها، تطلق الكلمات الأولى تلحّنها بصوت تقريبي فيلحق بها الباقون ويغطّون عليها في هرجة يكمل كل واحد فيها الكلام على مزاجه. انسجم الباقون شيئاً فشيئاً فبادر الرفيق فرات إلى الانطلاق في أغنية بغدادية راح الباقون يردّدونها من ورائه قدر الإمكان. ميسلون ملتصقة بزوجها كي لا يشعر بالغربة، هي لا تشعر بالغربة لأن نظام شقيقها. هي نفسها فوجئت بمصطفى الذي انسجم تدريجاً ودخل في أصوات الجوقة إلى أن استغل سكوتاً فاصلاً فأطلق العنان لصوت رخيم قوي النبرة مغنياً «يا مسافر على برّ النيل أنا لي في مصر خليل...» والجوقة تردّد من خلفه اللازمة وهو يضاعف من تفخيم صوته ورفعه عالياً. كان فاسكو يتصدّر المسيرة التي ينضم إليها أحياناً بعض المارة ممن تصيبهم عدوى هذا الطرب الليلي المتجوّل فيواكبونهم لمئات الأمتار قبل أن ينفصلوا عنهم إلى سبيلهم وفرحة لم يألفوها من قبل تغمر وجوههم.

كان نظام يضبط الإيقاع، يمشي القهقرى في الطليعة رافعاً يده متذكّراً مقلّداً قائد نوبة الجنازات في حَورا الذي طالما سخر ورفاقه من تلويحه المفرط ببعكوره أمام نافخي الأبواق وضاربي الصنوج ومن

وقوفه على رؤوس أصابعه بسبب قصر قامته، وكانوا يضحكون عند استراحته عن التشوير العشوائي عندما ينفرد البوق الرئيسي بعزف لحن الموت. هكذا وجد نظام نفسه يمشي واقفاً أيضاً على رؤوس أصابعه وهو ليس بقصير القامة يرسم بيده إيقاع أغنية كان أحياناً يسمعها للمرة الأولى وهو أول من يضحك من تمثيليته هذه. جال بهم حيّ الفنادق فمرّوا أمام مدخل فندق الفينيسيا المزدحم بالنزلاء والساهرين وأعضاء المجموعة يستقوون على النظرات الفاحصة بتضامنهم في الغناء ورفع نبرة الأصوات والرفاق الثوريون يشعرون كأنهم بترداده بصوت عال ودون تعب الأغاني الثورية إنما يهدّدون الامتيازات التي تتمتع بها النساء.بمعاطف الفرو المترجلات من سيارات الجاغوار يرافقن أزواجهنّ أو عشاقهنّ كما يحلو للرفيق فرات التأكيد وهم يدخنون السيجار العريض ويضعون المناديل بلون ربطات العنق في جيوب ستراتهم الأمامية.

تقدّموا في اتجاه الأسواق التجارية فتاهت أصواتهم في الشوارع المقفلة ليلاً. عادوا من جهة البحر، وصلوا إلى نصب عبد الناصر حيث استغرب موكبهم الواقفون ليلاً عند ناصية الشارع من شباب المحلّة فراحوا يمازحونهم، يسخرون منهم ويطلقون في اتجاههم عباراتهم المعتادة وتلميحاتهم ويدعونهم إلى شرب عصير قصب السكّر. عند التقاطع، اختلط بهم الخارجون من مسرح بيروت بعد انتهاء عرض مسرحية «السيد بونتيلاّ وخادمه ماتّي» فيما كان الرصاص الخطاط يطرّز سماء المدينة دون أن يسمع له أزيز، رصاص لا أحد يسأل أو يأبه لمصدره أو لسبب إطلاقه.

أطالوا تشرّدهم نحو جادة الافرنسيين ومن ثم سلكوا كورنيش

البحر حيث صفّق لهم بعض المتنزهين المتكئين على الدرابزين فغنوا وغنوا إلى أن أزال هواء الليل المنعش أثر النبيذ الأحمر والفودكا من رؤوسهم وإلى أن تعبت أصواتهم وأرجلهم فعادوا باتجاه المنارة حيث بدأوا يتفرقون، كل إلى بيته، وهم ينشدون خاتمة أغانيهم التي اقترحتها ديما وبدأت بمطلعها «كلنا مبحرون داخل غواصة صفراء» فصدحت أصواتهم بها في شوارع بيروت المعتمة.

الفصل الثالث

أنت أحمد؟



1

أحد الشعانين.

كان عائداً من شارع لبنان.

جَنان تشتكي من جديد، تفقد رغبتها في الرسم، تقولها بلهفة كأنها ترى رغبتها هذه بأم العين تمشي على قدمَين مبتعدة عنها.

اقترح ترفيهاً ليوم الأحد، يصطحبها إلى الزياح، ثياب جديدة وشموع. رفضت بحزم.

تنهكها عيون الأطفال. إذا بكوا وإذا ضحكوا.

تتوتّر فجأة:

– سأمزّق لوحاتي ولا أريد رؤية أحد.

أحد يعني هو، نظام.

تقف بحدّة، تحسم أمرها وتنسحب إلى نفسها.

ستصعد إلى شقة أهلها، تغلق باب غرفتها وراءها، لا تفتح حتى لأمها، تطمر رأسها تحت المخدّة، لا تقرأ، لا تحكي، لا تستحم.

فتحت باب المحترف وخرجت.

حقيبة يدها مرمية مفتوحة، نسيتها على الكنبة في عزّ اضطرابها.

لم يقاوم حشريته:

أحمر الشفاه.

ملقط شعر.

مرآة يد مستديرة.

دفتر رسم صغير: أرصفة وبيوت وسيارات بقلم الرصاص، تمارين على لوحاتها.

هنا وهناك عبارات جارحة حول البحر والحياة والانتظار.

لا ذكر له.

صورتان: جَنان بالألوان وفتاة أخرى من زمن آخر، زمن السيبيا.

على قفا الصورة:

«جدتي قبل زواجها، قبل جنونها».

جَنان نسخة عنها، سيسألها فقط عمّا إذا كانت عينا جدّتها بلونَين مختلفين.

مشى نحو الباب، تردّد، عاد إلى الحقيبة، أخذ صورتها وخرج عائداً إلى المنارة.

شعر فور تقدّمه على الرصيف أنه ربما كان الوحيد الذي يسير متنزهاً.

ثلاثة رجال يقفون عند ناصية الشارع يتداولون همساً، أمراً خطيراً على الأرجح. يشير أحدهم بيده بإصرار في اتجاه الجنوب.

مع اقترابه من معهد الدراسات الشرقية رأى رجلاً بثياب مدنية يحمل بندقية رشاشة، ينظّم السير، يدعو السائقين إلى الإسراع، يهتمّ بالمشاة، يسأل نظام:

– الى أين؟

أشار نظام بيده في اتجاه غير واضح:

– الى المنارة...

فحذّره المسلّح:

– لا تذهب إلى هناك!

سأله عن السبب.

هناك ثلاثون قتيلاً في عين الرمانة.

صفّر نظام مذهولاً و لم يفهم للوهلة الأولى لماذا لا يريده المسلّح أن يذهب إلى المنارة. كان الرجل ملمّاً أكثر منه بما يحدث وليس حمله السلاح فوق ثيابه العادية، ثياب يوم الأحد، وخروجه إلى الشارع سوى دليل على خطورة ما يجري.

وقف نظام متردداً.

لن يعود إلى جَنان، إلى حربه الخاصة.

أسرع الخطى في اتجاه ساحة البرج.

تعبث بها ريح خفيفة تبعثر أكياس النايلون من كل الألوان وصفحات الجرائد التي وقعت من أيدي قراء عجولين والمحارم الورقية المستعملة.

السيارات تمرّ مسرعة، دور السينما أوقفت عرض الأفلام وخرج المشاهدون القلائل من عتمة الصالات إلى ضوء النهار مقطّبي القسمات يبحثون عما يجري.

كان رفّول جالساً فوق طاولة مكتبه، يُشرف على الجمع الصغير الذي ملأ قاعة الانتظار في زهرة الشمال. يوزع عليهم المهمات. الباب مفتوح على مصراعيه كالعادة. سكت من كانوا يتحدثون عند ظهور نظام فجأة في باب الردهة.

– حتى أنت هنا!

هتف رفّول به كأنه يلومه لأن ما عليه الاهتمام به مع لجوء نظام إليه إضافة إلى الباقين بات يتجاوز قدراته.

كان منهمكاً جداً، كان في يوم ثأره، ثأره من هؤلاء المذهولين في ردهة الفندق، واقفين أو جالسين، أبناء حَورا وبعض القرى المجاورة من مسيحيّي الجبل الشمالي. التجأوا إليه بمجرّد انتشار الأخبار.

لا يدرون كيف يتدبّرون أمرهم للعودة إلى بيوتهم البعيدة، رجال وبعض النساء وبعضهم مع أولادهم حتى، جاءت بهم أشغال متفرقة أو زيارات إلى العاصمة، حائرين في أي اتجاه يذهبون بعد أن بدأت الشوارع تفرغ، بقوا وحدهم وسط الطريق ولا بيت لهم، لا عنوان يطمئنون إليه سوى زهرة الشمال.

تهامس رجل مع زوجته وهما يتطلّعان إلى نظام الذي انتبه كم يشبه أهل حَورا بعضهم بعضاً، شبههم يصبح فاضحاً في العاصمة، بعيداً عن بلدتهم. شيء ما في الأنف، وشكل الرأس، وطريقة في النظر، تلك البحلقة، عينان تنفتحان عن آخرهما عند رؤية أدنى مفارقة، مفاجأة موسى الدائمة.

دخوله باب زهرة الشمال في يوم الأحد هذا وسّع عيونهم. استأنفوا الكلام في حضوره ولو أنهم يلزمون جانب الحذر في كلامهم. لا يأمنونه ولو أن بعضهم سمع همساً بأنه تعمّد خلسة في مَيدون. يفضلونه أميناً لدينه الأول.

رفّول يبدو سعيداً للخوف المرتسم على وجوههم. لو كان يرغب في المحاسبة لكان تركهم يتدبّرون أمورهم بأنفسهم. منذ أكثر من سنتين وهو يوصيهم بالحذر كلما نزلوا من البلدة وجالوا في العاصمة، يجزم لهم بأن الأجواء فاسدة ولا أحد منهم ينصت أو يعمل بنصيحة،

لا يأبهون لمخاوفه وكأنها مرض فيه وحده. الآن تأكدت ظنونه.

– مئة قتيل...

يقولون.

– بين شباب عين الرمانة والفلسطينيين.

أطلقوا النار على الكنيسة، يوم أحد الشعانين، كنيسة جديدة لمار ميخائيل. كان أحد الشباب يخرج من الباب ويرسم إشارة الصليب بالماء المقدّسة عندما أطلقوا عليه النار.

يقولها رفّول بلا انفعال، وهو يتطلع ناحية الباب الذي دخل منه إبراهيم السمسماني.

وصل أبو علي مسرعاً، قذفت به الحادثة إلى ساحة البرج هو أيضاً.

يغمزهم رفّول كي يحتاطوا أكثر فأكثر في الكلام، ربما غمزهم أيضاً عند دخول نظام.

سارع إلى تعريفهم به:

– من وين جايي يا بو علي؟

لدى السمسماني ما يقوله، شيء حدث أمامه وما يزال يراه. كان الخبر طافحاً من عينَيه.

كانوا في سباق الخيل، نزل الرصاص عليهم في الشوط الرابع بينما كانت الجياد تلفّ كوع الوردات. مسلّح، قيل إنه فلسطيني جاء من جهة المحكمة العسكرية وأطلق قذيفة «أر بي جي» نحو الخيل وراكبي الخيل فأصاب أمير الليل وكان مجلياً...

– أمير الليل؟

يعرفه رفول، يراهن عليه أحياناً مع أبو علي.

أمير الليل يساوي ثمن بناية بأربع طبقات، فرّ الدمّ من بطنه وسبح

أرضاً وسط الغبار. لم يفهم الناس ما حدث، شدّ الفرسان أحصنتهم بكل ما أوتوا من قوة ورموا أنفسهم عن ظهورها ليهربوا كل في سبيله فشردت الخيل ودبّت الفوضى وانهمر الرصاص من جهة حرج بيروت...

وصل أبو علي مشياً، سلك طريق الشام نزولاً، الناس يهربون إلى بيوتهم، لا أحد في الطرقات.

المنتظرون في ردهة الفندق لا يعلّقون، تثقل وطأة الأحداث عليهم.

يخرج السمسماني إلى الشرفة بعد تقريره، يلحق به أحد الأولاد فنهاه والده عن الخروج كأن الرصاص ينهمر خارجاً. ينظر أبو علي في هذا الاتجاه أو ذاك ويعود ليقول إن الأمور هدأت، كأنه رأى في المشهد الذي أطلّ عليه إثباتاً على صحة ما يقوله.

– غيمة وتمرّ...

يطمئن المنتظرون سيارات الأجرة كي تقلّهم إلى الشمال بعد أن هربت الحافلات من ساحة البرج.

يخرج أبو علي مرة ثانية إلى الشرفة، لم يجد مكاناً للجلوس، يلحق به نظام، سيتكلمون مع رفّول بحريّة في غيابهما.

بعض المارة المستعجلين ما زالوا يخيطون ساحة البرج مواربة في أقصر مسافة ممكنة إلى وجهاتهم الآمنة. بدا المكان مختلفاً، فارغاً من السيارات، خلت الساحة لأشخاص نصب الشهداء الاربعة، الواقفة حاملة المشعل ورفيقها والاثنين المرتميين أرضاً، بقوا وحدهم ينظرون في اتجاه أنيتا أيكبرغ المتعالية فوق سينما الريفولي.

عاد السمسماني إليهم مطمئناً:

– يعالجونها، لا تخافوا.

– لسنا خائفين.

قال أحدهم كأنه لمس في تطمين أبو علي تحدياً.

المشاكل لا تروق إبراهيم السمسماني، لا يتمناها.

يغمزهم رفّول من جديد، هذه المرّة كي لا ينخدعوا بتفاؤله، ربما لأنه غير ملمّ بما يحدث أو لأنه متوالي كما يعرّف عنه في غيابه دائماً.

أعاد رفّول مرة جديدة وصف الحادثة، أضاف بعض التفاصيل. الأمور أخطر مما يمكن تصوّره، بوسطة بأكملها كانت ذاهبة إلى مخيم تل الزعتر، لم يخرج منها أحد حيّاً.

– ما يزال القتلى حتى هذه اللحظة جالسين في مقاعدهم لم يتمكن أحد من الاقتراب لانتشالهم.

شدّ بكل ثقة على «حتى هذه اللحظة» وهو يقلّد بانحناءة من رأسه بقاء القتيل جالساً في مقعده بلا حراك. كان في وصفه الأمور بهذه الطريقة وفي لهجته إعجاب بسرعة ودقّة من أطلقوا على ركاب البوسطة النار فلم يدعوا لركابها أية فرصة للنهوض من مقاعدهم واستخدام الأسلحة التي كانت تملأ البوسطة كما يقول.

– والحبل على الجرّار.

ينهي رفّول متنهداً.

يستأجر سيارات لنقل أهل القرى إلى قراهم البعيدة ويريد قبل تسليمهم للسائق التأكد من هويته. لا يريد سائقين مسلمين لأنهم سيعبرون بهم المنطقة المسيحية. يحاول تدبّر ذهابهم قبل حلول الليل. كانت خريطة الطريق واضحة في ذهنه، يبقى أن يلقّنها للسائقين:

– لا تدخلوا بهم إلى طرابلس، تأخذون اليمين صعوداً عند مفترق الأرز في شكّا...

لم يودّعهم، أوصاهم:

– أخبروا توما ورخيمة بأنكم رأيتم نظام وأنه في حال جيدة فلا يقلقا عليه...

مستنفر، لا ينسى شيئاً. لم يلقَ سوى غمغمة. في طريق عودتهم، عندما يطمئنون بعد قليل إلى خروجهم من دائرة الخطر المحدق بالعاصمة، سيتناولون نظام بأحاديثهم.

يقوم بكل الفروض اليوم، رفّول، الوحيد المحافظ على رباطة جأشه، كأنه تمرّن طويلاً على تلك اللحظة.

التفت إلى أبو علي واقترح عليه أن يطلع إلى قريته في الجنوب ولو ليومين ريثما تنجلي الأمور. اعترض هذا الأخير بحركة من يده ودخل إلى غرفته دون أن يغلق الباب وراءه.

وصفة رفّول لنظام كانت بسيطة:

– بسرعة سرّب عالبيت ولا تتمهّل في الطريق.

ثم أضاف تحسّباً للأسوأ:

– في كل حال لا تتجوّل كثيراً، إذا وجدت دكاناً مفتوحاً في الطريق تموّن منه لعدة أيام...

الخدم بوزراتهم البيضاء الطويلة يقفلون مقهى الجمهورية. كلما حمل واحدهم طاولة من الرصيف إلى الداخل، يتوقف لحظة ينعم النظر في الساحة التي لم يرها فارغة بالكامل من قبل. كل ما يُقفل أُقفل، كل ما يمكن نقله نُقل تحسباً لوصول الموجة المنطلقة من عين الرمانة، من حيث سقط القتلى الجالسون في مقاعدهم. موجة فرّ أمامها المارة إلى بيوتهم، وفرغت بانتظارها الشوارع. موجة قاربت الوصول فسبقها

نظام إلى المنارة. أقلّه سائق تاكسي أخبره أن الرصاص والانفجارات بدأت تسمع على طريق الشام وراح ينعى المدينة، يكلّمها:

– ضيعانك يا بيروت.

يجهّل الفاعلين:

– حرقوكِ..

ويتوعّدهم:

– الله يحرقهم.

مجروح القلب، لم يقبل أجرة من نظام.

جزم بواب البناية بأن هناك الكثير من القتلى لكن الإذاعة تتكتم حول العدد الحقيقي كيلا تخيف الناس، كما قطعت موسيقاها الكلاسيكية لتبث خبراً عاجلاً عن اجتماع طارئ لمجلس الوزراء.

كانت الشمس تغيب في البحر وأصوات رصاص متقطّع تُسمع من أماكن يصعب تحديدها.

لم يجد أحداً في الشقة.

– لم يأتِكم أحد.

أخبره البواب شبه ساخر.

لن يخشى البقاء وحيداً.

جلس على الشرفة، فتاة الطابق الرابع لم تصلها الأخبار، تمارينها على غناء الأوبرا تترقرق حرة طليقة في بداية الليل، لا يزجرها أحد، حتى رشقات الرصاص كانت تمرّ في محاذاة صوتها. بدأت قطرات الماء تتساقط، متفرقة، آخر محاولات الشتاء العاثرة.

ابتلّ شعره أولاً، لم يحتمِ، لم يضع يده على رأسه ليتحسّس البلل،

معتاد على مقاومة الماء، فتح فمه ومدّ لسانه ليلتقط قطرة سارحة على خدّه وأخرى على أنفه.

تمنى لو يضربه المطر بقوة أكبر.

2

الحصيلة صعد بها إليه صبيحة يوم الثلاثاء جوناثان وبرباره، مذهولَين كأنهما خُدعا في شأن بيروت، كأن هناك من أعطاهم وعداً لم يفِ به، بضاعة اكتشفوا أنها مغشوشة.

جوناثان سجّل على مفكرته ما سمعه من هيئة الإذاعة البريطانية.

156 قتيلاً سقطوا، من بينهم 127 ذكراً و29 أنثى و291 جريحاً، وتقدّر الأضرار بأربعمئة مليون ليرة، مع تدمير أو إصابة 1400 مسكن.

مدّ الصفحة صوب نظام كي يقرأ الأرقام بنفسه.

لم تحص الإذاعة الرفيق فرات، لم تكن وسائل الإعلام قد بدأت بتعداد المهجّرين.

شمعون رخّو كان أوّلهم على الأرجح.

يسكن في جوار مركز أحد الأحزاب المسيحية في منطقة المتحف الوطني، يسكن حيث يجب أن يسكن، في حيّ السريان. أسمعه حرّاس المركز صباح يوم الأربعاء وهو خارج من البيت ليشتري البنّ أنهم لا يريدون رؤية «غرباء» في حيّهم. لم يتوجّهوا إليه شخصياً بالكلام بل أطلق أحدهم التهمة بصوت عال و لم يكن أحد غير شمعون يمرّ في تلك اللحظة على الرصيف. أضاف المسلّح أن هناك «جواسيس

بيننا». حرّاس المركز من السريان هم أيضاً، أحدهم ابن خاله.

يسخر شمعون من وضعه. يقول إن مسيحيّي الشرق مجتمعين لا يساوون شيئاً يذكر في الميزان، فكيف بالسريان وأكثر من ذلك بالسريان الكاثوليك وهو منهم، أقلية ضمن السريان أنفسهم، وإذا تبرّأ منه هؤلاء السريان الكاثوليك وهم لا ينجحون في ملء مقاعد كنيستهم الوحيدة في بيروت حتى في قداس ليلة عيد ميلاد السيد المسيح، فماذا يفعل؟

اشترى البنّ، وضع يده في جيبه، تأكد من محفظته ومن أوراقه النقدية فيها، أدار ظهره ومشى. لن يرجع إلى بيت أهله في حيّ السريان ولن يرجع إلى الموصل. أكمل طريقه إلى المنارة، إلى شقّة نظام. شربا القهوة معاً في الاستراحة التي تلت الجولة الأولى وانتقل شمعون رخّو نهائياً إلى «الأحياء الوطنية».

صمد وقف إطلاق النار فظهر الرفاق تباعاً. اشترى نظام المآكل السهلة التحضير، تمسّك بمن حضر منهم، أعدّ لهم القهوة، سكب لهم الويسكي، دعاهم إلى النوم إذا تأخروا، يتخلّى لهم عن الأسرّة، ينام أرضاً إذا ضاق بهم المكان. لكنهم لم يطيلوا الإقامة. ديما جاءت خلسة عن أهلها، يصرّون عليها كي تسافر لتكمل دروسها في باريس، تقيم عند أحد أخوالها هناك في مرحلة أولى، وهي ترفض. حسين معلّاوي، الرفيق ريمون، مشغول بتحضيرات الالتحاق بدورة تدريبية في هافانا بعد أن توثّقت علاقته بالملحق السياسي في السفارة الكوبية في بيروت. فاسكو يسكن في المنطقة الشرقية، يصرّ على النوم في بيت أهله، على الأرجح لأسباب تتعلّق بعجزه عن دخول الحمّام وحده

وقضاء كل حاجاته الصغيرة. يأتي إلى المنارة في الصباح، يدفعه مرافقه نحو الشرفة، يلقي نظرة على المدينة، يستنشق بقوة ويقول مقتبساً عن شخصية أحد الأفلام:

«هناك مثل سمّ في الهواء...»

يسأل نظام عنهم فرداً فرداً. لا تأتي أخبار عن موريس. يتطوّع لزيارته، ينزل إلى وادي أبو جميل، تتابعه بالنظر امرأة عجوز، يقرع الباب، ينتظر، ثم يكتب على الجدار:

«جاء نظام و لم يجدك...»

تلقّى جوناثان وبرباره تعليمات من السفارة الأميركية بالحذر وعدم التجوال، بنى على ذلك شمعون رخّو أسوأ التوقعات وهو ينظّم إقامته في أحد المخيمات الفلسطينية. وزّع نظام عليهم نسخاً من صور يوم عيد ميلاده فاكتشف أن القديس جرجس يظهر فيها جميعها، معلّقاً على جدار الصالون، فوق رؤوسهم، مشغولاً عنهم بغرس رمحه في فم التنين. يضحك نظام من وقفاتهم لكنهم لا يضحكون، يشعرون بأن وقتاً طويلاً مضى على تلك السهرة.

تنهال على نظام النصائح من كل مكان.

خافت رخيمة عندما قيل لها إن الشقة التي بحثت عنها هي وتوما و لم يجداها في بيروت تقع في حيّ للمسلمين. تتذكر أن نظام تعمّد وتنسى أنه مسلم. تقول للسائق عساه يُقنعه إذا التقى به:

– فليأت إلى حَورا حتى يفرجها الله!

جَنان تريده في الأشرفية، معها. أجابت أمها على الهاتف، فرحت بسماع صوته، أصرت على مناداتها لتكلمه. خرجت من كآبتها:

– تعال، لا تخف، والدي يعرف الكثير من الناس هنا.
أصحاب النفوذ في الجانب الآخر من العاصمة.

جاءت ميسلون وحدها، دعته إلى بيتها، إلى كورنيش المزرعة. حمايتهم هناك مؤمنة، تقول بين الجدّ والمزاح. مركز قيادة التنظيم الشعبي في البناية نفسها التي تسكنها. جاءت تطمئن على سلامته وتبلغه بأن شقيقَيه يصرّان على الاجتماع به:

– صغيران لكن شخصيتهما قوية... خصوصاً خالد.
وهزّت برأسها إعجاباً وتحذيراً.

حزم أمره وقصد الميناء، بالحافلة. لم يجد مقعداً لجهة البحر. وصل قبل الظهر بقليل.

الثالثة ثابتة، سيدخل.

صباح فتحت الباب، تردّدت برهة عين وشهقت واضعة يدها على صدرها كأن نفسها انقطع.

– تأخرت علينا...

ترك موت محمود العلمي آثاراً على وجهها لكنها ما تزال أنيقة مرتّبة.

وقفا متقابلين، هي متراجعة إلى الداخل وهو جامد في الباب. لم يسلّم عليها باليد، لم تعانقه. قالت إنها بحاجة إلى الجلوس.

تغيّرت المقاعد، ألوانها عابقة، لم يعرف كيف يرتاح فوقها. الستائر صارت داكنة أيضاً. لا يتذكّر البيت إلاّ مشرّعاً مشمساً. صباح جلست، تنظر إليه واقفاً، تتأمل طوله وعينيه.

على الجدران آيات قرآنية مخطوطة.

– أين صورة عرسكما؟

هي ومحمود نازلَين درج مسرح سينما كولورادو بعد زواجهما بأيام، خارجَين من حفلة غنائية لفريد الأطرش، ضاحكَين لا تسعهما الدنيا.

– خالد نزع جميع الصور، يعلّمونه أشياء وأشياء...

تقول مستسلمة.

توقفت عن زيارة نظام في حَورا، لم تلحق به إلى بيروت، ظنّت أنه لا يريدها، لا يريدهم.

– ميسلون طمأنتني عنك.

يسكت حياءً، لن يفتح قلبه، لن يقول إنه جاء مرّتين إلى الميناء، وصل إلى باب البناية و لم يصعد الدرج.

صباح لا تحيد بعينيها عنه. من يوم رفض المهلبيّة بالعسل وأقلع فجأة عن كتابة فروضه المدرسية، عندما لم يقبل تعزية عن تعاسته هنا في الميناء إلاّ بالصعود فوراً إليهما فوق، إلى حَورا، صارت كلما التقت به، كلما اقترب منها لا تعرف ماذا تفعل بيديها، كيف تمنعهما من معانقته. حفر فجوة بينها وبينه. تبكي فقط عندما ينصرف، ما إن يقفل عائداً إلى بيروت ستدخل إلى غرفتها وتخفي وجهها في المخدّة كما كانت تخرج منديلها لتمسح عينيها في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة وهي نازلة من حَورا وبلال يضع رأسه في حضنها بعد زيارة قصيرة لأن نظام هرب منها. كان يدّعى أنه على موعد سابق مع أصدقائه، هكذا فقط، يخرج ويتركها مع توما ورخيمة وبلال ضائع بينهم.

يسأل عن خالد وبلال. يقترب الظهر، سيحضران، بدآ منذ شهرَين فقط العمل معاً في مكتب للسفريات.

– مثل والدهما...
تقولها وتغصّ.

عرفَتهما من وقع خطاهما على الدرج. طلبت منه أن يفتح لهما الباب، أن يفاجئهما بنفسه.

تعانقوا قدر الإمكان، كرجال ليس بينهم حسابات قديمة. واحد بارد والآخر أكثر حرارة. سألهما أولاً من منهما خالد ومن بلال. أجاب الحليق الحار المبتسم أنه هو بلال. سأله خالد، الملتحي، عن الطريق بين بيروت وطرابلس.

– يبدو أنهم ينصبون حواجز طيّارة أحياناً.

ابتسم بلال في إشارة إلى أنه فهم مقصد شقيقه من السؤال أو لأنه من هؤلاء الذين يتسمون رداً على كل ما يقال في حضورهم. قال نظام إنه لم يسمع بهذه الحواجز وإنه لم يقع على أيّ منها على الطريق.

أكمل خالد موضحاً:

– هناك أخبار أيضاً بأن أصحابك يقيمون حواجز ليلية عند مفترق طريق الأرز.

– أصحابي؟

سأله نظام مبتسماً مستغرباً.

– يحاولون خطف المسلمين...

يطارده خالد بالكلام. تعرفه ميسلون جيداً.

غيّر بلال الحديث، سأل نظام عن أحوال بيروت ونهضت صباح لتحضّر الغداء، فبسمل خالد إيذاناً بالدخول في صلب الموضوع. نظر نظام إلى الخارج من فتحة الستارة المتدلية على النافذة. بدأ خالد

بمطالعة طويلة حول ضرورة تحرير الإرث مشدداً على التقيّد بأحكام الشرع الإسلامي.

– يعني تريد أن تعطي ميسلون نصف حصة صبي.

قاطعه نظام عمداً.

كلام خالد مدجج، ثقيل عليه، يحاصره. فأجاب خالد أن ليس في نيته ذلك بل يعمل بالآية الكريمة. يكثر من الآيات، ربما عن قصد، في حضور نظام أو ربما اعتاد ذلك.

نظام يختصر الكلام، لا يلفّ ولا يدور. يسأل عن قيمة إرث والده لاعتقاده بأن أحواله المادية لم تكن جيّدة فيخرج خالد حديثاً شريفاً يقول بأن العدل والشرع يسريان على الصغيرة والكبيرة.

نظام يحتار، يستنجد ببلال الذي يكتفي بالابتسام.

لا نتيجة.

يصرّ نظام فيخبرونه.

إضافة إلى بيت الميناء وبستان ليمون ورثته صباح في حمص بدأ يتحسّن ثمنه لأن البناء اقترب منه، عاد إليهم مفلح الحاج حسن بعد الدفن بيومَين، طلب التكلم على انفراد مع أرملة صديقه، سلّمها مغلفاً فيه مبلغ كبير من المال، وبادرها بالقول:

– هذا من حقّ محمود...

رافضاً أن يوضح كيف ولماذا. كان بإمكانه ألا يظهر وألا يعطيهم فلساً واحداً. أكد لصباح أن هذا المال هو من أتعاب زوجها وليس منّة من أحد. أوصاها أن تضعه في البنك، تستر به نفسها.

أتعبهم محمود في حياته، وها هو يدفع بعض التعويض.

أنقذتهم صباح بدعوتهم إلى الغداء.

خالد يأكل صامتاً، يأكل جيداً.

– أخبرونا أنك ستتزوّج...

قال بلال.

– بفتاة مسيحية.

جزم خالد. يتوقف عن الأكل عندما يتكلم. يضحك نظام:

– من أخبركم؟

– لا أحد، بل أنا افترضت ذلك، بسبب معاشرة القوم...

القوم تعني المسيحيين.

ربما أخبرهم كاسترو أو ابن البواب أن نظام جاء بصحبة فتاة إلى الميناء. سألته صباح وهي لا تتوقف عن النظر إليه:

– أخبروني أنها جميلة مثلك...

تحاول فتح فجوة. يبتسم، يروقه أيّ إطراء لجَنان، لا يجيب.

عادوا إلى قصتهم بعد الغداء. عاد خالد إلى الهجوم:

– هناك مشكلة... إذا لم تعد مسلماً فكيف ترث من والدك؟

كان جواب نظام حاضراً، يحزّ في قلبه:

– أنتم قرّرتم أني لم أعد مسلماً من يوم نعوة أبي.

احتدم الأمر:

– هل أخبرتك ميسلون؟

– كلا، أنا رأيت النعوة بعيني، كنت واقفاً هنا وكنتم تصلّون في جامع البحر...

غصّت صباح ولان بلال. استدرك خالد:

– وهل ما زلت مسلماً كي ندرج اسمك معنا؟

بدأ نظام ينفعل، دمه في رأسه، ارتفع صوته.

أطلقت يسرى مكتبي عليه النار و لم يغضب، حمل قتلى التظاهرة إلى دار الإفتاء وبقي متماسكاً. خالد يفقده صوابه، فسأله بنبرة عالية، حادّة:

– ما الذي يريحك أكثر، أن أكون مسلماً أم مسيحياً؟

شعر بأن خالداً لم يكن يريده مسلماً كي يسهل حرمانه من هذه الورثة التي لا يعرف قيمتها. ولا يريد أن يعرف. خالد يدفع به إلى الاعتراف بأنه غيّر دينه وبالتالي خانهم وخان ولادته، خان عمّتيه نجيحة وزين الدار وجدّه الحاج ياسر العلمي، وليفهمه أن حرمانه من ورثة أبيه سيكون عقاباً مشروعاً له ما دام في مطلق الأحوال سيرث من أناس آخرين.

أفصحت عنها صباح المرتبكة، المعذّبة بينهم، ولو في معرض مساندته:

– صحيح أن توما ورخيمة غنيّان لكن نظام شقيقكم.

اكتمل المشهد و لم يعد قادراً على التحمّل.

لا بد أنهم عرفوا أنه تعمّد وإذا قال إنه ما يزال مسلماً في سجلّ الأحوال الشخصية، فسيردّ خالد أن المهمّ ليس ما هو مكتوب في دفتر النفوس بل ما هو في النفس والقلب، وإذا كان المرء مسلماً يكون مسلماً بدون إشارة.

قال خالد إنهم يريدون إعطاءه حصته من ورثة والده لكن على شرع الله ورسوله. على شرع الله يعني أن خالد سيرفع المسألة أمام المحكمة الشرعية.

وقف نظام وقفة المنصرف ثم أدلى بتصريحه النهائي:

– لا أريد قرشاً واحداً من ورثة أبي، قبّلني مرة واحدة أو مرتين

في حياته، لن أقبض ثمنها، سبق أن قلت ذلك لميسلون في بيروت...

ينقبض، يغمض عينيه من الحسرة، يضيف أن توما ورخيمة يطمرانه بالمال، ليس لديهما غيره. لن يقول لخالد إذا كان مسلماً أو مسيحياً، هو حرّ في ما هو فيه. لا يريد منهما شيئاً سوى الحقّ في العودة إلى هذا البيت في يوم من الأيام، ربما لن يعود أبداً لكنه يريد أن يشعر بأنه قادر على المرور فيه، النوم فيه يوماً.

– لا أدري...

هتف بلال مرحّباً. طلب نظام، قبل أن ينصرف، الخروج إلى الشرفة المطلة على المرفأ. رافقته أمه وبلال، تناول خالد كتاباً وراح يقرأ أو يدّعي أنه يقرأ. وقف نظام متأمّلاً البحر، ما زالت هناك المراكب الصغيرة المزيّنة بالشرائط والألوان التي تحمل العائلات أيام العطلة في نزهة إلى الجزر القريبة، وباخرة شحن كبيرة مليئة بسيارات المرسيدس المستعملة تفرغ حمولتها في المرفأ، اسم الباخرة إكسلسيور. يخبره بلال أن العديد من البواخر يفرغ حمولته في مرفأ طرابلس بعد ما شهدته بيروت من أحداث وما يحكى من أن الميليشيات بدأت تسطو على محتويات المرفأ هناك.

ودّعته صباح على الباب وهي تستعد للبكاء، ودّعه بلال وهو يبتسم. بلال لا يبتسم، وجهه مبتسم.

عاد نظام إلى بيروت مرهقاً، لم يكمل إلى حَورا، لا يتحمّل زيارتين دفعة واحدة. اشتكى إلى ميسلون بأنه انتهى من طرابلس. كان جازماً وحزيناً.

3

انكفأ على جَنان، يغرقها بالهدايا، يشتري لها أشياء تحكي بدلاً منه. تحبّ المناديل والخواتم والعقود وهو يحبّ لها الأحذية النسائية والثياب الداخلية. يتسلل إلى محلات النساء، يخشى العيون الساخرة منه، لا يعرف كيف يتكلّم مع البائعات، يأخذ ما يعطينه إياه ولا يجادل بالسعر حتى لا يطيل وقوفه وسط المانوكينات المرتدية السراويل وحمّالات النهود وأرجل الخشب النسائية المنسابة تلبس جوارب النايلون. تسخر جَنان من ذوقه، الكعب العالي الرفيع الأسود وحمالات النهود الحمراء لبنات الهوى، تقول له وتضحك. لن تلبسها لكنها ستحتفظ بها ذكرى منه. جرّب الكتب والاسطوانات، البيتلز ومايلز دايفيس.

ثم تذكّر الببغاء.

لا تحب المألوف؟ فليكن.

سيأتيها بالببغاء الذي أخافه يوم وصوله إلى بيروت. أليس معروضاً للبيع كسائر الطيور في أقفاصها؟ إذا اشترى لها عاشقاً ومعشوقاً فستسخر منه، يعرفها. ليس من هدية تحكي أفضل من الببغاء، قد يوفّق بتعليمه بعض كلمات تُضحكها.

استيقظ باكراً ونزل إلى وسط المدينة.

المحال التجارية عادت تفتح أبوابها كالمعتاد ولو متأخرة. يريد أصحابها بأن النهار بدأ آمناً.

صاحب محلّ العصافير بكامل أناقته وربطة عنقه يُعلّق شخصياً الأقفاص في الخارج. بينها الببغاء. ألقى عليها نظام نظرة صديق قديم.

ينفض الرجل أوساخاً ضئيلة عن بذلته الصيفية ليبرر غيظه. يشتم العصافير إذا رفرفت في أقفاصها بقوة طارشة نحوه بقاياها.

كان يتكلم وحده.

رمى عليه نظام السلام وهو يدخل فأكمل الحديث معه.

قصة اضطراره للعمل بيديه.

قصة أحمد، الصبي الموظّف لديه منذ سنوات. هو ربّاه وصار خبيراً بالعصافير أكثر منه. في اليوم السابق دخل عليه شبّان من الأحزاب يسألونه إذا كان يعمل لديه شخص يدعى أحمد، فسألهم كيف عرفوا ذلك فقالوا إنهم يسمعون الببغاء يناديه كل يوم وهم يقومون بدورياتهم. يريدون أن يطرحوا عليه بعض الاسئلة حفاظاً على «أمن المنطقة». كان أحمد في الخامسة عشرة من العمر، يعلّم الببغاء أن تناديه باسمه وكلما جاء زبون واشتراها يعلّم أحمد الببغاء التالية ايضاً أن تناديه. حضر صباح هذا اليوم، قبل قليل، ليساعده في فتح المحلّ فأبلغه بأن عليه المغادرة بسرعة وعدم العودة إلى هنا. قد يأخذونه ولا يُرجعونه، يقتلونه ويرمونه. مرّر أحمد سبابته أمام منقار الببغاء مودعاً وذهب إلى بيته. لن يعود.

سأل نظام عن سعر الببغاء بعد أن كان قرر التفاوض حول كل ما يشتريه. يساوم لكنه في كل مرة يدفع ما يطلبه البائع. التفت إليه الرجل وقبل أن يجيبه، سمعا جلبة قوية في الخارج، أصوات صارخة ووقع

أقدام. همّ نظام بالخروج فحاول صاحب العصافير منعه حمايةً له.

شاب أسمر طويل يمرّ مسرعاً على الرصيف أمام باب المحلّ. كان شديد الخوف، يتلفت إلى الوراء وهو يركض. مسلّحان يلحقان به ويأمرانه بالعودة إليهما. لم يفعل، كان هلعاً لدرجة لا توصف. أطلّ نظام برأسه من باب المحلّ والرجل يحذّره من الخروج. توقف أحد المسلّحين، صوّب بندقيته على الهارب وأطلق رشقاً. مشى الشاب بضع خطوات وهو يلوي ظهره إلى الخلف، تعثّر ووقع أرضاً. فرّ المسلّحان في الاتجاه الذي أتيا منه.

ذراع الشاب سبق وجهه في السقوط فصار يخفي وجهه في ذراعه كما يفعل الولد الذي يغمض عينيه بانتظار أن يختبئ رفاقه عنه، أو كأنه مستاء من المشهد المحيط به فخبّأ عينَيه. لا يسيل منه الدم، جسمه ارتاح هناك أمام كنيسة الأرمن.

جُنّت العصافير، انتقل إليها خوف العابرين وأصحاب المحال، صارت ترفرف بأجنحتها داخل الأقفاص كأنها تحاول الإفلات. لم تزقزق، لم تثرثر عندما انفجرت طلقات الرصاص بل حاولت الهرب جميعها دفعة واحدة ولما فشلت هدأت وساد صمت ثقيل. توقف مرور السيارات ومن لم ينصرف من عابري السبيل هرباً وقف بوجل ينتظر ما سيحدث. خرج كاهن من باب الكنيسة، أقفل وراءه بالمفتاح وانسحب صعوداً من دون أن يلتفت إلى حيث القتيل ظلّ ممدّداً يخفي وجهه في ذراعه.

استأنف تاجر الطيور محاضرته:

– كان لا بدّ لهؤلاء من أن يقتلوا أحداً وها هم قد فعلوا فعلتهم

في النهاية، يخربون البلد...

بقي نظام في باب المحل يتابع المشهد. اقترب رجل مسنّ، محنيّ الظهر قليلاً، من القتيل الممدّد ورمى عليه قطعة قماش بيضاء. أراد الرجل ستر الميت عن عيون المارة قبل وصول الصليب الأحمر، لكن قطعة القماش كانت صغيرة بحيث أخفت وسطه فقط، فبقي مكشوف الرأس والرجلَين.

عادت العصافير إلى قفزاتها ورفرفاتها العادية. يقول البائع إن المسلحين مستنفرون منذ أيام، أسلحتهم شبه ظاهرة. يقولون إنهم يحرسون المنطقة من هجوم محتمل، هجوم مباغت يعدّ له الفلسطينيون والتنظيم الشعبي. يدّعون أن مهمتهم التأكد من عدم وجود متسللين.

يصل جيب الدرك مسرعاً، يترجّل الملازم ويوزّع المهمات على رجاله، يرتدون طاسات حديدية، يضربون طوقاً حول القتيل بانتظار وصول سيارة الإسعاف.

كان بائع العصافير الأنيق ينعى تجارته لكنه لم يقبل منح نظام أي حسم على سعر الببغاء، وكاد يخبره سيرته ويلعن الساعة التي قرّر فيها العودة من أفريقيا، لو لم يدفع له ما طلبه ويشكره حاملاً الطائر الأخضر والأحمر في قفصه ويمشي به في اتجاه القتيل الممدّد. أشار عليه أحد رجال الأمن بالابتعاد فأطلق الببغاء صرخة كأنه يريد إيقاظ القتيل المرمي أرضاً. ابتسم رجال الأمن المحيطون بالجثة رغماً عنهم. انحنى الملازم فوق القتيل وراح يفتّش في جيوبه فلم يعثر على هوية أو ما يدلّ على اسمه. كانت في جيبه صورة شمسية له فقط، ستنشر في اليوم التالي في الصحف كي يتعرّف أهله إليه.

وقف نظام على مقربة، حاملاً الببغاء في قفصها. وصل مصوّران صحافيان قبل سيارة الإسعاف. سارعا إلى الركوع أرضاً وتوجيه عدساتهما نحو القتيل. كان رجال الدرك يحسنون من وقفتهم فلمعت الفلاشات في لقطة تضمّ معاً القتيل والكنيسة ورجال الدرك ورجلاً في متوسط العمر، فضولياً انتهز انشغال رجال الأمن بالمصوّرين كي يقترب ويدير وجهه نحو آلات التصوير كأنه هو أيضاً في وقفة تذكارية.

سرت وشوشات بأن القتيل فلسطيني، ضابط في منظمة الصاعقة كان يتجسّس هنا في المنطقة، ادّعى أحدهم أنه يعرفه، إنه سوري أو ربما كردي يعمل في سوق الخضار.

نهض المصوّران فانتبه أحدهما لنظام حاملاً الببغاء فالتقط له صورة ثم طلب منه أن يقف إلى جانب القتيل. لم تظهر صورة نظام في أيّ من الصحف حاملاً قفص الببغاء إلى جانب القتيل. ربما لأن المصوّر انشغل عنه بوصول سيارة الإسعاف مطلقة صفارة الإنذار، فأدار عدسته في اتجاهها ونسي نظام أو ربما لأن من يختار الصور لنشرها لم يكن ليستسيغ السخرية في ذلك اليوم وما أعقبه من مآسٍ مروّعة. رفع مسعفان الشاب الصريع على محمل، كان ممدّداً فوق بقعة الدم، نائماً على دمه، حزّماه وحملاه إلى السيارة التي انطلقت بأقصى سرعة مطلقة بوق الخطر عن آخره مع أن الرجل شبع موتاً. انسحب رجال الأمن بدورهم و لم يعد هناك ما يراه الفضوليون سوى بقعة الدم التي ستمحوها أرجل العابرين لأن أحداً لن يتطوّع لتنظيفها.

بدأ أصحاب المحال التجارية إقفال أبوابهم والانصراف إلى بيوتهم. انتهى نهارهم قبل أن يبدأ.

وقف نظام للحظة كمن يتنسّم الهواء، تذكّر رفّول ونصائحه لكنه لم يغيّر خطته فسار في اتجاه شارع لبنان حاملاً هدية جَنان بيده. المارة الذين بدأت تصلهم أخبار ما حدث بعد أن سمعوا إطلاق النار، يتلفتون بنظراتهم القلقة فتنبسط أساريرهم للحظة وجيزة إذا ما رأوا الببغاء في يد نظام.

فجأة، وبلا أدنى حركة جناح من ضيق أو ضجر، طرح الطائر المزوّق سؤاله الوحيد:

أنت أحمد؟

في وجه رجل كان يمشي مسرعاً فالتفت الرجل إلى مصدر الصوت وحامله وقد ارتسم على وجهه شيء من الكدر والاستغراب. بعد مسافة قصيرة، كرّر الببغاء سؤاله بصوت صافٍ ومفهوم تماماً. صحيح أنه ليس الببغاء نفسه الذي رآه نظام في أولٍ أيام نزوله إلى بيروت، لكن طريقة طرحه السؤال، كما علّمه إيّاه أحمد الصغير قبل فراره المبكر، كانت هي نفسها، لهجة ملحاحة تنتظر جواباً من المارة الذين لم تكن وصلتهم بعد أخبار القتيل في ساحة الدبّاس. راح الطائر يطلق سؤاله بلا توقف وفي جميع الاتجاهات كأنه أصيب بنوبة والمعلمات الخارجات من المدرسة الأهلية الأرثوذكسية يلتفتن إليه بنظرة مرح تليها مباشرة علامة استفهام حول وجود محتمل لأحمد هذا بينهم في هذا الوقت العصيب بعد أن بدأت تتردّد أصوات رصاص يُطلق في وسط المدينة.

وسّع نظام خطاه نزولاً في شارع لبنان وكاد يعدو إسكاتاً للببغاء لكن من دون جدوى. قبل وصوله إلى مدخل بناية جَنان، كان قد نزع

سترته ورماها على القفص ليعتّم على الطائر فتوقّف عن المناداة لكنه راح يضرب بجناحَيه بلا هوادة. وصل به نظام إلى المحترف حيث التجأت جَنان هرباً من رنين الهاتف الذي لا ينقطع في بيت أهلها، كما تقول. يعتقد الأقارب والأصحاب أن والدها عالم بما يحدث بسبب وظيفته في وزارة الخارجية. يسألونه وقبل أن يجيب يخبرونه بأنه تمّ اكتشاف أنفاق حفرها الفلسطينيون تؤدّي من مخيم تل الزعتر إلى مناطق أخرى وقد تمكنوا، ولا تقول من هم، من كشف هذه الأنفاق بعد أن صارت تسمع أصوات تحت الأرض، هدير عميق، خصوصاً في الليل عندما تكون المدينة ساكنة.

هربت إلى المحترف حيث وجدها نظام، فرحت كثيراً بالببغاء، صفّقت بيديها ترحيباً وراحت تلاعبه، تقول له:

المستنقعات العكرة تتكون من أزاهير الأعماق، عروس الماء مقطوعة الرأس، أبحث عن الوردة التي لا يمكنها أن تجرحني...

كانت كأنها بين الهزل والقلب الحزين تؤدي دوراً مسرحياً حفظته غيباً.

ينظر إليها نظام مشدوهاً.

تنزل أمها لتحذّرها من مغادرة البيت لأن الأمور انفجرت بشكل سيئ. جَنان لا تصغي، لا يخبرونها الكثير لأنها لا تحتمل الكثير.

لن يتمكن نظام من العودة إلى المنارة. سينام في شارع لبنان.

أوصته بالببغاء قبل أن تفارقه في ساعة متأخرة من الليل وتصعد إلى شقّة أهلها، أحبّت الببغاء وتعتقد أنها ستتحادث معه طويلاً.

يغفو نظام مع لوحاتها ذات الألوان الداكنة ولو أن بصيص الأحمر القاني كان يلمع أحياناً في الضوء المتسرّب من الخارج إلى ليل المحترف، تريده قريباً منها محجوباً عنها، تترك له لوحاتها وتأسره بالكلام:

– أثمن ما لديّ في هذه الدنيا، أنت ولوحاتي، نائمَين معاً.

تريد أن تجدهما معاً صباحاً عندما تستيقظ فتنزل إليه بالقهوة. غطّى الببغاء بسترته واستلقى من دون أن يخلع ثيابه، ولا حتى حذاءه.

كانت أخبار الحرب تصل إلى شقّة أهل جَنان ثم تهبط عليهما إلى المحترف، مخففة مشذّبة، تأتي بها أمها، فلا تسألها جَنان عن المزيد بل ترتدي مئزرها وتبدأ اختيار ريَشها، تبتعد نحو لوحاتها لتفسح المجال لأمها الواقفة قرب الباب كي تخبر نظام بالتفاصيل:

– إنهم يخطفون المسيحيين، يعصبون عيونهم ثم يأخذونهم إلى مقبرة الباشورة وهناك يقتلونهم...

يتّفقان همساً على توفير هذه الأخبار على جَنان.

نام ثلاث ليالٍ في المحترف، داخل فقاعة يحرسها والدا جَنان. اعتاد رائحة ألوانها القويّة، أحبّها كما يحب روائح البحر والسمك في الميناء.

في اليوم الرابع دخلت أمها مبتسمة لتعلن التوصّل إلى وقف لإطلاق النار فصرخت به جَنان:

– لن تذهب من هنا!

خلعت مئزرها، ضربت ريشتها أرضاً واستسلمت.

أمسكها طويلاً من رأسها، ضمّها إلى صدره:

– أعود قريباً...

نام نظام في شارع لبنان ونام شمعون رخّو في شقة المنارة، ليلة في غرفة الأولاد وانتقل من بعدها إلى السرير المزدوج. وكان شمعون قد دخل أخيراً إلى أحد المخيمات الفلسطينية حيث أعطوه مكتباً صغيراً يعمل وينام فيه أيضاً. كاد يموت ضجراً فيخرج كل يوم وإذا تمكن من النوم خارجاً لا يتردد. العراقي الهامس يمضي وقته وهو يشرح للزوجَين الأميركيين ما يحصل في بيروت فتزداد أسئلتهما.

سألاه عن موريس.

ألكسي بيضا.

اختفى ألكسي، لطافته، موسيقاه وعائلته. طالب والده بتعويضه من أصحاب المصرف حيث يعمل مديراً، وجد الجيران باب بيتهم مفتوحاً فدخلوا ليجدوا الشقة خالية تماماً من الأثاث، باعوه سرّاً، إلى أصحاب مخلصين وسافروا. قيل إنهم خافوا على موريس إن هو بقي في بيروت فرحّلوه أولاً إلى أمستردام، خلال أول وقف لإطلاق النار. مقتنع شمعون رخّو بأن ألكسي كان عارفاً بما سيحدث وأن حمله الناي إلى شقّة المنارة وعزفه عليه طويلاً من دون أن يرجوه أحد كان تلك الليلة بمثابة حفل الوداع. محطة رحلة آل بيضا الأخيرة كانت في مطار تل أبيب، كما قيل لاحقاً، حيث وجدوا بيتاً جاهزاً في انتظارهم.

نسي الرفاق موريس وعادت الحياة إلى طبيعتها مرة ثانية، فعاد نظام إلى المنارة.

فاسكو كان قد سبقه إليها. يشعر بأنه مسجون هناك، في المنطقة الشرقية، معوّق من رجلَيه ومن رأسه، لا يصادق أحداً، لا يخرج إلى الجوار، يستمع إلى نشرات الأخبار المتتالية، ويصرّ على الانتقال إلى

المنطقة الغربية مهما بلغ التوتر. ولو أعلن المذيع أن جميع المعابر مقفلة وأن لا طرق سالكة، يهاتف أحد الرفاق في الطرف الآخر، يسأله عما يحتاجون إليه. إذا انقطع الوقود عندهم يحمل لهم معه غالونات في صندوق السيارة أو ربطات من الخبز ليوفّر عليهم الوقوف صفّاً مضنياً أمام أبواب الأفران. يعرف أي طريق يسلك، صار خبيراً في المعابر المفتوحة أمام السيارات.

4

عادت أولغا فيليبوفنا، بلا إنذار، ولا رسالة.

هبطت في مطار بيروت بين الجولتين الثانية والثالثة، ضربت باب الشقّة بخاتمها.

– أضعت مفتاحي.

قالت وهي تدخل.

– غيّرت القفل لأن نصف بيروت صارت تحمل مفتاح بيتك...

أجابها نظام بلا تردّد كأنه مستعدّ من زمان لسؤالها.

قبل ثلاث سنوات، تحادثا دقائق واختفت. أكمل نظام قصتها مما خلّفته وراءها، الصور، الثياب، بعض الكتب، قصة فيها فجوات كثيرة كان يملأها أحياناً برغبته فيها، بالبطاقات البريدية التي أرسلتها من هنا أو من هناك، بما أخبره سيريل عنها في السوق العمومي وبما ساقه علي سويدان حولها وحول زوجها. زوجها الذي لم يرَه بل رأى آثاره.

ضحكا وتعانقا بشدّة، خداً على خدّ. تذكّر نظام طعم قبلتها في المصعد المترجرج يوم أنذرته بأن يهرب من بيروت. بقي شغفه بجسدها معلّقاً، حاضراً في أغراضها، في ثيابها، في سهولة تخيّله لحميمياتها، في أغطيتها التي ينام فيها، في بعض فساتينها وأحذيتها التي تركتها وراءها.

حاول ان يسألها لماذا عادت فوضعت يدها على فمه.

– أخبرك كل شيء لاحقاً، انا الآن جائعة... لم أحبّ أكل الطائرة.

أكلت بسرعة كأنها في محطة ستستأنف بعدها رحلتها. التفتت نحو مار جرجس:

– الأيقونة في مكانها... إنها تحرسني.

قالتها غير مقتنعة هذه المرة.

تتذكّر أمّها، تتوقف لحظة وتقول:

– أحب أمّي عن بعد فقط.

ثم بدأت تجول في البيت، تخاطب أحد أقاربها في الصوَر، مبتسمة من فرحة اللقاء:

– سيرغي...

تمسح عنه الغبار، تنتقل إلى صورة عمّتها، تحملها، تقبّلها.

تفرح، تنفعل، تقبّل نظام على خدّه بسرعة وتنظّف مكان القبلة بحركة من يدها، قبلة صديقة أو شقيقة أكبر سنّاً. عادت إلى الصالون، اطمأنّت على الغراندوق لكنها لم تعثر على جدّتها لأمها.

– كانت هنا، سمّوني على اسمها...

تكاد تبكي من الحرقة المصطنعة او الحقيقية. تدخل إلى غرفة النوم، تُحصي ثيابها وتصرخ سائلة عن مصير فستانها الأحمر. أعاره ليسرى ونسيت إعادته يوم ردّت ساعة الجيب.

عادت أولغا إلى مار جرجس. اقتربت. هي أيضاً وضعت يدها على خوذته الحديدية البيضاء وسألته ما كان يخشاه من لحظة دخولها:

– ماذا أصابه؟

تلاطفه كأنه طفل جريح.

– تخبرينني أخبرك...

– قلت لك اني سأعود من أجل أمي، صحّتها متدهورة... بعثت لي برسالة تطلب مني العودة إليها قبل أن تموت.

تبتعد وتقترب من الأيقونة. كررت عليه السؤال فأخبرها بأنه كان واقفاً إلى جانب الكنبة الصغيرة، هنا، فمرّت الرصاصة على بعد سنتيمترات من أذنه.

– الرصاصة؟

أضاف أن هناك ما هو أسوأ وأنّه صار عضواً في جماعة يقدّسون لينين.

كأنه لسعها مرّتين دفعة واحدة.

أخبرته تفاصيل مبعثرة عن غيبتها الطويلة، لم تأتِ فيها على ذكر جايمس كوبرن أو لوس أنجلس. محقّ ربما موسى الذي نشر أخبار نظام في حَورا ومن بينها أنه يعاشر الممثلات لاعتقاده أن المرأة التي يبادلها جايمس كوبرن الغرام لا بدّ أن تكون ممثّلة. محقّ بأنه لا يُعقل أن يكون الممثل النحيل في مكانين معاً، على شاشة السينما الصغيرة في حَورا يحارب ببراعته وسكينه الأشقياء من المكسيكيين الذين يسطون على قرية للفلاحين الفقراء، وأن يكون في السرير مع أولغا فيليبوفنا في أحد الفنادق الأميركية الفاخرة.

جلست بقربه، سألته إذا كان يقبل بها أن تنام في الشقّة لأنها تعبة وتفضّل الذهاب إلى أمها صباح الغدّ. ابتسم وعرض عليها سريرها الزوجي لكنها فضّلت الغرفة الأخرى فاعترض فأفهمته بأنهما لن يناما معاً.

وجدها شمعون رخّو في الصباح. كانا لا يزالان نائمين عندما فتح الباب من دون ضجّة وجلس في الصالون ينتظر نهوض نظام. ظهرَت أمامه فجأة، تنام عارية، خرجت من غرفة النوم وسحبت معها الشرشف الأبيض الذي كان يغطيها من برودة الليل. قبل أن تنجح في لفّ جسمها الأبيض الجميل به كانت قد وصلت إلى الصالون فوقعت على شمعون يدخّن بلذّة وهو يقرأ بنشوة موازية وبصوت ضعيف لكن مسموع قصيدة لبدر شاكر السيّاب يتغزّل فيها بالعراق. ذُعرت أولغا ولفّت جسمها وهي تشمّ رائحة المكان:

– تحبّون ليون تروتسكي وتدخّنون الحشيشة قبل طلوع الضوء؟

لم يتحمّل شمعون التهمتين معاً، فردّ وهو مأخوذ بمفاتنها الظاهرة:

– انا لا أحبّ تروتسكي...

يقصد أنه كان من أنصار إقامة الاشتراكية في بلد واحد.

أيّدته بالقول:

– تروتسكي قتل نصف أهلي!

لم يفهم شمعون كيف تكون لليون تروتسكي ثارات شخصية ما تزال حيّة في رأس بيروت حيث تصل كتبه بترجماتها العربية السيّئة كأنها خارجة من تاريخ قديم لم يعد له أي صلة بالناس الأحياء.

في اليوم التالي انتقلت إلى بيت أمها في جونيه لتطمئن على صحتها وصارت توزع أوقاتها بين أمها وشقة المنارة، تفضّل النوم في المنارة وتمضية بعض الوقت نهاراً مع أمها. أمها ثرية وبخيلة، فرضت عليها أولغا أن تعطيها ما يكفي لاستئجار سيارة صغيرة من نوع ميني كوبر تستخدمها لزيارتها.

سألوا نظام عن أولغا في غيابها فلم يصدّقوا أنه لا ينام معها في السرير نفسه ليلاً... لم يحسده الرفاق على يسرى، أما أولغا فشأن آخر، غنيمة ربما تكون من نصيبهم هم الأكثر فهماً وثقافة إن لم يكونوا أكثر وسامة منه. كانت أولغا تكبره بأكثر من عشر سنوات، فلم يعتبر تمضية الليل معها في شقّة واحدة خيانة لجَنان، أخبر جَنان بكلام عابر أن صاحبة الشقة عادت. بلا المزيد من التفاصيل. يخشى إيذاءها.

تُشعره أولغا بأن الملامسات الصغيرة والمداعبات السريعة هي جزء من سلوكها الجسدي العادي وليست تصرّفات لها المعنى المألوف بين الرجل والمرأة، أي إنها إذا أمسكت بيده طويلاً وداعبت أصابعه فلا يجدر به أن يطوّقها بذراعيه أو يدخل يديه في فجوات فستانها العديدة.

وفي ليلة حصل فيها قصف من الطيران الاسرائيلي لجهة المدينة الرياضية، اضطر شمعون رخو أن ينام في الشقة لأن عودته إلى المخيّم لن تكون مأمونة في الليل بالرغم من بطاقة حركة فتح برتبة ملازم التي يحملها باسم مسلم مستعار وممهورة بتوقيع أبو جهاد شخصياً. العناصر غير المنضبطة تتكاثر وتفلت ليلاً.

أعطوه غرفة الصغار فاضطرت أولغا للانتقال إلى غرفة نظام، وضعت مخدّة عريضة بينهما، أدارت له ظهرها، غفت بعد وقت قصير. نظام لا يغفو، ينهض إلى المطبخ، إلى الشرفة، يعود، يتقلّب، عند الفجر اصطدم بها عارية، فخذه بفخذها، يده في صدرها، تكاد تستسلم وهي شبه نائمة. تستيقظ فجأة، تقبّله في أذنه تعويضاً، تقول ضاحكة إنه لا يؤمَن له. تهرع إلى الحمّام، تستحم وتعود فيخبرها مطمئناً بأنه ينوي الزواج بصديقة له في الشطر الآخر من العاصمة فلا تعلّق.

تسلّت أولغا بالأصدقاء. يدخل نظام إلى الشقّة فيجدها مع فاسكو ومرافقه واقف إلى جانبه، لا يحبّ الجلوس. صار فاسكو يواظب على الحضور إلى الشقّة مثل أيام السلم، يجالس أولغا، تضع يدها على كتفه، سلوكها المعهود، ألفة سريعة، تروي له حكاية أيقونة مار جرجس، تخبره وهي تنظر إلى نظام أنها قديمة ونادرة، فيقول فاسكو إنه رآها من قبل في إحدى الكنائس، يسألها إذا كانت تودّ بيعها. كان فاسكو خبيراً وعاشقاً للسجاد ما يؤهّله ربما لبعض الخبرة في أيقونات الكنيسة الأرثوذكسية إضافة إلى سعة اطّلاعه على الفلسفة الألمانية واقترابه من إنهاء ترجمة كتاب **نقد العقل المحض** لعمانوئيل كانط.

5

رافقها نظام إلى جونيه صباح يوم السبت في سيارة الميني كوبر الحمراء والبيضاء. ما إن عرّفت أولغا أمّها بنظام حتى باشرت هجومها:

– لا تشبعين يا أولغا من الشباب الحلوين...

تحكي بصوت عال لأن سمعها ضعف كثيراً.

أولغا لا تتراجع في المواجهة ولو تقدّمت أمها بالسنّ:

– عوائد أمّي!

وجدت أولغا أن أمها بصحة جيدة. ادّعت أنها تموت كي تراها. تفضّل ألا تنام عندها لأنهما ستتخاصمان في الصغيرة والكبيرة.

دعتهما إلى الغداء واعتذرت لأنها ستغيب ساعة واحدة، لا تريد تفويت القداس عليها.

لم ينتظراها، عادا إلى بيروت. كانت الشوارع مكتظّة صباحاً، الكثير من المارة والكثير من السيارات. أشار عليها نظام أن تسلك الطريق البحري لجهة المرفأ فوقعا وسط حاجز طيّار.

حتى ذلك اليوم لم يكن نظام أبرز بطاقة هويته أمام أحد غير الرقيب في الدرك الذي دخل عليهم شقّة المنارة. استحصل له عليها توما من

سرايا طرابلس وطالما تباهى أمام رفاقه بأن مأمور النفوس ملأ الخانات المخصصة لأوصافه الشخصية التي أملاها عليه توما في غيابه بينما لم تأت هوياتهم على أي ذكر لها. كذلك حاول توما أن يُثني الموظف عن ذكر مذهبه فأصرّ هذا الأخير عملاً بالقانون، فصمّم توما على محو عبارة مسلم سنّي التي خطّها المأمور في خانة الدين. ويذكر نظام أنه رأى هذه العبارة على هويته مرّة ومن ثمّ زالت وبقيت مكانها آثار طفيفة لتمزّق في الصفحة من جرّاء المحو. مرّ على الكثير من الحواجز المسلحة وفي كل مرة كان الجندي أو الدركي أو العنصر الحزبيّ المسلّح المخوّل بالتدقيق بهويات ركّاب السيارات الواقفة صفّاً تنتظر إشارته يحني رأسه لينظر من خلال الشبابيك في وجوه الركّاب واحداً واحداً، كان كلما وصل إليه يشيح بنظره عنه بسرعة، كان رجال الحواجز يرتاحون عموماً إلى مظهره فلم يطلب منه أي منهم إبراز هويّة.

المسلّح الذي أخذ بطاقة هويته في شارع المرفأ لم يكن ينظر إلى الوجوه، كان يتلفت منشغلاً، قلقاً لما يحدث حوله، لخطر يتهدّده هو. لم يكن هناك من حاجز منصوب، انقضّ المسلّحون على السيارات، خرجوا من شوارع جانبية أو من أبنية مجاورة. فجأة صار المكان يعجّ بهم. مرتدين الثياب المدنية، مزنّرين بجعب الخرطوش ومنهم من ربط قنبلة يدوية على وسطه أو شكّ مسدساً بالإضافة إلى البندقية الأوتوماتيكية. توزّعوا. منهم للحراسة ومنهم يضرب على حديد السيارات في إشارة إلى السائقين بأن يتوقّفوا. يصرخ المسلّح في الركّاب من دون أن ينظر إليهم:

– الهويات... بسرعة.

الشاب الذي أصدر إليهما الأمر كان منفعلاً مرتبكاً، خائفاً وأخافهما. غمزت أولغا نظام وأعطت المسلّح هويتها. رمى على البطاقة نظرة سريعة وانحنى لينظر إلى صاحبتها. الميني كوبر واطئة وهو طويل القامة، كان الطقس حاراً وأولغا ترتدي ثوباً خفيفاً يكشف عن كتفَيها وكذلك عن قسم من ظهرها وصدرها. أطال النظر إليها ثم رمق نظام بنظرة خاطفة. أعجبته أولغا، تُعجب الرجال جميعهم.

كان نظام يشعر بأن الأكبر منه سنّاً لا يعتبرونه عائقاً أمام تحرّشهم بأولغا لكونه يبدو صغيراً ولطيفاً بما يكفي ليكون مجرد نسيب لها في أسوأ الأحوال. لم يكن يؤمّن لها حرمة كافية في وجه أصحاب الرغبات العابرة، لذا كانت العيون تلتهمها وتمرّ عليه بسرعة، فقط للتأكد من احتمالات علاقته بها. كانت السيارات تتكاثر وراءهم، ردّ لها المسلّح بطاقة هويتها وهو يودّعها بعينَين حادقتَين، كاد يؤشّر بيده لها أن تتقدّم لمّا تذكّره.

– أنت، أعطني هويتك...

عاد يتلفّت مضطرباً، كان يفقد صبره بسرعة.

سمع نظام أول زخّة رصاص في مكان قريب. ترجّل رجل أشيب الشعر من السيارة المتوقفة خلفهما فصرخ به المسلّح أن لا يفعل ويعود إلى سيارته. امتثل الرجل. عرف نظام أنهم مسيحيون من الصليب المتدلّي من رقبة المسلّح الذي كان يدقق في الهويات. كان المسلّح ممسكاً بهويته لم يلقِ عليها نظرة بعد لانشغاله بتطوّر الوضع حوله في الشارع. مدّ نظام يده ليستردّها، عندها فقط أحنى المسلّح رأسه من جديد ونظر إليه، كالعادة لم يجد في وجهه ما يدعوه لمزيد من

التفحّص. الهوية في يده ولا يقرأها، كأن أولغا أعجبته ولا يريد التخلّي عنهما في هذا الخضمّ، يبحث عن ذريعة. سمعا زخّات رصاص أخرى، خلف مبنى الجمارك. كان انفجار العيارات النارية مكتوماً بعض الشيء، رصاص يصطدم بهدفه ولا يُطلق في الهواء. عشرات السيارات متوقّفة تنتظر قرار المسلّحين، لا أحد يجروء على الكلام ولا على الترجّل وهم يقفزون بين السيارات ويطلقون الأوامر وينادي بعضهم بعضاً بأسمائهم الصغرى. كأنهم رفقة حيّ أكثر منهم عناصر في حزب.

سأله عن اسمه بدل أن يقرأ في الهوية. كانت عيناه تلعبان دون توقف. اسم نظام لم يعنِ له الكثير فمدّ يده ليرد له البطاقة ويصرفهما مكرهاً لكنه رمى عليها نظرة من طرف عينه فانتبه إلى اسم والد نظام. صرخ فجأة كأنه عثر على ضالته:

– محمود، انزل...

قالت أولغا إن اسمه نظام وليس محمود. نظر مجدداً إلى البطاقة ليتأكد وكرر عليه الأمر بأن يترجّل. ترجّل نظام فأعطى المسلّح أولغا الإشارة بالتقدّم، ارتبكت في تغيير مشغّل السرعات فانطفأ المحرّك. صرخ بها أن تمشي. يرافق الرصاص الذي كانت يطلق في الشوارع الجانبية صراخ بعيد، شيء من التوسّل أو الاعتراض. ازدحم السير فأفرغ أحدهم رصاص رشاشه في الهواء ورفاقه يصرخون كالمجانين على السائقين أن يتقدموا... هدأ الرصاص فأمر المسلّح الذي طلب من نظام الترجّل أحد رفاقه:

– جورج خذه...

كان جورج يحمل في يده أكياساً سوداء من القماش فسارع إلى

إدخال أحدها في رأس نظام وراح يدفعه بيده كي يمشي. يأخذه على الأرجح إلى حيث تصدر الأصوات وطلقات الرصاص. كان جورج عملاقاً ملتحياً ممتلئاً لكنه لم يكن في عداد من يقتلون. مهمته تسليم الأشخاص إلى رفاقه الكامنين خلف المبنى.

أمره أن يمشي. لم يكن نظام واثقاً أين يضع قدميه على الرصيف المتكسّر وكان يسمع صوت أولغا من بعيد، من حيث تقدّمت بسيارة الميني كوبر، تقول إنه ليس مسلماً وإنه بريء. أضافت باتجاه نظام أنها تنتظره في الجهة الأمامية من الطريق وطلبت منه ألا يخاف. كانت مضطرة إلى التقدم بسرعة تحت وابل صراخ المسلّحين. بقي متماسكاً صامتاً لبضع خطوات متعثّرة بسبب الكيس الذي حوّله إلى أعمى. كانا يقتربان من مبنى الجمارك ومرافقه يمسكه من كتفه كي يبقى في الاتجاه الصحيح. طالما كانت سيارة أولغا تسير بمحاذاتهما هو والمسلح ويسمع صوتها تطلب منه ألا يخاف وأنهم سيطلقون سراحه، كان يشعر بأنه لا يزال موصولاً، لكن لما صرخ أحد المسلّحين على أولغا أن تسكت وتبتعد، ومع تقدّمهما باتجاه مصدر زخّات الرصاص انكسر نظام.

انكسر فتوقف. صار عاجزاً عن نقل رجله إلى الأمام. نهره جورج فمدّ نظام يديه نحوه يبحث عنه، يتلمّسه من خلف سواد بصره. قال له فجأة إنه ماروني، مسيحي مثله. رجاه أن يصدّقه، صحيح أنه ولد مسلماً لكن جدته لأمه مسيحية من سوريا وهو صار مسيحياً. كان يرفع صوته كي يصل إلى مرافقه، حاول رفع الكيس عن وجهه فمنعه المسلّح. كان يحكي بسرعة وتوتر، صحيح أن والده يدعى محمود لكنه لم يمضِ حياته معه ولا مع أهله هؤلاء. لم يسألوا عنه و لم يسأل عنهم،

أمسكه من ذراعه التي لا يحمل بها رشاشه ليبعده عنه بحزم ويدفعه إلى السير قدماً فمشى خطوة أو خطوتين بصعوبة فائقة. تذكّر هويته فطالبه أن ينظر فيتأكد أن لا ديانة مذكورة على بطاقته. أخذ المسلّح الهوية، نظر إليها بسرعة ووضعها في جيبه. تكاثرت الرشقات النارية، طلب منه أن يصمت فلم ينصع بل أخبره كيف أنه تعمّد فوق في كنيسة بجوار حَورا.

قاطعه المسلّح:

– تعرف حَورا؟

أكمل نظام أن الكاهن دلق على رأسه الماء وهو في الواحدة والعشرين من عمره، كان المسلّح ما يزال يدفعه لكن نظام أحسّ بأنه تباطأ قليلاً. كان نظام يهذي بأي كلام يخطر في باله. أن المرأة التي تقود السيارة مسيحية، أنه ينوي الزواج بجَنان سالم وأن والدها مسؤول التشريفات في وزارة الخارجية اللبنانية، وأشار بيده في الاتجاه الذي حسب أن الوزارة قائمة فيه، طلب منه التأكد من رقم هاتفها فهو مكتوب على غلاف بطاقة هويته. لم يكتفِ بالكلام، أدخل يده تحت قميصه، اراد إخراج الأيقونة الصغيرة التي أعطته إياها رخيمة قبل نزوله إلى بيروت، أيقونة الحبل بلا دنس. تلمّس بيده المرتجفة وهو يخشى إخراج آية الكرسي. آية الكرسي مربّعة، زواياها حادة، الأيقونة بيضوية الأطراف. كانت هناك العين الزرقاء أيضاً. تعرّف على أيقونة الحبل بلا دنس الصغيرة، أخرجها من صدره، نزعها بقوة من عنقه فقطع خيطها وراح يقبّلها كالمجنون، كاد يقضمها بأسنانه، أعطاها للمسلّح الذي أخذها ودسّها في جيبه مع بطاقة الهوية.

توقف مرافقه عن دفعه فارتاح قليلاً لكنه لم يتوقف عن الكلام. كانا

يقتربان بالتأكيد من مبنى الجمارك. بدأ نظام بتلاوة «الأبانا والسلام»، لم يردّد منها الكثير، مطلع الأولى ومطلع الثانية لتأكيد معرفته لها. كان مضطراً إلى أن يكثر من البراهين فانتقل إلى «نؤمن بإله واحد آب ضابط الكلّ خالق السماوات والأرض...» قال إن رفاقه مسيحيون وتعلّم في مدرسة للراهبات اللعازاريات، وراح يعدّد أسماء الراهبات، الأخت بازيل، الأخت فرنسيسكا، مادموازيل لور. لم يعد يشعر بيد المسلّح على كتفه تدفعه إلى الأمام فتشجّع وأخرج برهانه الكبير فبدأ بصلاة الجنّار بالسريانية، يقولها ملحّنة كما يعرفها، بالصوت العالي، وسط الرصاص المتقطّع والأوامر التي تسقط على سائقي السيارات وركّابها:

– شوبوحو الموريو كلخن عامه والعترن باسمي طوبه وريح مدوران نسيمو نهوان...

صرخ به جورج أن يتوقّف لكن لهجته كانت هادئة هذه المرّة. رفع الكيس فجأة عن رأس نظام، نظر في وجهه وأمره:

– شكلك مسيحي، روح بسرعة...

أضاف:

– ولا تمرّ من هنا مجدداً.

رفع نظام ذراعيه نحو وجهه ليقبّله فأبعده جورج عنه بضربة من كتفه، أمسكه نظام من يده اليسرى ورفعها إلى فمه بنيّة تقبيلها فأفلت منه وصرخ به أن ينصرف بلهجة الإنذار طالباً منه ألا يركض.

اللحظة والرجولة والموت لا تحتمل التقبيل.

كانت أولغا تتابعهما من بعيد، رأته يحاول تقبيل يد المسلّح السمين. استدار عائداً إلى حيث كان رفاقه ينزلون مزيداً من الركّاب

من السيارات. إذا وقعوا على ضالتهم يسلّمونه إياها. بقي نظام وحده على الرصيف. لم يركض، مشى بسرعة لا يلتفت لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، توقع رصاصة في أي لحظة، عبر في محاذاة مبنى الجمارك، سمع أصواتاً وجلبة وزخّة رصاص فارتعد، أحس أنه لم يبق منه سوى رأسه وعينيه المسمّرتين على سيارة أولغا الواقفة تنتظره. فتحت له الباب الجانبي فدلف إلى السيارة. جلس، تنفّس عميقاً، قال إن الذي تركه يذهب في سبيله يدعى جورج.

– دخيل اسمه!

هتفت أولغا. وضع نظام رأسه فوق ركبتَيه. دخل في صمت مطبق، كأنه قال كل كلام هو قادر عليه دفعة واحدة أمام المسلّح الضخم الجثة. سألته أولغا عما إذا كان رأى ماذا يحدث خلف بناية الجمارك فلم يجب. رأى ولم يجبها. رآهم يصنعون من الجثث كومة، الكثير من الرجال وبعض النساء أيضاً، بينهم شاب بلباس الجيش، يأتون بهم والكيس في الرأس أمام رجل يطلق عليهم النار، مطلق النار لا يريد رؤية وجوه ضحاياه ربما، ينزعون الكيس من رأس القتيل ويرمونه جانباً.

6

نسي تماماً كيف وصلا إلى شقّة المنارة. فور دخولها، توجّهت أولغا إلى أيقونة القديس جرجس، ركعت أمامها وطبعت عند زاويتها السفلى إلى اليمين، بالقرب من أظافر رجل التنّين الناتئة، قبلة خاشعة طويلة ثم تمتمت بالروسية عبارات صلاة قصيرة ورسمت إشارة الصليب. ارتمى نظام خائراً على الكنبة، نزعت أولغا حذاءها وجلست بجانبه، شبكت أصابع يدها بأصابع يده. كانت الانفجارات قريبة، وأخرى عميقة، الرشقات الرشاشة تملأ الجوّ، تصل أصواتها من الجهات الأربع. قُرع الباب فلم يتحركا. سمعا كلاماً بين الأستاذ الأميركي وزوجته قبل أن ينصرفا. مشت أولغا على رؤوس أصابعها إلى الباب وأغلقت المزلاج من الداخل، ربما يأتي من معه مفتاح الشقّة بعدهما. كان نظام مهدوداً مذهولاً، تتزايد الانفجارات وصفارات سيارات الإسعاف. لم يتبادلا كلمة، لم تنظر إليه مرة واحدة بعين الشفقة، لم تحاول مؤاساته ولا الترفيه عنه، لم تحضّر له القهوة، لم تعرض عليه سيجارة ولا كوب ماء، حتى هي لم تشعل سيجارة. انحنت أمامه، ركعت على رجل واحدة ونزعت بتأنّ حذاءه ثم جواربه. طلبت منه الوقوف وهو مستسلم فانتقلت إلى حزامه، ثم راحت تفرغ جيوبه

وتضع ما فيها من مال وأوراق على الطاولة. أكملت نزع ثيابه، ساعدها قليلاً، رمت على كتفه منشفة كبيرة ووجهته نحو الحمّام، فتحت المياه، وضعت يدها تتحسّسها، انتظرتها كي تسخن قليلاً ثم دفعته تحت الرشاشة. التقط أنفاسه بعض الشيء، وقف مستسلماً للماء لبضع دقائق وخرج قبل أن ينشّف جسمه جيداً، مرتدياً عباءة بيضاء نادراً ما يرتديها. وجد أولغا جالسة على السرير، شابكة رجلَيها أمامها، تلفّ جسمها بشرشف النوم يظهر منه ثديها الأيمن وفخذها الأبيض، تنظر اليه بإغراء متعمّد. صوت الانفجارات قريب، كأنها تحصل في أسفل الشارع. ابتسم بصعوبة وهمّ بالصعود إلى السرير، تراجعت بجسمها إلى الوراء موحية بأنها تهرب منه. تردّد قليلاً قبل أن يدرك لعبتها، أغمض عينَيه ورمى نفسه على السرير محاولاً الإمساك بها فخدشته قليلاً بأظافرها لتبعده عنها. تراجع فوقفت على ركبتيها وهي تلفّ الشرشف حول جسمها قدر المستطاع. اقتربت منه، توقّف ليترك الدور لها، لامست خدّه بخدّها، همست في أذنه، أدخلت لسانها وداعبته قبل أن تبتعد من جديد. أزيز الرصاص يملأ الجوار، يُسمع صراخ تحذير في الشارع. أمسك الشرشف الابيض من طرفه، حاول سحبه نحوه، إما يظهر عريها كاملاً وإما تلفّ نفسها به فتضطر إلى الاقتراب منه. قامت بالأمرين معاً، التصقت به وأرخت الشرشف فوق السرير. رفعها قليلاً وهو راكع، طوّقته بقوة بذراعيها، أنزلها بهدوء على ظهرها فوق السرير. كان الرصاص متقطّعاً وصفير سيارات الإسعاف متقطّعاً، لم يعد يصلهما بقوّة. جذبته نحوها، كان انتصابه قوياً فاجأه. أحسّت به فضحكت فرحة، فخورة بنجاحها، حاول نزع العباءة من رأسه وهو راكع فوقها فضرب أحدهم المفتاح في الباب

و لم ينجح في فتحه. فتحت أولغا ذراعيها محبطة، قرع الزائر الباب بيده، نادى نظام مرتين. الرفيق علاء، بيته قريب، جاء لتسقّط الأخبار. بقيت العباءة عالقة في رأس نظام وهو لاهث لا يأتي حراكاً كي لا ينبّه الواقف أمام الباب إلى وجودهما في الداخل وأولغا تضع سبابتها على شفتيها تحذيراً من أية حركة. ربما انتظر علاء قليلاً أمام الباب المغلق من الداخل ثم انصرف، سمعا وقع قدميه نازلاً على الدرج. انتظرا بضع ثوان ثم رمى نظام العباءة بعيداً على أرض الغرفة. زادت خشية المقاطعة من انتصابه، انحنى من جديد فوق أولغا، تدلّت آية الكرسي والعين الزرقاء من عنقه، أخذت أولغا آية الكرسي بين شفتَيها دلالاً، أفلتتها، عضّت على العين الزرقاء ثم شبكت ذراعَيها بإصرار خلف عنقه، تعلّقت به، رفعت فخذيها وفتحتهما لاستقباله فدخلها وهو يقبّلها على فمها مغمضاً عينيه. تصاعدت الجلبة في الشارع، سمعا أصوات مسلّحين يتوزّعون مهام الحراسة والتفتيش، ينصبون حاجزاً في وسط الطريق على الأرجح. بدأت ضربات نظام سريعة متوتّرة، طالبته بالتمهّل مبتسمة وهي تلفّ فخذيها حول ظهره. راحت تضبط إيقاع ضرباته قدر الإمكان، فكّ ذراعيها من خلف عنقه ومدّهما إلى الخلف. لم تستسلم، ترفع حوضها وتنزله، لا تريده أن يتوه. دوّى انفجار قوي قريب اهتزّ لوقعه زجاج النوافذ، توقف نظام مصغياً مترقّباً فاقداً تركيزه. خشيتْ أن ينكفئ فأمسكت بكتفَيه وأزاحته عنها لتنقلب فوقه، فتحت فخذَيها ليدخلها من جديد، تعثّرا بالشرشف المتجمّع تحتهما فسحبه نظام بعصبية ورماه بعيداً مع العباءة ليصبح السرير رحباً، أوقفت أولغا فيه جسمها وهي راكعة فوق نظام. رفعت شعرها عن وجهها محاولة ربطه إلى الخلف ونظام في هذه الأثناء

يضاعف من دخولها وهي تتمايل فوقه فيقوى لهاثهما. تثبّت يديها على كتفيه، تحني وجهها على وجهه، لا تريده أن يغيب، تعلو وتهبط، يأكل عنقها، تلعق عينيه بشفتيها، يمتص حلمتيها، تصرخ متأوهة وهو يلجها من دون هدنة، ينتظرها حتى تصل، متحكماً بنفسه إلى أن خرّت فوقه، رأسها على صدره صارخة من اللذة وقد بلغا الذروة معاً أو ادّعت أنها بلغتها هي أيضاً. انقلبت على ظهرها فاستراحا صامتَين، رأسها فوق ذراعه، عيناه دامعتان وتملأ فضاء غرفتهما أصوات الحرب القريبة.

استرخى نظام فظهر عليه كل تعب هذا اليوم، رفعت ثقل رأسها عن ذراعه وغفت بجانبه.

لم يستقبلا أحداً طوال اليوم التالي، تركا الباب مغلقاً من الداخل. خرجا إلى الشرفة. دخان أسود كثيف يتصاعد من مستودعات المرفأ.

قرابة العاشرة صباحاً، قرع جوناثان وبرباره باركر الباب مجدداً. لم يلقيا جواباً فتوجهّا بالكلام إلى من هم في الداخل بصوت عال. افترضا أن نظام هنا يسمعهما، ربما أخبرهما بوّاب البناية أن أولغا ونظام دخلا ولم يرَهما يخرجان، أو ربما أرادا هكذا فقط رميَ كلامهما في الهواء. قالت برباره إنهما جاءا أمس لتوديع المجموعة فلم يجدا أحداً. يريدان إبلاغهم أنهما راحلان والغصّة في قلبيهما مما يحدث، تستخدم عبارة we are sorry كأنها تقدّم التعازي بفقيد عزيز. لقد حزما حقائبهما لأنه في الساعة الثانية عشرة ظهراً ستحضر سيارة تحمل لوحة دبلوماسية لتنقلهما إلى مقرّ السفارة الجديد حيث تقلع بهما وبغيرهما من الأميركيين طوّافة من هناك إلى جزيرة قبرص ومنها

بالطائرة إلى مسقط رأسهما في ولاية ديلاوير. كانت برباره تتكلم ولا تنتظر جواباً كأنها تتوجه إلى آلة للتسجيل. يرافق بعض الصدى صوتها الواصل إلى الداخل ويختلط معه صوت المصعد القديم عندما يتوقف في أحد الطوابق. كانت أولغا تمسك نفسها عن الضحك ونظام لم يتمالك نفسه عن الابتسام. أول ابتسامة منذ أمس. وعدت برباره بأنهما سيعودان إلى بيروت ما إن تهدأ الأحوال لكن لهجتها لم تكن جازمة. توقفت قليلاً عن الكلام ثم كأن الزوجين اتفقا همساً فقالا بصوت واحد:

– لن ننسى بيروت ولن ننساكم.

وختما بكلمة «باي» سحباها معهما وهما ينزلان الدرج للمرة الأخيرة.

أمضى النهار صامتاً. أولغا تحكي وحدها، أخبرته قصصها، قصة أمها التي تزوّجت مرتين، وبين وفاة والد أولغا والزواج بالثاني كان لها نصف دزينة من العشّاق، لم تتوقف إلاّ قبل سنوات قليلة. أضحكته من نفسها، من قصة زوجها وزواجها، تعرّفت به في وقت كان يكبت فيه أهواءه الحقيقية فأغرمت به. جميل وأنيق يلعب البريدج في أوتيل السان جورج، نصف نساء بيروت يحلمن به لكن الجميع اكتشفوا ميوله.

– الجميع إلاّ أولغا...

تقول عن نفسها.

بعد شهر واحد على زواجهما عاد إلى ما كان عليه، إلى أصحابه. يتركها ويمشي، يتحرّش بها الرجال فتقاوم. جاء برفاقه إلى البيت،

وجدته مع علي سويدان في سريرها، عاريين، كما خلقهما الله. جاء بعلي سويدان من الشارع، فقير معدم، نظّفه، موّله، علّمه الأناقة. أخبرته أيضاً عن سيريل، المجنون الآخر. كان زوجها يتحرّش بسيريل وسيريل يطاردها، حاول إدخالها إلى استعراض كازينو لبنان لكنهم صرفوه بعد أن توفيت إحدى الفتيات من جرعة زائدة اتهموه أنه تسبّب بها. أخبار حياتها لا تنتهي، ترويها راضية بها كأنها القدر. طلب منها نظام فقط ألا تبيع القديس جرجس. لم يحذّرها من إخبار أحد بما حصل له بالقرب من مبنى الجمارك، عرف أنها ستبقيه سرّاً بينهما. حوالى منتصف الليل، دخلت أولغا إلى غرفة الأولاد لتنام فقطع نظام عليها الطريق وأصرّ عليها جازماً أن تنام وحدها في غرفة النوم الكبيرة. أحسّت أنه يريد ذلك فعلاً فوافقت. نقل حوائجه إلى الغرفة الأخرى ومضى الليل بسكون. صباح اليوم التالي صنع القهوة وجاء بها إلى غرفتها، ناداها بلطف ليوقظها، لم يقترب منها، لم يلمسها، حتى المداعبات الملتبسة انتهت بينهما.

أمضيا أسبوعاً كاملاً أقفلا فيه الباب من الداخل. تخرج أولغا لشراء القهوة والسجائر ومآكل سريعة. طلبت من البواب أن يبلغ من يسأل عنهما بأنهما غائبان. يبتسم البواب موافقاً ومطلقاً خياله على هواه. لم يلمح نظام ينسلّ خارجاً من البناية صبيحة يوم ثبت فيه صمت الرصاص وهدأت فيه الشوارع وكثر فيه وصول الوسطاء العرب والأجانب إلى بيروت. خرج نظام إلى الشرفة، نظر في اتجاه المرفأ، تعرّف للمرة الأولى من بعيد إلى مبنى الجمارك، لم يوقظ أولغا، ترك لها جملة صغيرة:

«لن أتأخر في العودة، لا تقلقي عليّ».

وقف عند مدخل البناية، انعطف يساراً وراح يمشي بخطى واثقة وسريعة. تجاوز فندق السان جورج في اتجاه المرفأ، فزاد من سرعته وثبات خطاه، استنفر جسمه وحواسه، لا يريد أن يصغي لصوت يقول له أن يقفل عائداً إلى البيت. عندما شاهد على الجانب الآخر من الطريق جنوداً تابعين للقاعدة البحرية يؤدون التمارين الصباحية بالعدو في الاتجاه المقابل، راح يركض بكل قوته متجاوزاً السرعة المعتدلة التي يحافظ عليها أبطال المسافات الطويلة. ألقى عليه المارة نظرات مرتابة من أي مشهد أو حركة تنذر باستئناف توتّر الأيام الماضية ومآسيها. أبطأ كما يبطئ العدّاء بعد نقطة الوصول. وقف في المكان نفسه، تنفّس لاهثاً، انتظر، نظر في كل الاتجاهات ثم راح يتابع السيارات العابرة بسلام في هذا الصباح المشمس الساطع. يتخيّل مقاصد ركّابها. عمّال مكدّسون في شاحنة صغيرة يتمازحون، رجل يقود سيارة فخمة، يشوّر بيده، يتشاحن مع زوجته الجالسة إلى جانبه، شاب فوق درّاجة يتصبّب عرقاً. يعبرون بمشاغل أيام حياتهم العادية. جلس أرضاً على حافة الرصيف، تفرّس في وجوه المارة القلائل، نهض ومشى متمهلاً مسافة الأمتار التي مشاها والكيس الأسود في رأسه ثم عاد إلى حيث أنزلوه من سيارة أولغا. أعاد الكرة ذهاباً وإياباً مرات عدة، عدّ الخطوات ثم جلس من جديد وانتظر. انتظر لكن لم يتحرّش به أحد، لم يلفت انتباه أحد، لم يرمقه المارة حتى بنظرة استغراب. لم يعرف كم مضى عليه من الوقت جالساً عندما تذكّر مبنى الجمارك فمشى في اتجاهه، رافق الموظّفين الملتحقين بمكاتبهم، يدخلون المبنى ويختفون داخله، يمرّون إلى جانب البقعة التي رُمي فيها القتلى. وقف هناك طويلاً، لم يعترضه أحد، المكان نظيف، لا آثار ولا رائحة.

كأن شيئاً لم يحدث هنا في يوم السبت اللعين.

عاد عند الظهر بطيئاً، أبلغ البواب بأنهما عادا إلى الشقّة. أكل، شرب وقبّل شمعون رخّو الذي جاء بالأخبار الكبيرة. كان يائساً، يقول إن كلاً من طرفَي القتال يقلّد الآخر، بيروت لم تعد تطاق، يخشى الاضطرار للهجرة إلى السويد حيث سبقه أقارب من السريان.

– سأدور في الأرض هرباً وأنا لم أبلغ الثلاثين من عمري.

من برطلا بين نينوى وأربيل إلى الموصل إلى الشام إلى زحلة إلى بيروت والرحلة مستمرة...

تستلطفه أولغا، عندما تسأل عنه باسمه الكامل تتحوّل معها الراء إلى غاء وإذا لحقت الخاء بالراء يصبح اللفظ عويصاً مضحكاً: غخّو.

تشبّه أولغا نفسها به، هي بدأت من بطرسبرغ ولا تعرف أين تنتهي.

انتهى شمعون من احتمالات غربته المفتوحة ليخبرهم عن خروج يسرى مكتبي من السجن.

– هربت؟

يقول شمعون هازئاً:

– حرّروها...

أطلقتها مجموعة من المسلّحين، منظمة غير معروفة سابقاً. هاجموا سجن النساء يوم السبت نفسه الذي كان يُقتل الناس فيه على الهوية. كانوا على ما يبدو مصمّمين على فعلتهم هذه، ينتظرون فقط جولة العنف الجديدة لتنفيذها. استسلمت لهم حامية السجن من رجال

الدرك بلا معركة، وكان الضابط الشاب من أبناء المنطقة ففضّل عدم إراقة الدماء، ولما خابر قيادته طلبوا منه التصرّف بحكمة، فقرر فتح الأبواب ليخرج الجميع وكان هذا سجن النساء الوحيد في لبنان. عند الباحة الخارجية تمّ فرزهنّ، المسلمات هنا والمسيحيات هناك. اعترضت يسرى بصوت منهك فسألها أحد المسلّحين عن اسمها فقالت يسرى مكتبي، فأشار عليها بأن تنضم إلى المسلمات فانصاعت. أطلقن على الفور، بينما تقرر الإبقاء على المسيحيات حفاظاً على سلامتهنّ. يوماً أو يومين، تهدأ الأحوال ويُرسَلن إلى الجهة الشرقية من العاصمة. قالت إحداهن إن بيتها في منطقة المصيطبة ولا تريد الذهاب إلى الأشرفية فهي لا تعرف أحداً هناك. نصف المسيحيات كنّ يسكنّ في المنطقة الغربية، احتار المسلّحون في أمرهن فادّعى رئيسهم أن مهمة طارئة تستدعيه إلى خطوط التماس فأداروا ظهورهم ومشوا.

كان أهل يسرى ينتظرونها في السيارة فدفعوها إلى المقعد الخلفي وانطلق شقيقها المحامي مسرعاً بالسيارة. هكذا اختفت يسرى مكتبي نهائياً ويقال إنها تزوّجت بشاب ثريّ سافر بها إلى كندا وأصرّت عند إنجابها صبيّاً على تسميته نظام فوافق زوجها و لم يطرح الكثير من الأسئلة.

– وأنت، إلى أين؟

السؤال الذي لم تطرحه على نظام طوال الأسبوع فاجأته به أمام شمعون. لم يتردد:

– سأصعد إلى حورا...

تسمع بها أولغا للمرة الأولى، تلثغ أيضاً بالراء فيها.

يخبرهم عن رائحة التراب وغضبة السماء في آخر أيلول لفترة وجيزة كافية لإبعاد الغرباء المتخوّفين كي يعود الطقس إلى صفائه وطراوته فيستمتع به أهل البلدة الأصليون وحدهم وسط ألوان الخريف عندما يصبح العنب حلواً عسلاً وطيور الكيخن المتمهّلة تمرّ رفوفاً في السماء القريبة تسرع بطيرانها وتتفرّق عندما يصوّب نحوها شبّان متسكّعون في الدروب طلقات متواترة من بنادق الصيد مع أنهم يعرفون أن لحمها لا يؤكل.

ويضيف:

– اليوم بدأ فيها موسم التوت الشامي...

7

خفتت الأصوات في سوق الخضار وبدت الهزيمة على ساحة البرج. حياة على مضض. لم يُستبدل الزجاج المتكسّر ولا نُظّفت آثار الحرائق الانتقائية التي طالت محالّ واستثنت أخرى. مقهى الجمهورية لا يستقبل الزبائن، كراسيه ما تزال مرفوعة فوق الطاولات. سيارة حَورا في مكانها المعتاد. وجد الشيطان وحده يجالس رفّول، شاردَين. صاحب زهرة الشمال بدا أقل ثقة بتوقعاته، تراجعت فصاحته وطالت فترات صمته.

طلب نظام من السائق أن يحجز له مقعدَين إلى جانبه فاستيقظ رفّول وسأله باستهجان:

– صاعد إلى حَورا؟

حاول بتعابير التذمّر التي ارتسمت على وجهه أن يثني نظام عن رحلته. لم يقل رفّول أكثر من ذلك، كأنه بدأ يستسلم ويترك الامور تجري على غاربها.

انتظر نظام معهما اكتمال عقد الركّاب.

صار الشيطان ينزل إلى العاصمة مرّة أو مرّتين في الأسبوع، عند الضرورة فقط. رحلاته قليلة وحزينة، على كل حال لم تعد الرحلة

رتيبة، فالحواجز المسلّحة تقطّع الطريق، الحواجز الثابتة واحتمال ظهور حواجز مفاجئة، حواجز قيل إن الفلسطينيين والأحزاب اليسارية ينصبونها فجأة. لم يقع عليها مرة لكنه سمع أنهم يخطفون بعض المارة عليها ويختفون. كانت الطريق ميسّرة والحواجز التي مروا عليها، في جوار كازينو لبنان وعند مفترق الأرز سهّلت مرورهم، لا بل إن المسلّح على حاجز الأرز كان يعرف السائق والركّاب فمازحهم منادياً عليهم بأسمائهم الأولى.

لم يوجّه الركّاب الحديث إليه ولا هو رغب في الكلام، حتى إنهم لم يتحادثوا في ما بينهم، ربما خشية تفوّههم بما لا يجدر به سماعه.

فاجأهما ظهوره في الباب كما في كل مرة. كان توما تعباً، هزيلاً، عيناه غائرتان، «عايش على الأنسولين»، كما يقول. ضمّته رخيمة طويلاً فارتخى بين ذراعيها. يعود بالزمن، رائحة رخيمة، لهفتها الدائمة عليه، مطبخها وفساتينها المنقّطة لا تخون. تنفّس عميقاً، شعرت بحزنه فسألته إذا كان بخير، طمأنها فلم تقتنع. كل شيء على حاله، كما شمّه من البداية. كل شيء في مكانه، لن تنتقل قطعة أثاث من موضعها حتى وفاتهما.

تسأله رخيمة عن صحة ما يقال من أن الأهل في بيروت يعلّقون أسماء أولادهم الصغار وعنوان بيتهم في رقابهم عند إرسالهم صباحاً إلى المدرسة خشية حدوث اجتياح وتفرّق مفاجئ قد يؤدي إلى ضياعهم. لا يعرفان أيّ نوع من النصائح يسديانها إليه فيبقيان في عموميات الحذر، وهما في كل حال لا يعرفان أين الأفضل له أن يسكن:

– ابقَ حيث أنت والاتكال على الله...

يضيف توما:

– استمع إلى الراديو قبل أن تخرج من البيت.

لا يجرؤان على إقناعه بخيار محدّد خشية التسبّب له بالأذى إذا عمل برأيهما فيتركانه يتصرّف كما يريد ليوفّرا عليهما شعور الذنب اللاحق الذي لن يتحمّلاه بالتأكيد.

يخرج من الباب، تهمس رخيمة لتوما:

– لا يعجبني الصبي...

لا تعرف السبب لكنها لا تجده على ما يرام.

– ... دليل.

تُقال، في لغة رخيمة، بدون النقطة على حرف الذال.

جال نظام في البستان، بدا له ضيقاً، صامتاً، مات ريكس من زمان. تعاون مع توما على ترميم العرزال، نقلا إليه فراشاً، رجته رخيمة بصوت هامس وهي تسمّك له الأغطية:

– ابقَ معنا...

سينام وحده، توما لن يستطع مقاومة البرد في الخارج.

مدّ رجلَيه، شبك يديه خلف رأسه، بحث عن الدبّ الكبير والدبّ الصغير، قلّب في رأسه احتمالات حياته، وهو يصغي طويلاً إلى الليل يخترقه نقيق الضفادع وما بقي من أصوات البلدة البعيدة. يبدأ من صباح الغد، يحمل المعدور ويضرب في الأرض، يقلبها ثم يسقيها، ينتعل جزمة توما الكاوتشوك عندما يدير الماء على الزرع وربما ذات يوم إذا ما صار بديناً بعض الشيء يرفع بنطاله بحمّالة مثله. لا يقتني ساعة يد بل يكتفي بساعة الجيب يُخرجها بصورة احتفالية

عندما يدقّ جرس الكنيسة ليتأكد من أن الدعوة إلى الزيّاح تأتي في موعدها. يتصادق من جديد مع الأشجار، يمسك بالمقصّ ويدور حولها، يجلس أرضاً، لا يهتمّ إن اتّسخت ثيابه، يرتدي غيرها نظيفة يخرج بها إلى أوتيل بالاس حيث يلاقيه رفيقٌ سكوتٌ رصين يلعب معه بطاولة الزهر على الشرفة ويعلّمان بالطبشور النتيجة على طرف الطاولة. وفي أيام الشتاء الطويلة يجلس بجانبهما أمام الصوبيا ويقرأ القصص التاريخية. ما زال هناك الكثير منها، قد يخبرهما حكاية سقوط غرناطة إذا رغبا في سماعها والأرجح أن توما سيغفو قبل وصوله إلى نهايتها. قبل ذلك كله ينزل إلى بيروت. ينزل مرة أخيرة، وللتأكيد على ذلك، يطلب من سائق التاكسي أن يبقى معه في جولته الوداعية. ينتقل به أولاً إلى المنارة، يودّع أولغا، يطمئنها إلى أن لها بيتاً في أعالي لبنان الشمالي تأتي إليه يوم تريد، لا يعود من الشقّة بثياب ولا بأغراض، طوال إقامته في بيروت، لم يقتن له أثاثاً، نزل في زهرة الشمال، عاش بين أشياء أولغا وصور أهلها وقدّيسيها، نام في محترف جَنان بثيابه، سيعرّج على شارع لبنان، يُخبر جَنان برغبته في استيطان حَورا، يأمل أن تتفهّمه ويطلب منها أن تعطيه لوحة واحدة من رسومها، يعلّقها في غرفته هنا ولا يتعب رأسه بالنظر إليها كثيراً، يريدها ذكرى منها فقط. محطته الأخيرة في بيروت ستكون لدى محلّ الألعاب يشتري باخرة، رآها في الواجهة، مكتملة بأشرعتها البيضاء الكبيرة المنشورة وصواريها العالية وبحارتها الصغار الموزّعين على سطحها، يشتريها قطعاً صغيرة، آلاف القطع، يختار القياس الأكبر، ويبنيها هنا على مهل، فوق طاولة على الشرفة، يلصق أخشابها الصغيرة، يلوّنها، يلزمه أكثر من عام قبل أن يخطّ على جنبها الأمامي

اسماً، يحبّ أسماء النساء للبواخر، ويرفع فوق ساريتها الكبيرة علماً.

تدثّر وغفا.

تفقدته رخيمة مع أول شعاع ضوء بعد أن غمره ندى الصبح الطالع.

في اليوم التالي، لم يشتغل في البستان و لم يبتعد.

البيت الذي أمضى فيه مع أهله صيفيات متتالية كان مهجوراً.

– لم يفصله أحد...

كما أخبره توما. الفنادق فارغة لم يوظّف أصحابها حتى خدماً لترتيبها وتحضيرها للموسم. باع شقيق مفتي طرابلس البيت الذي اشتراه بأرخص ثمن، باعه عن طريق وسيط من عائلة مسيحية نزحت من طرابلس من غير أن تتمكن حتى من حمل ثيابها. سُرقت بيوت المصطافين المسلمين الذين تركوا وراءهم بعض الأثاث ينتظرهم خلال فصل الشتاء.

دخل وحده إلى بيت أهله، دار في الغرف، ارتمى فوق السرير الذي كان ينام عليه فارتطم بمجسّم طائرة الخطوط الجوية البريطانية الصغير، رفعها بيده وحرّكها كأنها تحلّق في هواء الغرفة ثم هبط بها من جديد فوق السرير إلى جانبه.

توالت الأيام، ليلة ينام باكراً وأخرى يطير النعاس من عينَيه فيبقى مستيقظاً ينتظر طلوع الفجر من وراء الجبال العالية ليغطّ من بعده في نومة الصبح توقظه منها رخيمة والترويقة في يدها.

جاءته يوماً، وضعت الصينية أرضاً و لم تنسحب. حائرة، لديها ما تقوله:

– لا تخرج من البيت، اليوم، لا تتجوّل في البلدة وحدك...

لم يفهم السبب.

– لا نريد أن يُسمعك أحد كلمة...

– ولماذا يُسمعونني؟

جلست رخيمة على أرض العرزال.

– لأنهم قتلوا عزيز.

عزيز أبو شاهين، الخيّاط.

قُتل في طرابلس، رفض مغادرة المدينة، ظن أن الجميع يحبّونه تحت ولا غنى لزبائنه عنه. جاءه رجال ليسوا من زبائنه، أرغموه بقوة السلاح على مرافقتهم. يقال إن أحدهم حمل معه بذلتين جديدتَين كان عزيز خاطهما، نزع المسلّح البذلة الأولى المعلّقة على الجدار، حملها من تعليقتها الخشبيّة، وضع كتفَي السترة على مستوى كتفَيه ونظر إلى أين يصل السروال، أعجبته فأخذها وأخذ الثانية من دون أن يقيسها. وجد صيادو السمك عزيز عند منطقة رأس الصخر، لفظه الموج منتفخاً، كان البحر بصق أكثر من خمس جثث في أسبوع واحد.

وصلت الجثّة قرابة الظهر، جاء بها الصليب الأحمر، كان حشد كبير في الانتظار. بدأ إطلاق النار في الهواء، رصاص كثيف يطلق دفعة واحدة من عشرات البنادق الرشاشة.

انضمّ إليهم توما. عزيز ابن عمّه.

– ابقي معه، تذهبين لتعزيتهم في البيت غداً...

أمرها توما بملازمة البيت لحراسة نظام.

تعالى صراخ النساء وسرعان ما غطّت عليه موسيقى النوبة إشارة إلى انطلاق موكب الجنازة فأوقفته رخيمة عن الكرسيّ الجالس عليها على الشرفة ودفعت به إلى الداخل. طلبت منه متابعة الجنازة من خلف

زجاج النافذة المطلّة على الشارع العام. أصحاب المحال الظاهرة عليه من حيث يقف أنزلوا أبوابهم المعدنية في نصف إغلاقة، إشارة إلى أنهم سيرفعونها مجدداً بعد مرور الجنازة. كان عزيز أول شهيد يسقط لحَورا. بعد حامل الصليب الكبير، ظهر قائد النوبة في ثيابه شبه العسكرية ملوّحاً بعصاه لنافخي الآلات النحاسية وضاربي الصنوج. ظهر وراءهم حشد اختلط فيه أعضاء الأخوية لابسين الأوشحة وحاملين بساط الرحمة وعلم الحبل بلا دنس مع شبان في ثياب مرقّطة يحملون في أكتافهم أعلاماً حزبية ويرفعونها باعتزاز، تحمل جميعها الأرزة اللبنانية في أشكال وألوان مختلفة. تعرّف إلى رفاق له بينهم، تبرّع عدد كبير منهم لحمل التابوت، ازدحموا تحته، يتدافعون وسط صيحات التحذير كي لا يوقعوه، ينقلون صلاة الجنّاز بواسطة مكبرات الصوت، سمعها نظام من داخل البيت واستمع ايضاً إلى عظة الكاهن.

كانا مضطربَين طوال اليوم التالي، شددا عليه ألا يغادر محيط البيت، ألا يظهر على أهل حَورا. ضاق به البستان، عاد إليهما فسمعهما يتهامسان وهو عند الباب. لم يسمعاه يدخل. وقف بلا حراك، كانت رخيمة تحاول إقناع توما، بصوتها المتهدج:

– قد يؤذونه أولاد الحرام، البارحة عندما جاء خبر عزيز تذكّروه، راحوا يثرثرون ويتوعّدون بأنهم ما عادوا يريدون مسلمين في حَورا، لن أنام الليل ما دام هنا، أقف إلى النافذة كلما سمعت خطى في الخارج.

قال توما إنه سيشتري بندقية في الغد:

– فليقتربوا، سأكون في انتظارهم...

تنهدت رخيمة:

– إذا أصابه مكروه فسأموت.

تراجع نظام إلى الخارج، مرر يده على الجدار حيث كان يرسم أمّه ورفيقات صبحياتها ويضربهن بالكرة، أكمل نحو باب البستان، دخل وراح يركل تلال الخلد المتكاثرة واحدة تلو الأخرى، يبعثر ترابها ويمشي.

عاد إليهما، وقف في باب غرفة الجلوس حيث اعتاد إعلان قراراته، سند كتفه على حاجب الباب وقال:

– غداً أعود إلى بيروت...

كانا ما يزالان يتفاوضان. لم يعارضاه.

– كما تريد.

أعطاه توما مبلغاً كبيراً من المال يكفيه لغيبة طويلة. قصدت رخيمة السائق تحت جنح الظلام، تفاوضت معه عند الباب، بعيداً عن مسامع زوجته، طلبت منه أن يمرّ عليهما في الغد، في الصباح الباكر، وألا يصطحب معه ركّاباً.

جلس إلى جانبه، لم يتبادلا الكلام في الطريق الضيّق المتعرّج نزولاً وسط اشجار الصنوبر. فقط عند وصولهما إلى الطريق الساحلية سأله نظام لماذا أقلع عن المواويل والزجل.

– قلوبنا مسكّرة...

تنهّد السائق. سأله نظام لماذا يسمونه الشيطان فأخبره كيف كان في صغره يعذّب أمه لفرط ما يتسبّب به من مشاكل فتنهره منادية: «يا شيطان!»

فأخذها عنها الجيران وألصقوها به.

عند اقترابهما من بيروت، قال السائق بلا مقدمات:

– اسمع يا ابني، توما أبو شاهين موّيت، يا صابح يا ممسّا... ورخيمة لن تقدر على مقاومة أقارب زوجها وأقاربها.

لم يُفصح أكثر، سكت قليلاً وأضاف بحزم:

– أنا أنذرتك وأنت حرّ...

شكره نظام وطلب منه أن يُنزله في شارع لبنان. قبل أن يترجّل نظام مازح السائق:

– كلا، لست حرّاً...

لم يفهم الشيطان قصده وربما نظام لم يقصد شيئاً.

8

انفرجت أسارير أمها كأنها لم تكن تنتظر غيره.

– انظر إليها، لا تأكل، لا ترسم، لا تطالب إلاّ بنظام.

كانت جَنان جالسة على الكنبة، تلف جسمها بغطاء ترفعه إلى ما فوق كتفَيها كأنها مصابة في عزّ الصيف بنزلة برد شديدة، متكوّمة هكذا ساعات، كما تقول أمها. رفعت الببغاء في قفصه فوق عمود خشبي. رأت نظام فهرعت إليه، ارتمت على كتفه طويلاً وهي تغمض عينيها، غير آبهة بشعوره بالحياء جراء تصرّفها هذا في حضور أمها. أمسكته من يده وقادته نحو الكنبة حيث طلبت منه الجلوس لتجلس في حضنه. لا تشبع من مداعبة وجهه وتقبيله بمجرد انسحاب أمّها من الباب مبتسمة، راضية، قادرة على الانصراف إلى أمور يومها بعد أن استنفرت منذ الصباح إلى جانب ابنتها.

تضربه على كتفَيه وتقول له:

– لا تتركني، لا تتركني... أين اختفيت؟ قلت إنك ستعود و لم تعد...

كانت في غيابه الطويل تسأل الببغاء عنه.

– أليس كذلك؟

كانت منفعلة بوجوده المفاجئ، كأنها قطعت أملها من اللقاء به من جديد، تقفز من حوله، لا تنتبه إلى الجمود المستبدّ به، تعرض عليه أن يشرب، أن يأكل وهو يرفض.

– أضعت رقم هاتف أهلك...

وأضاف بسرعة:

– كنت سجّلته على غلاف بطاقة هويتّي لكنها ضاعت مني... والآن ليس معي هوية.

لم يخبرها أن المسلّح الضخم، جورج، نسيها في يده عندما طلب منه الفرار. عندما انتبه إليها وكانت أولغا انطلقت بسيارتها واختفت عند المنعطف، رماها على الرصيف ربما أو دسّها في جيبه مع أيقونة الحبل بلا دنس.

– تتجوّل بدون هوية؟

منذ أدرك نظام أن المسلّح لم يردّ له بطاقة هويته، شعر بأنه أكثر خفّة ولا يرغب في بطاقة جديدة. في كل حال هاجم مسلّحون منذ بداية أحداث العنف سرايا طرابلس وأضرموا النار في الطابق الذي تقوم فيه دائرة الأحوال الشخصيّة وقيل إن الدائرة هي المقصودة بالتخريب وإن سجلاّت النفوس احترقت.

– هكذا أحسن...

قال.

ثم أضاف مطمئناً جَنان:

– على كل حال انتهت الحوادث ويبدو أنهم سيتصالحون.

كان بحاجة إلى وعد كي يواجه بيروت.

ضحكت هازئة.

دعاه أهلها إلى الغداء، لم تدع له فرصة لكي يعتذر. كانت حيويّة سعيدة، تثرثر في كل اتجاه، تأكل، تستعيد قابليتها، تطعم نظام بيدها. أخبرت والدها أنه أضاع هويّته ولا يمكنه استصدار غيرها بسبب احتراق السرايا في طرابلس.

– أحرقوها لكي يجنّسوا من يشاؤون...

هذا كان حكم والد جَنان النهائي ولو أنه فضّل تجهيل الفاعل أمام نظام. انتقل إلى الجانب العملي فسأله إذا كان يحمل صورة فوتوغرافية له. أخرج نظام من محفظته صورة شمسية بقيت معه من يوم تصوّر ليجدّد طلب انتسابه إلى كلية الحقوق. كانت فكرة والد جَنان تأمين بطاقة حزبية لنظام كي لا يتعرّض لأي مضايقات إذا جاء إلى المنطقة المسيحية. يسألون أحياناً في الحيّ عن غرباء، عن بعض الناس الذين لا يعرفونهم. كانت لوالد جَنان صداقات مع المسؤولين الكبار في الأحزاب.

– جَنان تحبّك كثيراً...

قالتها الأم هكذا لتفسير اهتمام زوجها به.

سأله عمّا إذا كان يرغب في تغيير اسمه. فاجأه بالسؤال فرفع كتفَيه لامبالياً.

اعترضت جَنان:

– كلا، اسمه حلو...

بدأ والد جَنان يلفظ عالياً اسمه:

– نظام العلمي.

كأنه يمتحن وقعه في أذن عناصر الحواجز المسلّحة عندما يقرأونه. بعد أن تلفّظ به بنبرات متعددة، مطّ شفته السفلى خائباً. لا الاسم الأول

مألوف ولا اسم العائلة، لا نظام مسيحي مؤكد ولا علَمي كذلك. هناك آل العلم من الموارنة في بلدة داريّا الشمالية ومنهم في بعض قرى الشوف، كما يعرف أشخاصاً من آل علامة وهم من الدروز، من عائلة محترمة كما قال، وأنهى استعراضه بالقاضي الشهير أمين علاّم وهو على الأرجح من المسلمين السنّة، من مدينة صيدا. اقترح إسقاط الياء من آخر اسم العائلة ثم لفظ الاسمَين عالياً، نظام علم، فلم يعجبه.

– فيه شيء اصطناعيّ.

قال.

– أتدبّر أمر البطاقة غداً.

وعدهما بذلك عندما نزلا إلى المحترف حيث راحت تشبعه قبلاً حارة متقطعة طوال فترة بعد الظهر، بينما كان الببغاء يطلق من وقت لآخر صرخة زاجرة، نسي الكلام بسبب مساكنته الدائمة لجَنان الصامتة فعاد إلى أصوات الغابة الأولى الجارحة المقلقة.

أمضت جَنان ساعات تتحسّس فيها نظام غير مصدّقة قبل أن تطلب منه البقاء واقفاً وراءها كالعادة. تضع بين يديه كتاباً مليئاً بالصور، وهي تستعيد رغبتها في الرسم. تنهض قفزة واحدة مع هبوط المساء، تضع مئزرها وتهجم بجنون على الريَش والألوان والتفاصيل في كل اتجاه. يبدو أنها طوال جلوسها على الكنبة تتأمل لوحاتها وهي ملتفّة بالغطاء حتى كتفيها. طوال الأيام التي انتظرت فيها دخول نظام باب محترفها، كانت تخطط لكل ما ستضيفه على لوحاتها من لمسات وألوان لكنها تنتظر فقط الاندفاعة الجسدية لفعل ذلك.

لم يذهب سهر الليل بحماستها بل استمرت في مداعباتها واهتمامها

بنظام. وفي اليوم التالي، صعدت حوالى الظهر إلى شقّة أهلها وعادت منها ببعض الأكل وببطاقة انتساب نظام العلمي إلى الجبهة اللبنانية. اختار له والدها اسماً في اللحظة الأخيرة، كما أخبرها، عندما كان المسؤول في الجبهة بدأ يملأ البطاقة:

جوزف صافي.

قال له والد جَنان.

اسم خطر فجأة على باله، اسم فارغ شفاف. لا خانة في البطاقة مخصّصة لاسم الأب، بطاقة مربّعة صغيرة، مغلّفة بالبلاستيك. دسّها نظام في حقيبته الصغيرة وأدخلها جيب سرواله الخلفي. بالكاد نظر إليها ونسيها ما إن بكّل زرّ جيبه الخلفي عليها.

ودّعته بعد الظهر بعد أن تأكدت أنه سجّل عنده من جديد رقم هاتف أهلها وأعطاها مقابله رقم هاتف الصيدلية حيث يمكنها الاتصال عند الحاجة وترك رسالة له مع الصيدلي، وبعد أن وعدها بتمضية أقل وقت ممكن في شقّة المنارة لتفقّدها والعودة اليها هنا. رافقته إلى باب المحترف وهي تثرثر ضاحكة هازئة جادة، تغنّي ألحاناً بكلمات من عندها:

– أحبّك عندما تعودين إليّ فرحة كي ترتمي بين ذراعيّ...

ثم تتوجه من بعيد إلى الببغاء:

– سيبقى معي على طول، سأتعلّم أفضل أنواع الطبخ لأطعمه، سأنافس رخيمة على قلبه. مفتاح الرجل في معدته...

ثم تقلّد نساء المجتمع بأصواتهن المنمّقة وبلغة فرنسية مبالغ في تصنّعها:

– مدموازيل جَنان سا لم؟

وتجيب عن نفسها بالفرنسية أيضاً:

– كلا، أنا مدام علمي...

يغالب نفسه، يخفي زعله، يحملها ويدور بها حتى تصاب بالدوار فينزلها ويمشي القهقرى نحو باب المحترف وهو يرفع إصبعه في الهواء، يفتح الباب ويده خلف ظهره، دون أن يستدير، يخرج وهو يكرّر:

– راجع، راجع...

9

وجد أولغا قلقة عليه. أمها بألف خير، تزداد علاقتها ثقة بكاهن الرعية، لا تتوقف عن انتقاد أولغا في سلوكها ولباسها ومصروفها. علي سويدان حضر فجأة ليعرض عليها خدماته، هكذا بكل وقاحة. لم تنفعل في وجهه، خافت منه. لا تركن سوى إلى هؤلاء البولشفيك كما تسمّي شمعون وفاسكو الذي ينقل إليهم أخبار المنطقة الشرقية وكيف أنهم يتحضرون هناك للقتال ولا حل إلا بغالب ومغلوب. سأل أولغا عن مشاريعها فقالت إنها تنوي الرحيل من جديد. لا تعرف إلى أين. كان ذلك قرابة الظهر، وصل فاسكو ومرافقه، أحضر شمعون سندويشات للجميع، رجع يخبرهم عن سرَيان شائعات كثيرة تتحدث عن هجوم على المنطقة، أرسلوا مرافق فاسكو لشراء بعض المرطبات، جلسوا يأكلون فدقّ الباب. ظنّوا أن مرافق فاسكو عاد أدراجه.

دخل عليهم أربعة رجال، هكذا لا شور ولا دستور.

الأكبر سنّاً يضع مسدساً على خصره ويتكلّم باسم الباقين، وآخر يحمل سلاحاً في ثوب جلدي فهموا أنها بندقية بمنظار، يُمسك بها بيديه الاثنتين كحمل ثمين ائتمن عليه، وآخر، مساعداً له، يحمل

صندوقاً يحتوي لا شكّ على الرصاصات القاتلة.

بدوا فريقاً في خدمة بندقية المنظار فلم يلزمهم سلاح غيرها، لأن مسدّس المسؤول عنهم كان لتأكيد مسؤوليته. كان ملتحياً لم يصافح أحداً و لم يعرّف عن نفسه بل قال إنهم حضروا البارحة و لم يجدوا أحداً فانتظروا إلى اليوم كحدّ أقصى لأنهم حريصون على حرمة المنازل والعائلات.

لو لم يجدهم هذه المرة كان سيخلع الباب ويدخل.

هذا ما لم يقله وهو يشمل البيت ومحتوياته ومن كانوا فيه بنظرة دائرية واحدة، نظام وأولغا وفاسكو وشمعون رخّو. لا شكّ في أن فكرته عن العائلات لم تكن تتوافق تماماً مع الجماعة التي وجدها في غرفة الجلوس، ثلاثة رجال، أحدهم مقعد، وامرأة جميلة بثياب خفيفة وحدها كانت تدخّن في لحظة دخولهم فيعلق على طرف فلتر السيجارة الأبيض أثر من أحمر شفاهها. تختار أولغا أحمر الشفاه كل يوم بحسب مزاجها وكان يميل في ذلك اليوم إلى الزرقة.

فور دخولهم انشغل العناصر بالمهمة العسكرية التي جاؤوا من أجلها، فكانوا يتلفتون ناحية الشرفة و لم يتأخر حامل البندقية بمنظار في الخروج لاستكشافها فلحق به رفيقاه. سارعوا إلى إخراج البندقية من ثوبها الجلدي وراحوا يتناوبون على حملها والتصويب بها، مركّزين على مبنى سكني قريب، على باخرة في عرض البحر قبالة الشاطئ أو على أعالي جبل صنين ليعرفوا حدود منظارها. وصلتهم حديثاً وهم ما زالوا يتعرّفون عليها. كان دخولهم المصعد وخروجهم منه في الطابق الأعلى ودخولهم الشقّة وخروجهم إلى الشرفة أضاع وجهتهم، خرج إليهم رئيسهم ليتحقق بدوره من الوضع الميداني، فوجد أحدهم يمسك

البندقية مصوّباً نحو الحمّام العسكري فصرخ به بأن العدو في الجهة المقابلة تماماً وصفع رأسه بيده بقوة علامة على إحباطه من قلّة دراية عناصره هؤلاء.

هذا الملتحي، لحية الثوار الكثّة المهملة، المتّسخة، وليست لحية شقيق نظام، خالد، الإسلامية المرسومة رسماً والمعاد ترتيبها كل صباح، فضّل قبل تنظيم الوضع العسكري على الشرفة التأكّد من أحوال الداخل، حماية لظهر مقاتليه ربما ولأنه هو أيضاً شعر على الأرجح أن الشاب في الكرسي النقال ونظام، الغرّ الأشقر، غير مؤهّلين لمنعه عن أولغا. أولغا التي شدّت اهتمام الرجل بها لفرط ما وضعت رجلاً على رجل كاشفة عن قسم من فخذَيها، الرجل اليمنى على اليسرى وبالعكس من قبيل توترها العصبي. فصار الملتحي يتوجّه بالكلام إلى شمعون كأنه نظيره في المسؤولية عن الطرف الآخر أي عن ساكني الشقّة. سأله مثلاً عن عدد الغرف، سؤال حاول إعطاءه معنى عسكريّاً أمنيّاً، فاستنجد شمعون بأولغا ونظام بإشارة من يده، ليس لأنه لا يعرف، بل لأنه لا يريد التقدّم على صاحبة المكان والمستأجر. قال نظام بلهجة ناشفة:

– غرفتا نوم.

فالتفت إليه المسلّح وسأله عن اسمه بنبرة زاجرة بعض الشيء لأنه أجاب عن سؤال طرحه على غيره، فتدخّل شمعون من دون أن يترك لنظام وقتاً للإجابة:

– نظام محمود العلمي، صاحب الشقّة.

كان شمعون يستقوي به، بوالده. كان المسلم الوحيد في جبهتهم. أضاف شمعون بلا سبب واضح:

– نظام بطل دورة الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين بالرماية في مخيم تل الزعتر...

رفع نظام كتفَيه مستهزئاً، كبح الملتحي اندفاعته نحو نظام لكنه لم يستسلم:

– بوّاب البناية يقول إن صاحبة شقّة الروف روسيّة.

امرأة وأجنبية ومسيحية.

شمعون صحّح له هذه المرّة مشيراً إلى أولغا:

– روسيّة الأصل لكن لبنانية.

لم يذكر أنها متزوّجة برجل لبناني لأن ذلك كان سيفتح عليهم مسألة وجودهم كثلاثة رجال مع امرأة متزوجة وزوجها غائب. بقيت أولغا صامتة تدخّن والباقون مطرقين يفكرون في ما يخرجهم من هذه الورطة المفاجئة. قطع الصمت الثقيل قرع على الباب فشهر الملتحي مسدسه وخرطشه وصوّبه نحو الباب بحركة سينمائية فصرخوا به أن الداخل منهم. نسوا مرافق فاسكو لكنه عاد حاملاً زجاجات الكوكاكولا. تفوّقوا عليهم بالعدد على الأقل مع هذا المرافق الطويل صاحب الوشم، المفتول العضلات. دخل فلم يبدِ استغراباً لوجود المسلحين، ربما ظنّهم من أصدقاء الخليّة. وهو لم يكن يتدخل في شيء خارج عن إطار مهمته في حمل فاسكو واهتمامه به، يُظهر قوته الجسدية في أوضاع أخرى، وقيل عنه مرة إنه يشارك في مباريات كمال الأجسام. تفحّصه المسلّح طويلاً ليقدّر مدى التهديد الذي قد يمثّله. قرأ في نظراته وداعة لا تتناسب مع قدراته الجسدية فأكمل استفهاماته الأشبه بالاتهامات. سألهم إذا كانوا يعرفون زوجين أميركيين مقيمين في هذه البناية. انفجرت أولغا ضاحكة بالرغم من

كل ما يحدث، وربما بسبب توترها مما يحدث. فجأة تخيّلت برباره واقفة تلقي خطاب الوداع لبيروت أمام باب الشقّة المغلق في وجهها. ابتسم نظام غصباً عنه وقطّب الملتحي حاجبَيه الكثّين فأخبروه أن جوناثان وبرباره رحلا إلى بلادهما قبل شهر من الزمن.

سجّل عليهم:

– تعرفون الأميركان جيداً، على ما يبدو...

ابتسم فاسكو ساخراً من المزحة السمجة وحاول شمعون صياغة اتهام سياسي للولايات المتحدة الأميركية في إشعالها الأحداث خدمة لإسرائيل، لكن قائد مجموعة بندقية المنظار عدّل من خطّته وفضّل الاقتراب من صورة الغراندوق فردينان ليسأل عنه من يكون. فتابع فاسكو بشيء من التعالي أن الرجل في الصورة متوفى منذ أكثر من ستين عاماً وهو روسي. التفت إلى أولغا مبتسماً متساهلاً للمرة الأولى:

– هل هو من أقاربِك؟

كان المسلحون الآخرون يتشاورون على الشرفة بينما المسؤول يستعرض عن كثب صور أقارب أولغا واحداً واحداً كأنه قادر على التعرّف شخصياً إلى البعض منهم.

لم يجد ضالته فالتفت إلى نظام فجأة:

– أنت اسمك محمود؟

هو أيضاً يأكل اسمه الأول.

قال إنه يعرفه، رآه أحياناً هنا في المحلّة. نظام بدا له أنه تعرّف إلى وجهي اثنين من المسلّحين الذين لبسوا الكاكي وأقلعوا عن الحلاقة اليومية وتسريح الشعر، كأن المهام العسكرية التي أوكلوها إلى أنفسهم

تجعل باقي الواجبات اليومية تافهة. ينتميان إلى زمرة الشبان الذين يتجمعون عند زاوية الشارع أمام محلّ بيع العصير حيث حزمة قصب السكّر واقفة دائماً في الزاوية.

وصل الملتحي إلى صورة القديس جرجس، تركها للأخير، رمقها بنظرة استكشافية مريبة، ولما فرغ من تأمل تفاصيلها، أعلن من دون سبب أن معركتهم وطنية ضد الرجعية والانعزالية وأن الطرف الآخر هو الذي يريدها طائفية.

عاد أحد المسلحين من الشرفة راضياً وأعلن أن الموقع مناسب لهم وهو ينظر بدوره إلى كتفَي أولغا العاريتين:

– نتحكّم بالهوليداي إنّ تماماً من هنا.

ردّ عليه المسؤول مستهزئاً تقريباً:

– عارف، عارف...

دخلت أولغا إلى غرفة النوم فحاول شمعون إخبارهم أن هذه الشقة هي مركز لاجتماعات خلية فرج الله الحلو فلم يظهر على القائد أنه سمع من قبل بهذا الاسم، فدخل شمعون في الموضوع مباشرة قائلاً إن أصحاب الشقة وطنيون مثلهم، لكن الملتحي تذرّع بأنها أوامر القيادة. استغل فاسكو الفرصة كي يفهم شيئاً مما يحدث:

– قيادة مَن؟ إلى أي تنظيم تنتمون؟

فكان الجواب جاهزاً:

– الأخ عصام شخصياً اتّصل بي.

التنظيم الشعبي.

«الأخ عصام» هو نفسه، اتّصل به ربما بواسطة الهاتف الأسود

الذي يتحدث منه في صورته المعلّقة على جدار مدخل البناية حيث تسكن ميسلون.

أوامرهم تقضي بردّ الهجوم الوشيك الذي ستتعرض له المنطقة التي هي أمانة في أعناقهم.

– هجوم؟

سأل شمعون وراح يشرح أن الاتجاه هو إلى التهدئة والحوار.

– هذا حكي جرائد...

سخر الملتحي مؤكداً أنهم يرون بأم العين ما يحصل على الأرض داعياً محدّثيه إلى الخروج إلى الشرفة كي يدلّهم أين يجري نقل الأسلحة والتمركز في مواقع جديدة:

– وصلوا إلى قلب منطقتنا.

بعد انتهاء عملية الكشف على الموقع، وزّع الملتحي المهام. عبّاس، حامل بندقية المنظار، سيبقى متمركزاً على الشرفة وسيصار كل يوم إلى عملية بدل، في الصباح الباكر يحل محله أبو ياسر وهكذا دواليك. وقبل أن يغادر مع الآخرَين، همس شيئاً في أذن عباس ثم توجّه إليه بالصوت العالي قائلاً:

– لا تخف، الجماعة أوادم، لن يتركوك جائعاً...

لم ينسَ أن يحدّد للقناص أهدافه:

– كل ما يتحرّك في الهوليداي إن والشوارع المحيطة به...

وأضاف:

– صوّب على الصدر لأن البندقية قد تشوط في يدك.

وفي لفتة أخيرة أرادها مطمئنة لساكني الشقّة وعد بأنه سيعرّج إلى هنا

بنفسه من وقت إلى آخر. لم يمنع نفسه وهو يقول ذلك من النظر إلى أولغا التي عادت إلى الصالون بعد أن سترت كتفَيها بشال رقيق لكنها لم تجلس.

بقوا صامتين، جالسين وهي واقفة تسند كتفها إلى حاجب الباب. ولما تكلّموا فعلوا ذلك بصوت خفيض، لا يرون المدعو عبّاس من حيث يجلسون ولا يعرفون إذا كان يقترب للإصغاء إلى ما يقولونه ما دام الوضع العسكري هادئاً تماماً. خشي فاسكو أن تكون مجرد حيلة لاحتلال الشقق السكنية. توقّع شمعون أن يطلق هذا القنّاص الأحمق النار من بندقيته العظيمة ضرباً ضرباً ولن يصيب أحداً على الأرجح، فيردّون عليه من الجهة المقابلة بالأسلحة الرشاشة وربما بالمدفعية وقد يصيبون الهدف. كان إيمان شمعون بالفعالية القتالية للقوى التي يناصرها يتدهور يوماً بعد يوم. نظام لم يتوقّع شيئاً، كان مقطّب الجبين قليلاً، لا يقول أكثر من الكلمة اللازمة. مع غياب الشمس بدأ مرافق فاسكو ينظر إلى ساعة يده كل خمس دقائق. فاسكو مضطرّ إلى العودة إلى البيت في الأشرفية، تغيّرت الأيام، صار التجوّل ليلاً أمراً غير مستحبّ ولو ظلّ وقف إطلاق النار صامداً. هذا ما أوصى به أهل فاسكو مرافقه بعد أن عجزوا عن منعه من الانتقال إلى الشطر الثاني من العاصمة. وعد شمعون وأكد أنه ابتداءً من صباح الغد سيتوسط مع منظمة فتح، مع أبو جهاد شخصياً، لردع هؤلاء المسلّحين عن الشقّة.

– إنت كمان شخصياً؟

سأله نظام من دون رغبة في السخرية فظهر القنّاص فجأة في باب الشرفة، لم يسمعوا وقع خطاه، وقف مبتسماً بشيء من الحياء الخاص به، سأل عن دورة المياه.

سيأكل وسيدخل أيضاً إلى المرحاض!

لا بدّ أن هواء البحر البارد لفحه في الخارج فتحرّك بطنه أو أنه شعر بالضجر وحده فاقترب من الضوء. أشاروا عليه في اتجاه الداخل فعبر بينهم والبندقية مع منظارها الطويل، ثروته، بيده لا تفارقه. سكتوا تماماً فصاروا يتابعون كيف يحاول إغلاق باب الحمّام الصعب المراس وراءه فلم ينجح تماماً لأنهم لم يسمعوا صوت المزلاج، سمعوا ارتطام أخمص البندقية بالأرض وهو يسندها على الأرجح في الزاوية خلف الباب كي يتمكن من قضاء حاجته. بقوا صامتين لافتراضهم أنه قادر على التقاط أقوالهم من حيث هو جالس. صارت تصلهم أدنى الأصوات المنبئة بما يقوم به من أفعال متتالية أحرج بعضها شمعون رخّو فغطّى عليها برفع صوته سائلاً من يفضّل القهوة بسكّر ومن يفضّلها مرّة ولو كان يعرف أذواق الموجودين. توّج عباس إقامته الطويلة نسبياً في الحمام بضربه سيفون الماء بقوة. طلب منهم عدم المؤاخذة على الإزعاج كما قال. توقّف هو أيضاً أمام صورة القديس جرجس التي اكتشفها أخيراً بالرغم من مروره المتكرّر في محاذاتها. نظر مليّاً إلى ركوة القهوة التي كانوا يتوزعون منها على فناجينهم، تباطأ، لم يدعوه لمشاركتهم فخرج إلى الشرفة من جديد.

انصرف فاسكو ومرافقه قبل العتمة وهو يعد بالعودة من صباح الغدّ ليساهم في إيجاد حلّ للشقّة.

بقي شمعون معهما حتى ساعة متقدمة من الليل، عرض تمضية الليل معهما لكنه بدا مضطرباً فأصرّ عليه نظام كي ينصرف.

لم تطمئن أولغا للنوم وحدها فتشاركا من جديد السرير الكبير.

أمضى نظام الليل وهو يتقلّب، الطقس حار واضطرا إلى إغلاق النافذة الوحيدة لأنها مطلّة على الشرفة من الجهة التي يتمركز فيها القنّاص، أولغا ستبقى في الشقّة، رغم أنوفهم، هكذا قررت، هو سيبقى معها، لن يتركها. يريد العودة إلى جَنان لكنه لن يتخلى عن أولغا. سيعلق هنا. غفا قليلاً من تعبه فأيقظته أولغا فجأة وهي تسحب نحوها الغطاء الذي أبعدته عنها بسبب الحرّ، سترت عريها وهي تدلّ نظام إلى النافذة. عندما دخلا إلى غرفة النوم كانت العتمة في الخارج تمنعهما من رؤية ما يحدث على الشرفة لكن ضوءاً أشعل في إحدى ساعات الليل في بناية مجاورة كشف فجأة لأولغا العاجزة عن النوم أيضاً خيال القناص يرتسم خلف النافذة. ينحني واضعاً يده فوق حاجبَيه كي يتفادى انعكاس الضوء في الزجاج محاولاً رؤية ما يحدث فوق سرير غرفة النوم من خلال الستارة الخضراء. همس نظام بأن الواقف خارجاً في الضوء لا يمكنه رؤية الداخل إن لم يكن مضاءاً بدوره. على كل حال، لن يشاهد عباس ما يشفي غليله: نظام ينام على كتفه اليمنى مديراً ظهره لأولغا، يطوي ركبتَيه على بطنه، في وضعيّة الجنين. عند ساعات الفجر الأولى، راح المسلّح يكرّر دخوله إلى دورة المياه، لا يبقى طويلاً، يخرج الأصوات نفسها كأنه أصيب بإسهال حاد جراء وقوفه في العراء.

في الصباح، حضر البديل، أبو ياسر، تسلّم البندقية والموقع، لم يفتحا باب غرفة النوم إلا بعد أن ارتدت أولغا ثيابها وتبرّجت. غرفة الجلوس صارت خارج البيت، شارعاً عاماً، معبراً لميليشيا التنظيم الشعبي نحو الشرفة المطلّة على فندقَي السان جورج والهوليداي إنّ حيث لم يطل انتظار أبو ياسر خلف بندقيته.

10

قرابة الساعة العاشرة انفجرت بيروت دفعة واحدة. ضبط الأطراف أنفسهم ثلاثة أشهر، أكثر مما يتحمّلون، فانفتحت أبواب جهنّم وبدأ استخدام الأسلحة الجديدة التي استقدمت في هذه الأثناء.

عند الظهر ذلك اليوم، وقع فاسكو وسائقه على أحد الحواجز المسلحة التي نُصبت فجأة عند جميع النقاط والطرقات التي تربط بين شطرَي العاصمة. أطراف النزاع استفادوا من هدنة الصيف الطويلة لدراسة الأرض والانقضاض عليها عندما تحين الساعة. أوقفوه وهو يعبر إلى المنطقة الغربية عن طريق المتحف الوطني كالعادة، طلبوا منه الترجّل للتفتيش، قال إنه غير قادر على الترجّل. ظنوا أنه يتمرّد، صرخوا به مجدداً، دلّهم على رجلَيه الضعيفتَين الملتويتَين وعلى الكرسي النقال فوق المقعد الخلفي. تأمل المسلّحون السيارة، بيجو 504 جديدة، لونها فريد، طلبوا من السائق الجلوس في الخلف، نحشر ثلاثة منهم أنفسهم في السيارة التي قادها أحدهم نحو وجهة مجهولة. لم يردعهم عنه تكرار مرافقه القول إنه يناصرهم في هذه الحرب ضد أهله. أنزلوه من السيارة في منطقة قريبة من مطار بيروت الدولي، طلبوا من مرافقه أن يُنزله ويعود إلى السيارة وأكملوا رحلتهم. خطفوا مرافقه، أخذوا

البيجو 504 وأخذوا كرسيّه المتحرك. لم يصل فاسكو لنجدة أولغا ونظام بل بقي حيث أجلسه مرافقه عند قارعة إحدى الطرق الفرعية، فوق جدار صغير من الباطون، مرتخي الرجلَين، حذاؤه البنيّ نظيف لا يدوس به أرضاً. لا يعرف ماذا يفعل، يمرّ به أحد سائقي التاكسي يظن أنه جالس ينتظر من يقلّه فيضرب له على المنبّه يسأله بيده إذا كان يودّ الركوب فيلوّح له فاسكو شاكراً. بقي هناك غير مصدّق ما يحدث له لأكثر من ثلاث ساعات تصله فيها أصداء الانفجارات تدكّ وسط المدينة. لم يقترب لنجدته أحد حتى أشار بيده في النهاية إلى سيارة إسعاف ضلّت طريقها هناك فحمّله سائقها والممرّض إلى منطقة المتحف حيث سلّماه إلى لجنة الارتباط الأمنية فأوصلته إلى بيت أهله حيث انقطعت أخبار جوزف الفرنيني نهائياً عمن بقي من الرفاق والأصدقاء، ولو قيل إنه انضمّ إلى المعسكر الآخر لأن مرافقه اختفى و لم يعرف عنه شيئاً بالرغم من كل المراجعات، وبقي اسمه يرد لسنوات في القائمة التي أعدّتها لجنة التقصّي عن مصير المخطوفين والمفقودين.

انفتحت جبهة البحر أيضاً فدخلت شقة المنارة المعركة من بابها العريض. أدرك القناص الجديد مع إطلاق الرصاصات الأولى أنه مكشوف أكثر من اللزوم فطالب بأكياس من الرمل يختبئ وراءها وبعناصر إضافية مع أسلحة رشاشة. عبرت الأرجل والوحول الشقّة فرفع نظام وأولغا السجادة الكبيرة وأدخلاها الغرفة الصغيرة. بدأت أولغا تحصي في ذهنها كل ما قد تندم عليه إذا سُرق لكي تقفل عليه في غرفة النوم. نظام كان يخشى على مار جرجس، يقول لأولغا:

– نظراتهم إليه لا تعجبني... كلما مرّ واحد منهم يتوقف أمامه.
وهي تطمئنه:
– لا تخف لا يقدرون عليه.

تقترب الانفجارات، يطلب منهما المقاتلون النزول إلى ملجأ البناية. يرفضان، لن يتركاهم في الشقة يسيدون ويميدون. تشتدّ أصوات القنابل، الرصاص يرتطم بجدار البناية، يقنع نظام أولغا بالنزول. خائفة وترفض مفارقته. نزلت أخيراً وانضمّت إلى بعض عائلات البناية وخصوصاً زوجة العيتاني التي استوطنت الملجأ هي وأولادها ونصف أدوات مطبخها وجهاز راديو ترانزستور لا تطفئه وأطباعها السيئة. لا تتوقف عن كيل الاتهامات يميناً ويساراً ومنها تلميح واضح إلى الساكنين في شقة الروف ومسؤوليتهم ومسؤولية أمثالهم عن اندلاع هذه الحرب واحتراق بيروت. شباب لا يرضون بشيء ويفضلون الغريب على أبناء بلدهم، هم ومن «يلفّيهم» عليه، تقول وهي تنظر بإصرار إلى أولغا التي سارعت إلى مغادرة الملجأ صعوداً ولو أن القذائف ما تزال تنهمر والروف معرّض لها أكثر من غيره من الطوابق.

لفت وجود المسلحين ورصاصهم انتباه الطرف المقابل إلى الشقّة فراحوا يمطرونه بوابل من رشّاشتهم بين الحين والآخر، فينسحب عناصر التنظيم الشعبي إلى الداخل، إلى الصالون. تنسحب أولغا إلى المطبخ وغرفة النوم. يقرر نظام هكذا وبلا سبب يذكر، البقاء جالساً في مكانه لجهة الشرفة رافضاً الانتقال إلى مكان محميّ. يصرخ به أحد القنّاصين ويكاد يهدّده بسلاحه. لا يقبلون على أنفسهم التراجع أكثر

منه هو الأعزل. يقترب أزيز الرصاص، يعلو الصراخ إلى أن يخرج الجميع من الشقّة إلى سفرة الدرج على الأقل فيما يبقى مسلّح واحد داخل الشقة ولو لمسافة مترين أو ثلاثة، في موقع مواجهة لا تقبل رجولته التراجع عنه. الليل كان مضطرباً أيضاً، المسلحون يخشون إنزالاً ليلياً او التفافاً عسكرياً على المنطقة عن طريق البحر. يطلقون النار على سبيل التحذير في اتجاه أضواء تكون عموماً مجرد مراكب للصيادين الفقراء. في الليل الهادئ لا يعود للمسلحين المتمركزين على شرفتهما من شغل شاغل غيرهما فينكفئون إلى الشقّة سعياً وراء الأنس. تطوّع الملتحي المسؤول مرتين لمهمة الحراسة الليلية المضنية بحجة رغبته في إراحة عناصره. يأتي بعد أن يتأكد من أن أولغا وحدها مع نظام. باتا وحيدين في كل حال. حتى شمعون لم يرجع، لا بدّ أنه عالق في مكان ما داخل مخيّم برج البراجنة. يمضي المسؤول السهرة معهما في غرفة الجلوس بدل رصد تحرّكات العدو خارجاً، يحاول التأكد مما إذا كانا زوجين، حبيبين، قريبين، أي شيء يتدبّر أمره به. لا يحصل على جواب شافٍ، لا يحصل على أي جواب. تدخل أولغا إلى غرفة النوم، يدخل الملتحي على نظام مباشرة بالسؤال غامزاً إذا كان محتاجاً لمساعدة، يحكي ويبتسم ليكون تحرّشه هذا بين المزاح والجدّ: «أخبروني أنك لا تقوم بالواجب...»

يحتار نظام ماذا يفعل بالرجل الذي يستأذنه النوم في غرفة الجلوس. لا يوافق ولا يرفض فيمدّد الملتحي البندقية أرضاً ويتمدد هو بحذائه العسكري على الكنبة، ما يجعل خروج أولغا إلى الحمام في الليل مهمة مستحيلة ما دام بطوله ورائحته هنا يقطع عليها الطريق. انضم نظام إلى أولغا وقد ضاق الحصار عليهما، خطر في باله أن يضرب الرجل

على رأسه بالساموفار مثلاً ثم يحمله هو وبندقيته ذات المنظار اللعين ويرميهما من روف البناية إلى الشارع في جوار بائع العصير الذي لا يقفل أبواب محله لا ليلاً ولا نهاراً ولا حرباً.

بعد ظهر اليوم التالي حاول الاتكال على نفسه. طلب من أولغا البقاء في غرفة النوم حتى عودته، أوصاها أن تحتشم في لباسها وذهب إلى شقيقته ميسلون في الطريق الجديدة. عاد في المساء إلى المنارة فوجد باب الشقة مفتوحاً. لا أحد في غرفة الجلوس، لا أحد على الشرفة، أكياس الرمل ورصاصات فارغة وزجاجتا ويسكي فارغتان. الاشتباكات شبه متوقفة، انتقلت الجبهة إلى وسط المدينة. رحلوا. استدار، كانت نافذة غرفة النوم مشرّعة، كومة فوق السرير، جسم ملتف على نفسه وبكاء.

– أولغا!

شهقت كالصغار:

– أمام عمتي وجدتي...

قفز إليها من النافذة، احتضنها.

– رائحته يا نظام...

اقتحموا غرفة النوم من النافذة، كسروها، بعد أن أوصدت الباب من الداخل في وجههم. كان الملتحي ثملاً يتمايل، قفز بصعوبة من النافذة ومعه مرافقان. صعد إلى السرير دون استئذان وهو يتهمها مع نظام بأنهما لم يتكرّما بكسرة خبز على العناصر الذين يضعون دمهم على كفهم دفاعاً عن المنطقة. صار يزحف نحوها ويرمقها بنظرات إغراء بائسة. كان مهتاجاً إلى درجة كبيرة، فرّت منه في اتجاه

الباب، حاول العنصران إيقافها لكنها خرجت إلى الصالون ومنه إلى الشرفة مستغيثة بأعلى صوتها وما من مجيب. أعاداها وأجلساها بالقوة على الكنبة، اقترب قائدهم منها متثاقلاً، طلب من أحد العنصرَين أن ينزع عنها سروالها الداخلي. أبقى على قميص النوم وأدخل يده من تحته، كانوا في هياج كبير وهي تقاتل بيديها، تخدشهم بأظافرها، تشدّ فخذيها على بعضهما، تعضّ، تركل برجليها وكيفما انقلبت أو صرخت يقع نظرها على عمتها في الصورة مقابلها. استنجدت صارخة باسمها وصرخت على جدتها أيضاً ثم بدأت تحكي بالروسية، ترجوهم بالروسية أن يكفّوا عنها، أن يديروا على الأقل وجه عمتها نحو الجدار كي لا تراها، تشتمهم بالروسية وقائدهم يسخر منها بالقول إن صديقها تركها وهرب... تبكي وتضحك بالروسية وتقول له:

– أين ذهبت يا نظام وتركتني؟

– تغكتني، إيه؟

يسخرون من لهجتها، تقاوم فيهتاجون. واحد أمسكها من معصميها الضعيفَين بيديه والآخر راح يعمل في الجزء السفلي إلى أن تمكّن من نزع سروالها فارتمى فوقها قائدهم. كادت تغيب عن الوعي فقط بسبب رائحته، أخرج عضوه دون أن ينزع عنه أي ثياب. من كان ممسكاً بالجزء السفلي من جسمها فتح فخذَيها بيديه عنوة وراح يلعقها بلسانه، صرخت باكية بأعلى صوتها:

– استسلمت يا نظام...

لكن ما كاد يحتك عضوه بأسفل بطنها من فوق الثياب حتى قذف غصباً عنه.

تذرف دمعاً حاراً متشبّثة بكتفَي نظام:

– قذف عليّ، على بطني...

تهرع إلى الحمام لتتقيأ من جديد.

– كيف انصرفوا؟

دخل أحد المسلحين إلى الشقة، وقف في الباب، أبلغهم بصوت صارخ أن الأخ عصام أصدر أوامره بإخلاء الشقة في الحال فجمعوا عدّتهم وغادروا.

– تعالي...

مرّا أمام ايقونة القديس جرجس فرمت عليه أولغا نظرة ملامة.

أدخلها نظام الحمام، أجلسها في المغطس عارية، بدأ يفرك ظهرها وبطنها وكتفَيها وذراعيها بالليفة والصابون. أخبرها وهي تشهق من وقت إلى آخر أنه قصد ميسلون لأنها تسكن في البناية حيث الأخ عصام معلّق على الجدار عند مدخلها يتحدث على الهاتف ويبتسم. استقبلته ونادت زوجها الذي توسّط لديهم كي ينسحبوا من الشقّة. يكثّر من رشّها بالماء، يعاود فركها مرة جديدة، ينظّفها في العمق وهو يخبرها عن سينما روكسي التي فتحها والده محمود العلمي في حمص وكم كانت ميسلون تحبّ الأفلام ووالده عاشق لغلوريا سوانسون بعد أن شاهد لها فيلماً ثم رغب من جديد في حضوره خارج الحفلات المقررة فأقفل باب السينما وطلب من مشغّل الآلة لديه أن يعرضه له وهو جالس وحيداً في وسط الصالة فنسيه عامل الآلة في الصالة وأقفل عليه. ثم بدأ فجأة وهو يمشّط شعرها المبلل يستعيد من ذاكرته حوارات الملك يموت المضحكة المبكية وهي تهدأ وهو ينشّفها ثم

حملها إلى السرير حيث أنزلها على مهل كحمل ثمين وبقي يطوّقها بذراعيه، يلامس شعرها، يخبرها كيف حاول والده تهريب الحشيشة داخل علب الأفلام إلى أن غفت على يده وهي تطلق شهقة في رجع صدى لبكائها الطويل، فأخذ نفساً عميقاً وارتمى إلى جانبها منهك القوى فارغ الروح.

استيقظت باكراً، نظيفة، تعود لتضربها ذكرى أمس فتتغلّب عليها وتمشي إلى الحمّام على رؤوس أصابعها. تعود إلى الغرفة، تفتح حقيبة سفرها الحمراء إلى جانب السرير حيث ما يزال نظام نائماً، ترتّب ثيابها في أسفلها بهدوء ثم تبدأ دورتها الأخيرة في شقّة المنارة. تودّع ما ستتركه وراءها، تنزل صورة عمتها وتضعها في الحقيبة. تتوقف أمام صورة الأرشيدوق لكنها لا تحمله، تقفل الحقيبة وتجلس عليها، تشعل سيجارة وهي تنظر إليه وتنتظره. لم يفاجأ بمنظرها عندما فتح عينيه.

– أريد أن أودّعك...

بدأ بارتداء ثيابه:

– أذهب معك.

خافت:

– لا، لا، لا أتحمّل المزيد...

هو أيضاً سيذهب إلى جَنان، يوصلها إلى جونيه ويعود إلى الأشرفية...

احترقت ساحة البرج، تدمّرت الاسواق، سرقوها.

لم يعد ممكناً النزول إليها ولا المرور عبرها وحتى مع إعلان وقف إطلاق النار الجديد وتشكيل لجان ارتباط، صار الانتقال إلى الجهة

الأخرى من العاصمة مشروعاً يتطلب وقتاً وجهداً. أعطاها بدل إيجار عام كامل سلفاً، المال الذي أعطاه إياه جرجس ما زال في جيبه. لا مصروف في زمن الحرب.

وصلا إلى أمها في جونيه بعد عناء على المعابر. زحمة خانقة في الاتجاهَين. الباخرة تبحر بعد الظهر إلى قبرص، لا حجز، من يصل يدفع ويصعد.

– لن أعود إلى هنا بعد اليوم، يا أمّي...

تقول بدون لهفة بادية في نبرتها:

– لم أشبع منك يا أولغا...

ترفض مرافقتها في رحلتها. انتهى تجوالها، تعبت من الانتقال من بلد إلى بلد، ومن رجل إلى رجل. ماتوا كلهم. بيتها يناسبها تماماً، اعتادت عليه ولن تعتاد على غيره. لا قوة لها على السفر، ستموت هنا برفقة هررتها وانتهى الموضوع. طمأنت أولغا بأنها حضّرت كل ما يلزم مع كاهن الرعية.

لم تشأ أولغا الرحيل قبل أن تصفّي حساباً قديماً:

– أنت قحباء يا أمي، أنت زوّجتني، أحببته لأنه يحب الحياة...

تقولها بسخرية وبالفرنسية تقليداً لصوت أمها. ولأنه جميل وثريّ ولاعبها بالبريدج وكادت رفيقاتها يتّهمنها بأنها هي المعجبة به.

أسكتتها أمها واقترحت عليها أن تبقى معها إذا أرادت فتح دفاتر الماضي. توقفت أولغا وختمت:

– يا أمي، لو جاء هذا الشاب، نظام، وطلب منك أن تعطيه كل ما تريدين أن تورثيه إياه في لبنان أعطيه، لولا أني لا أكبره بثلاثة

عشر عاماً لتزوّجته وأنجبت منه الأولاد وأمضيت حياتي في خدمته وجئت له بالفتيات الصبيات إلى فراشه...

وقف في مرفأ جونيه إلى جانب أمّها، تمسكه من يده هي أيضاً، كما تفعل أولغا. تقول وهما يتابعانها كيف تجرّ حقائبها بصعوبة إنها لم تسمع ابنتها يوماً تتحدث عن رجل كما تحدثت عنه. وقفا يلوّحان لها، عائلات بأكملها مع الأطفال يصعدون على متن الباخرة. رحلة قصيرة يمضونها على السطح. إذا تمكن نظام يوماً من تعمير مركبه الشراعي فسوف يسميه أولغا.

أوقفها نظام، لحق بها، فتح زرّ قميصه وأخرج الخرزة الزرقاء من رقبته وأدخلها في رأسها. حاولت الرفض قائلة إنها ذاهبة إلى بلاد الأمان ولا حاجة بها إليها هناك. يصرّ ويقبّلها على فمها فتتجاوب معه ويتعانقان هكذا طويلاً تحت أعين المسافرين:

– طعم قبلتك الأولى دام طويلاً...

قاطعتهما ديما:

– نظام...

جاء النداء من الباخرة.

– ديما!

الرفيقة السمينة الضاحكة ترضخ لطلب أهلها أن تسافر إلى فرنسا. يتفاهمان بحركات اليدين. تسأله عن الأصحاب فيهزّ رأسه. اقتربت منهما، وجدت رفيقة الرحلة، سيتحدثان عن نظام خلال العبور إلى لارنكا.

11

عاد مباشرة إلى جَنان. أنزله التاكسي في أول الشارع فهرول نزولاً، قرع باب المحترف. لا أحد. باب أهلها. لا جواب. سأل بائعة الزهور، فتحت ذراعيها ونظرت إلى السماء ثم أشارت في اتجاه ما. خرجوا ولا تعرف متى يعودون.

ينتظر، هنا في الجوار، يجول حيث كانت تحبّه أن يجول.

عاد صعوداً فالتقى برفّول نازلاً.

كان يسير ببطء على الرصيف لجهة معهد الدراسات الشرقية، على رأسه قبعة من الجلد الاسود. يرتدي معطفاً بالياً ويحمل بيده شمسيّة زهريّة اللون، حقيرة، يضرب من تضجّره برأسها الحديدي الجدران حيث يتيسّر له الضرب. المطر خفيف ولا يحتمي بالشمسية. بادر نظام بالسؤال مستغرباً:

– ماذا تفعل هنا؟

من الواضح أن شيئاً ما انفرط في رفّول، مثل ساعة المنبّه التي تستمرّ في الدوران مع أن قطعة انكسرت في داخلها يمكن سماع خشخشتها إذا حرّكتها قريباً من أذنك. ازداد تفرّسه بالآخرين واكتشافه المتجدد لهم لكنه لم يغفل عن توزيع خلق الله على أحياء بيروت وضواحيها.

سأله نظام عن أحواله فدمعت عيناه، أخرج محرمة القماش البيضاء ومسح بها عينَيه من خلف نظّارته، قبل أن يستجمع أنفاسه وينبش في ذاكرته بعيداً ليقول لنظام إن توما ورخيمة أرسلا إليه وصيّة مع السائق قبل يومين على احتراق بيروت.

– نسيتها تحت...

أشار بيده نحو ساحة البرج ثم التفت إلى نظام قبل أن يحزم أمره:

– تعال، أنت من زبائني القدامى...

بعد دقائق من السير الصامت، انعطفا يميناً فبان أمامهما الشارع الضيّق الطويل المستقيم الموازي لساحة البرج. توقف نظام يتأمل من أعلى ما انكشف أمامه فجأة من زحمة الناس وعربات الخضار والبضائع المعروضة على سقوف السيارات والثياب المنشورة على حبال الغسيل. فجأة شتم رفّول حَورا بأقبح الكلام.

– لم يعد لديّ أحد فوق...

يعرف نظام الشارع تماماً، كان يسلكه صعوداً إلى جَنان ويجده دائماً شبه خالٍ إلاّ من بعض العجائز أو من طالب يحثّ الخطى نحو كلية الحقوق القريبة.

يفيض الآن بالناس، بمن لفظتهم ساحة البرج. رمتهم على عجل إلى الخطوط الخلفية هرباً من الاشتباكات والحرائق. تراجعوا عشرات الأمتار فقط عن مواضعهم الأصلية لكن رحلتهم كانت قاسية. وجوههم بدت تعبة وأجسامهم كأنها ترهّلت، يجلسون على كراس واطئة أمام بضائعهم، يتركون للزبائن أن يتلمّسوا الأقمشة ويتفحّصوا الزجاجيات والحلي الرخيصة. بعضهم كتب على قطعة خشب أو

كرتون اسم المتجر الذي نزح عنه، ولو أن لافتته مرفوعة إلى جانب بضاعة قليلة، شبه رمزية، على الرصيف، فوق طاولة جمع عليها ما تمكّن من إخراجه قبل انسحابهم. بضاعة يبدو أحياناً أنها أخرجت بالفعل على عجل وهي غير معدة أساساً للعرض في الشارع، على سطح سيارة، مثل أثواب الجوخ الإنكليزي المتدرجة الألوان أو مانوكان امرأة سحبها صاحبها في تراجعه فأوقفها بصعوبة عارية وسط البضائع المرمية على الجوانب والبقايا المهملة التي يصعب أن يأتي أحد لجمعها في هذه الظروف. بعض المتسوّقين من الرجال كان يحمل بندقية في كتفه تحسّباً ربما لقرب الشارع من خطّ النار.

كانا يسيران وسط الطريق المكتظة بالذين جاؤوا يشترون هنا لظنّهم أن الأسعار رخيصة، والسيارات القليلة التي تغامر بالمرور تكون قاصدة أماكن قريبة في الشارع نفسه أو في الشوارع الصغيرة المتفرعة منه، فلا معبر من هنا إلى أي مكان سوى إلى ساحة البرج والأسواق المحترقة.

كان رفّول يعرف وجهته، يشقّ طريقه وسط الحشد بيده وشمسيته ليكملا طريقهما في شارع فرعي إلى اليسار، طالعتهما لافتة صغيرة مغروسة في وسط الشارع:

– انتبه قناص.

ومن بعدها لافتة أخرى:

– الشارع مقطوع، ألغام.

لم يتوقف رفّول، لم يقرأ ولم يتردّد ونظام يماشيه حتى وصلا إلى السوق العمومية حيث بدت البيوت مقفرة والأوساخ في وسط الشارع. بعد

خطوات أوقفهما مسلّحون متمركزون خلف زاوية أحد المباني القديمة. انكشفت لهما أجزاء من ساحة البرج، صارا على بعد أمتار من زهرة الشمال. تعرّف أحد المسلحين إلى رفّول ونهره متأففاً:

– كم مرة قلنا لك ممنوع، ممنوع...؟

وأضاف مشيراً إلى ساحة البرج:

– كله مدمّر، إلى أين تريد الذهاب؟

لا يجيبهم.

يحذرونه بأن مدخل الفندق واقع تحت مرمى الرصاص من الجهة المقابلة، سيصطادونه كالعصفور. قال نظام إن هناك وقفاً لإطلاق النار، فهزئ به المسلّح:

– وقف إطلاق النار في الإذاعة فقط... ليلة أمس تسللوا علينا من جهة سينما ريفولي...

كان رفّول واقفاً مهزوماً يطلب إذناً للدخول إلى زهرة الشمال من رجال لم يرَهم يوماً هنا. استنجد بنظام، أمسكه من ذراعه وتنحّى به جانباً:

– أنا مضطرّ إلى الصعود إلى الأوتيل، تركت فوق أشياء ثمينة لا حياة لي بدونها...

كان يبتهل بصوته الخافت.

– كل يوم تخترع حجّة!

لن يتحمّله نظام على هذه الحال فهمس له:

– اتبعني وإذا صرخوا علينا لا تنظر إلى الوراء ولا تردّ عليهم.

تقدّما نحو ساحة البرج، لم يصرخ بهما أحد، لم يردعهما المسلحون.

قال أحدهم لرفيقه إنه لن ينجدهما ولن يسحبهما إذا قتلا أو أصيبا. مشى نظام في المقدمة، مشى رفّول خلفه تماماً كأنه يحتمي به. بضع خطوات وأطلاّ من رصيف مقهى الجمهورية على ساحة البرج. جمد نظام في مكانه، انجذب إلى الخراب، الأشجار الواقعة أرضاً، حجارة الأبنية المتدحرجة إلى الساحة، اللون الرمادي الأقرب إلى لوحات جَنان، الكلبين الهائمين وسط الركام، فجوات ورصاص في تمثال الشهداء البرونزي، جزء من مجسّم أنيتا أيكبرغ الذي انكسر ولو أنها ما تزال تنظر إلى الجنوب. هدوء كامل بعد الإعصار. دفعه رفّول يميناً نحو مدخل الفندق، كان مستعجلاً للوصول. دخلا، تلاشت رائحة زهرة الشمال تحت التراب والحصى. صعدا الدرجات على مهل. غرفة الانتظار صارت مفتوحة على ساحة البرج، نصف جدارها مهدّم، الأثاث غارق في الركام، آثار الرصاص تملأ الجدران التي ما تزال واقفة. بدأ رفّول يضرب طرف شمسيته في قطع الاسمنت المتطايرة، يقترب من باب إحدى الغرف الداخلية وينادي عالياً:

— ياسمين، ياسمين...

كأن هناك عمقاً خلف الجدران يمكن أن يصل إليه صوته. انتبه نظام إلى أنه سمع كثيراً بياسمين و لم يرَها.

ياسمين امرأة رفّول الوحيدة، تنظّف الفندق وتغسل الشراشف وتدخل في فراشه، يدّعي أمام الجميع أنها مريضة، يلمّح إلى السفلس، يمكن أن تنقل العدوى إلى من يعاشرها، يبعد الزبائن عنها كي يحتفظ بها لنفسه. يحبّها.

أو ربما لا وجود لها، ربما يخترعها رفول، يصنع لنفسه منها ومن ابنتها المزعومة عائلة.

وبالنبرة نفسها ينادي أبا علي ويطلب من نظام المناداة أيضاً والبحث عنهما بين الأنقاض:

– أنا متأكد أنهما هنا، ابحث جيداً...

كاد نظام يصدّق ويبدأ بالبحث، لكنه دار في أرجاء النزل الصغير فاكتشف أن لا مكان لمختبئ أو لقتيل.

جلس رفّول فوق كرسيّه من دون أن يكترث للغبار السميك، عاد إلى خلف مكتبه.

– كنتُ جالساً هنا...

كانت عنده، تمسح الأرض وينتظرها كي تنتهي وهو يتأمل مؤخرتها المكتنزة، يبتسم. لم يكونا وحدهما، كان أبو علي كعادته يدخّن سيجارة على الشرفة. عند كل استئناف للمعارك يقصد صيدا ومنها ينتقل إلى قريته في جوار النبطية. لكنه ما إن يُعلن وقف لإطلاق النار حتى يعود إلى بيروت، ليس لديه ما يفعله في القرية، لم يعد يعرف أحداً هناك، يعود لكنه أقلع عن النوم في زهرة الشمال، وجد فندقاً صغيراً في الجانب الآخر.

– أكثر أماناً له من هنا..

يأتي إلى رفّول نهاراً فقط. أمضى خمس سنوات في الفندق عنده، يتبادل معه أطراف الحديث، منذ تعطّل ميدان سباق الخيل تعطّل أبو علي. يشعل سيجارة يزعج دخانها رفّول فيخرج إلى الشرفة ليكملها. كان يهمّ بالدخول عندما دوّى الانفجار الأول. حاول رفّول أن يقلّد صوت المتفجّرة فوقف عن كرسيه وارتمى عليه مجدداً. اهتزّ الفندق من أساسه، تحطّم كل الزجاج وانهمر الرصاص كأن المقاتلين كانوا على موعد ينتظرون إشارة البداية. دفع الانفجار

المباغت أبا علي رغماً عنه إلى داخل الفندق، وقع أرضاً بطوله.

– تكوّمنا نحن الثلاثة هنا في الزاوية.

كان رفّول يمسك بياسمين من الخلف، يغمز نظام مؤكداً رجولته، حتى إنه يبتسم متفاخراً. كان يطوّقها بذراعَيه، يوسّع ذراعيه على ما يفترض أنه حجم خلفيتها. مرّت دقائق طويلة قبل أن يصبح الرصاص متقطّعاً. رفع السمسماني رأسه محاولاً الوقوف على رجليه. دوّى انفجار كبير ثان، ارتطم رأس رفّول بالجدار، لم يعرف ماذا أصابه، لم يشعر بالخوف، نظر إلى ياسمين كأنه لا يعرفها. لا يدري لماذا راح يشتمها، تخرّب رأسه، كما قال. وقف في وسط الغرفة لا يبالي بالرصاص المنهمر، صار يتهمها بأنها تحبّ المال وتعاشر من يدفع لها أكثر. يروي ما قاله لها وهو يضرب رأسه بيده متأسفاً نادماً. قال لها إنها حقيرة لا تشبع، تحمل أمراض الدنيا كلها وإن مكانها في السوق إلى الناحية الخلفية. صفعته على وجهه بقوة وتأسفت على قلقها بشأنه. آخر شيء يتذكره هو أبو علي محاولاً الإمساك به وإنزاله أرضاً كي لا يصاب. غاب عن الوعي بعدها، بقي ملقى في الفندق حتى صباح اليوم التالي عندما وجده مقاتلون كانوا يبحثون عن مواقع تكشف الطرف الآخر. حرّكوه فتحرّك، أشربوه ماءً فنهض على قدميه، سأل عن ياسمين وأبو علي، سخر المسلحون من أسئلته وساعدوه في النزول وسط الركام.

– والآن ماذا تريد؟

– ساعدني كي أجدهما...

لم يصدّق روايته لكنه راح يساعده في الصراخ ويبالغ جامعاً يديه

كالبوق حول فمه، فقط لإرضائه، ينادي:

– أبو علي... ياسمين.

ثم ينصت قليلاً ليسمع الإجابة، يكرر النداء من بعد رفّول، مثل صدى لصوته التعب. لا شيء.

استنفدا صوتيهما والمكان فتأبط نظام ذراع صاحب زهرة الشمال ورافقه نزولاً في عتمة الدرج. سألهما المسلحون ساخرين إذا كانا وجدا أصحابهما.

عادا من الطريق نفسه. المطر الخفيف يتساقط من جديد ورفّول يمشي محبطاً، فقد القدرة على الكلام، نظام لا يزال ممسكاً بذراعه في شيء من المؤاساة عندما سمع صوتاً ضعيفاً يناديه:

– نانو، نانو!

امرأة تناديه خلسة عساه يسمع صوتها وحده. توقف ملتفتاً إلى مصدر الصوت الطالع من جهة بيت ناديا. كرّرت المرأة عليه النداء بإصرار مضاعف. لا شك في أنها مختبئة خلف باب. طلب نظام من رفّول انتظاره قليلاً فوقف هذا الأخير في وسط الشارع، فتح شمسيته النسائية بصعوبة ورفعها فوق رأسه. صعد نظام درجات المدخل بسرعة، كان الباب مفتوحاً، لاقته اليونانية السكوت إلى غرفة الجلوس والانتظار، ارتمت عليه، عانقته بلهفة كأنه قريب لها عائد من سفر طويل. قالت إنها اشتاقت إليه، نبرتها صادقة، كانت تتكلم العربية بلهجة أهل الجبل، كان سيريل على حقّ، ليست يونانية.

رأته ذاهباً مع صاحب الفندق في اتجاه ساحة البرج وانتظرت عودته خلف النافذة. تشاهد رفّول يمرّ من هنا كل يوم، وحده.

تذكّر رفّول فخرج ليطلب منه الانتظار قليلاً لكن بدا على رفّول أنه لن ينتظره إذ أكمل طريقه وحيداً مع شمسيته النسائية وسط الباعة وعربات الخضار. نادى عليه نظام من شرفة بيت ناديا فعاد أدراجه ووقف قبالته في الشارع الضيّق:

– أرسلوا لك طائرة...

لم يفهم نظام ما قاله رفّول وظن أنه استمرار لتخريفه حتى أخرج صاحب زهرة الشمال من جيب معطفه مجسّم طائرة الخطوط الجوية البريطانية وراح يلوّح له بها كمن يلوّح بمنديل الوداع وهو يضحك فتبين أسنانه المتفرّقة.

– يوصونك أيضاً ألا تصعد إلى حَورا فالأمور على حالها فوق...

قالها بلهجة نصف مسموعة وكأنه يتحدث بينه وبين نفسه. أضاف إليها حركات من أصابع يده تشير إلى العملة وحاول إفهامه أنه اضطر أحياناً لإنفاق المال الذي كان يرسله توما ورخيمة إليه لأن مداخيل الفندق لم تكن تكفيه.

لم يسأله نظام أين يسكن ولا كيف يلتقيه مرة ثانية. على كل حال يبدو أن رفّول لم يعد قادراً على قطع وعود واضحة.

نادته اليونانية مجدداً، سألها نظام إذا كانت لبنانية، قالت إن والديها توفيا وهي طفلة و لم يهتمّ أحد لأمرها، هربت من الميتم إلى معمل خياطة في برج حمود ثم إلى هنا. طلبت منه أن لا يخبر أحداً بأنها لبنانية فهي ما تزال تدّعي أمام المسلحين أنها يونانية، وهم متمسكون بها وتعتقد أنهم إذا عرفوا أنها لبنانية مثلهم فسوف يتوقفون عن الاهتمام بها. بقيت في بيت ناديا لكنها لا تعرف متى يسقط السقف

عليهم. لا تحكي أمامهم فيتكلمون بحرية أمامها لظنّهم أنها لا تفهم فعرفت قبل غيرها باليوم الذي كانوا سيسطون فيه على سوق الصاغة ثم يحرقونه. جلست بجانبه على الكنبة المغلّفة بقماش سميك ملوّن وأخبرته عن سيريل كيف اختفى لوقت طويل ثم حضر ذات يوم. وصل حليقاً مرتباً لكنه لم يجد علاجاً لزوغان عينيه. أخرج أمام البنات مالاً من جيبه، كدسة أوراق من فئة المئة يرتّبها جميعها لجهة قلعة بعلبك الرومانية ثم يطويها بتأنّ فقط ليطمئن الجميع إلى أنه لم يعد بحاجة إلى المال.

انتهى الكلام بينهما، أخبرت نظام بكل ما تعرفه، لا تعرف عنه شيئاً كثيراً. أمسكته من يده ونهضت لعلّه يرافقها إلى الغرفة. سحب مالاً من جيبه من دون أن يعدّه، وضعه في يدها وقال إنه مستعجل للقاء أناس ينتظرونه.

عاد إلى شارع لبنان وحده تحت المطر. بدأ الباعة المرتجَلون يجمعون بضائعهم هاربين.

ما إن وصل أمام واجهة محل بائعة الزهور حتى دلّته بيدها في اتجاه مدخل البناية، أشارت عليه أن يكمل سيره بلا توقف، تعرف كم هو متشوّق.

12

وجد والدتها في المحترف، فتحت له الباب، شاحبة كئيبة. نظر إلى الداخل:

– أين جَنان؟

دمعت عينا أمها من منظر لوعته.

– طالبَت بك كل يوم لكن كيف نصل إليك؟

اتصلوا بالهاتف عشرين مرة في اليوم على الرقم الذي أعطاهم إياه لكن بلا جدوى. كانت المعارك بين الفنادق تدور على بعد أمتار قليلة من صيدلية المنارة. صاحبها يخاف كثيراً.

– أين هي، ما بها؟

إنها على قيد الحياة، في المستشفى.

أمسك نظام أمها من يديها مطالباً بالمزيد. كرّرت عليه أن لا خطر على حياتها.

استمع إلى التتمة من دون أن يأتي حراكاً.

شقّت جَنان معصمها الأيمن بالشفرة، الكاتر التي تستخدمها لقصّ أطراف القماش إذا تجاوز الإطار الخشبي الذي تشدّه حولها قبل أن

تبدأ بالرسم. وجدتها أمها على آخر رمق تقريباً. شيء ما قال لها قومي إلى ابنتك، صوت ناداها، سمعته بأذنَيها. كانت في ملجأ البناية، ليلة قصف شديد. جَنان لا تنزل معهم أبداً، لا يخافون عليها كثيراً من القصف لأن الشقّة هنا محميّة بالبنايات المجاورة. تقول جَنان إنها تفقد أعصابها تحت، لا تحتمل خوف الآخرين على أنفسهم وعلى أولادهم وأغراضهم. وجدتها أمها ودمها يكاد يصفّى وقد بدأ البرد يدبّ فيها. لكانت شبعت موتاً لو لم تكن أمها تحتفظ دائماً بمفتاح المحترف معها. يخشون تصرفاتها، يصرّون عليها كي تنام معهم في الشقة، فوق، كل ليلة. لا يتركونها وحدها لوقت طويل أبداً، يتفقّدونها بحجج عدة، تنزل إليها أمها تعرض عليها الأكل أو الشرب. تقترح عليها زيارة، نزهة، أي شيء لإخراجها إلى العالم. إنها ابنتهما الوحيدة، لا أخ ولا أخت. من سنوات لم تخرج إلاّ برفقة نظام، لم يعد لديها أصدقاء. استغربت أمها كيف دخل نظام إلى قلبها. كانوا يطمئنون عندما يكون هنا، تتغيّر، تعود ابنتهم التي يعرفونها، تضحك وتلعب، سهلة المنال، ثم تمسك نفسها من جديد، تختبئ مع لوحاتها وأدواتها مع هذا الببغاء. لا تستغني عنه، تقول إنه يشعرها بوجود نظام، توقظه إذا نام، لم يتعلّم منها شيئاً لأنها لا تحكي، ستأخذه معها، تصرّ عليه أيضاً.

– أي مستشفى؟

يقول الطبيب إنه يجب توفير الصدمات العاطفية عليها، تكتفي بوجود أمها وأبيها، والدها معها هناك لا يتركها لحظة. لم تعطه اسم المستشفى، شعر نظام من البداية بأنه وصل متأخراً على شيء ما، فالقرار اتخذ ولا كبير حاجة له هنا بعد الآن. اعتاد هذا الشعور أخيراً، ما حصل قد

حصل. تحكي أمها عن علاقتها بنظام كأمل ضاع. ترتّب المحترف، تجمّع اللوحات في الزاوية إلى جوار الباب الخارجي، توضّب الريَش والألوان في صناديق من الكرتون، حملت الببغاء إلى الطابق العلوي لتهتم بإطعامه. تجمع أدوات الرسم لأن الطبيب قال إنها تساعده في علاجها. هي بحاجة ماسة إليها. يفضّل الطبيب أن يبعدوها لفترة عن رسماتها أو إبعادها فقط عما ترسمه الآن وإذا أصرّت على الرسم من جديد فسيكون تحت إشراف طبيب.

– الطبيب!

يتابعها منذ اكتشفوا أنها تجرّح ذراعها بلا سبب، لكنهم أخفوا عنه قصة جدتها التي قضت في ظروف تُذكر بغموض في أوساط العائلة. رمت نفسها من فوق سطح إحدى البنايات، سقطت فوق الرصيف. جَنان تشبهها، جميلة مثلها. عند اندلاع الجولة الأخيرة من القتال، بدأت تطالب بنظام، تريده الآن، الآن. تكتب له قصاصات ورق، مشاريع رسائل لا يمكن أن تصله، جُملٌ بخطها الجميل:

«أنت شعاع حياتي، لم تقل الكثير، لم تفعل الكثير لكنك تضيء على أرضي الجدباء التي لا فائدة ترجى منها.

وهذه:

كيف أسجنك؟ كيف أحيط بك من الجهات الأربع؟ ألواني تبوخ في غيابك ومخلوقات رثّة متوعّدة تتقدّم نحوي بخطى حثيثة. ما من مخرج للطوارئ.

كتبتها قبل يوم واحد على محاولة انتحارها. تقف أمام لوحاتها التي لا

تنتهي، حتى عندما كانت الانفجارات تهزّ الحيّ بأكمله، تبقى واقفة والريشة بيدها، تضيف وتضيف، الرمادي ثابت والأحمر القاني يتوسّع أو يخف بحسب الأيام ومزاجها. لم تتمكن من الصمود، أنقذوها على آخر رمق، كانت مستلقية على الكنبة ويدها ممدودة إلى الخارج يقطر منها الدم على بلاط الغرفة والببغاء يرفرف ويطلق أصواتاً. نقلوها إلى المستشفى، أعطوها دماً في سيارة الاسعاف، مسعف جريء في الصليب الأحمر أنقذها. هكذا قال الأطباء عند وصولها إلى الطوارئ في المستشفى. لن تعود إلى هنا في المستقبل القريب.

يريد رؤيتها.

لن يزورها أحد في الفترة الأولى غير والدَيها. سيؤجرون المحترف كشقّة سكنية. ربما يعيدون إليها أدوات الرسم في يوم من الأيام، إذا وافق الطبيب، ربما...

دعته أمها لتمضية الليل هنا، كما كان يفعل أحياناً. المعابر بين المنطقتين تقفل مع حلول الظلام. طلبت منه أن يغلق الباب وراءه عند خروجه في الصباح.

طلب منها أن تطفئ عليه النور.

بقي ممدّداً بطوله على الكنبة.

أصوات غامضة تصله.

تابع منها وقع خطى في الطابق العلوي، هدير عميق لا ينقطع، مولّدات الكهرباء الصغيرة هنا وهناك على الشرفات، صوت منبّه سيارة إسعاف.

ينهض، يضيء الكهرباء، يوقف لوحات جَنان التي كانت أمها جمعتها بعصبية ومن دون انتباه إلى تصادمها، في جوار الباب كمقدمة لترحيلها والخلاص منها على الأرجح. أمسك بها واحدة واحدة. يرفعها بيديه إلى مستوى عينيه ثم يختار لها مكاناً يسندها فيه إلى جدران المحترف. كان يعرف تفاصيلها. صفّها على شكل قوس، رفع إحداها فوق السيبة، لمس ألوانها بأصابعه، أكمل المشهد وابتعد. أطفأ النور من جديد وعاد للتمدّد على الكنبة وهو يتنشّق رائحة ألوانها القوية. لم يغمض له جفن قبل طلوع الضوء الذي تسرّب باكراً من فتحة الزجاج الواسعة. خرجت لوحات جَنان تدريجاً من عتمة الليل فبدأت تتداخل ملامحها وألوانها لتظهر أمام عينَي نظام المنهك من يوم طويل أقرب إلى ساحة البرج وألوان الشوارع المحيطة بها كما رآها في رحلة اليوم مع رفّول.

قبل طلوع الفجر غفا. تقلّب على الكنبة، كاد يقع أرضاً. رأى الأحمر القاني يفيض من شقوق جدران البيوت، من فتحات النوافذ، إلى وسط الشوارع. يخرج من قساطل صرف مياه الأمطار الظاهرة على طول المباني ومن أوعية الزهور التي لا تتخيل جَنان شرفة بدونها. يتّسع مجرى الأحمر ليغمر الأرصفة ويُغرق السيارات كما السيل في أيام العواصف الماطرة. دفق لا ينضب يطفح في اللوحة فيبدأ بالتسرّب إلى أرض قاعة المحترف حيث نظام واقف كمن يواجه التيار الآتي. كان لون الدم يرتفع من أسفل اللوحة إلى أعلاها فيغمر البناية البعيدة المتعددة الطوابق قبل أن يُغرق شجرة الفيكوس الصغيرة أو عمود الإنارة العامة في مقدمة المشهد. في المحترف حيث كان نظام صامداً قدر الإمكان، بدأ مستوى الأحمر القاني يرتفع شيئاً فشيئاً كأنه يملأ صفحة ملساء

أيضاً، ببعدَين فقط، فغمر رجلَي نظام حتى الركبة. نظام الذي انتابه الخوف والرغبة في الفرار، بدأ يدخل من حيث يقف في وسط المحترف إلى الأشكال البشرية الغامضة الملامح التي وزعتها جَنان في الشوارع وعند مداخل الأبنية. يدخل الرسوم الفارغة كما يعثر الصغار في ألعابهم على الشخص الخشبي المناسب فيدخلونه في المكان المخصّص له كي يكتمل المشهد. يلج نظام الفراغات فيعطيها وجهاً، وجهه، وجسماً، معتقداً أنه يختبئ فيها هكذا من السيل المتدفق الذي لحق به أينما ذهب ليبلغ جذعه ويرتفع إلى كتفَيه وكاد أحمر الدم يصل إلى فمه يغرقه يخنقه فاستيقظ مذعوراً مقذوفاً إلى خارج المحترف.

ترك اللوحات واقفة وخرج. ردّ الباب وراءه ببطء وهو يتنفّس هواء الخارج، تأكد من أنه أغلق جيداً ونزل الدرج على مهل، على رؤوس أصابعه. لا يريد أن يوقظ أحداً، يريد فقط الابتعاد. وجهه مرهق من قلّة النوم وبائعة الزهور لم تفتح محلّها بعد. مشى صعوداً في شارع لبنان لا يلتفت، سلك شوارع الأشرفية الصغيرة ليصل بأقصر طريق يعرفه إلى منطقة المتحف الوطني، معبر المشاة بين البيروتَين. من رأى نظام العلمي يتقدّم في تلك الصبيحة وهو منتصب القامة جاحظ العينَين، على الرصيف الأيمن المحاذي للمحكمة العسكرية وللمركز المؤقت لمجلس النواب الذي يسلكه عموماً المنتقلون إلى القطاع الغربي من العاصمة بينما العابرون إلى الجهة الشرقية يفضّلون الرصيف لجهة قصر الصنوبر، مركز إقامة السفير الفرنسي وميدان سباق الخيل، لم يكن بحاجة إلى التعمّق في علم الفراسة كي يدرك أن هذا الشاب الأشقر الشعر الأزرق العينَين الجميل المحيّا مصمّم على أمر خطير.



الفصل الرابع

يراعة الليل



1

كان البوّاب جالساً على كرسيّه في بهو المدخل، ينتظر وصوله.

– زارتك شقيقتك...

خائفة عليه وستعود قرابة الظهر. لا تريده أن يبقى هنا، لن تطمئن قبل أن تراه، قبل أن تمسكه بيدها.

– جاء أحد أصحابك أيضاً.

صاحب الصوت الخفيض، حضر وترك له رسالة:

– لا بدّ من صقيع استوكهولم ولو طال الزمان. إلى اللقاء في يوم من الأيام يا أحلى نظام، أحسدك على صبرك وابتسامتك وحبّك للحياة.

والتوقيع:

– شمعون رخّو، شريد الأوطان ويتيم الأصدقاء.

طوى نظام الرسالة، أدخلها في المغلّف وردّها إلى البوّاب كأنها موجّهة إليه.

أخذها هذا الأخير بدون انتباه، من ارتباكه هو أيضاً.

في وجهه مزيد من الكلام يبحث عن طريقة لقوله.

توجّه نظام نحو المصعد فرافقه.

أقسم بالله وبالنبي محمّد إنه حاول ردّهم على أعقابهم.

لم يسأله نظام من هم.

– هم أنفسهم!

عادوا في شاحنة صغيرة، يوم أمس، في أول الليل. صوّب أحدهم الكلاشنيكوف إلى صدره.

– أوباش!

فتح نظام باب الشقة، دخل البواب وراءه متهيّباً.

ملأوا الشاحنة وذهبوا.

أخذوا الصور وتركوا مار جرجس.

يعتقد البوّاب أنهم لم يتجرّأوا على سرقته. المسلمون يؤمنون به ويسمّونه الخضر. خافوا أن يصيبهم أذى لو تحرّشوا به.

تأمل نظام مرة اخيرة وجه القديس الطفل، هذا المعتمر الخوذة الرومانية المثقوبة برصاصة الماكاروف فوجده عاجزاً عن الأذيّة.

دارا في الشقّة، البواب يحصي ما تركوه.

حذاء نسائي صيفي بكعب رفيع مرمي في وسط غرفة النوم. أخذوا السرير المزدوج، رفعوه فظهر الحذاء تحته، دفعته أولغا مرة تحت السرير ونسيته هناك.

وجد البوّاب السامو فار.

– تركوا هذا أيضاً!

– خذه...

قال نظام.

أضاف بعد قليل:

– خذ كل شيء تركوه.
– ماذا أفعل بالقديس جرجس؟
– لا تخف عليه، هو يعتني بنفسه...
سأله البواب عندما رآه يخرج من باب الشقّة متوجهاً إلى المصعد:
– وأنت، ماذا ستفعل؟

هو مشى، هام شاحباً.

مرّ أمام المسرح. وجد الباب مشرّعاً فدخل.

ملصقات مسرحية «بستان الكرز» ولقطات منها، ما تزال معلّقة في لوحة الإعلانات. عُرضت ثلاث ليال قبل انفجار يوم أحد الشعانين الشهير، قبل تفرّق الممثلين على أحيائهم.

سمع أصواتاً خلف الستائر، جلس في العتمة، المقعد وثير، من المخمل الأحمر السميك، ارتخى جسمه، هدأ، انفصل، منهكاً مفرغاً لكنه لا يغفو. يومه، يقظته لم تنته بعد.

بدأت الموسيقى خفيفة ناعمة، طلعت من العتمة وارتفعت شيئاً فشيئاً مع ظهور دائرة ضوء ثابتة على خشبة المسرح. فجأة، دخل الممثل الإيمائي المطلي الوجه بالأبيض الفاقع على رؤوس أصابعه مهرولاً وباسطاً ذراعَيه ليتوقف وسط دائرة الضوء المرسومة له.

ابتسم للمشاهدين، لم يحسّ بوجود نظام. يمثّل أمام صالة فارغة لكنه يتصرّف كأنه تحت أعين جمهور غفير. وقف على رجل واحدة، مدّ يدّه نحو الأعلى، دار على نفسه كراقصات الباليه ثم جلس. جلس في الهواء، على مقعد، مقعد خشبي ربما. صفّر من ضجره، حيّا المتنزهين العابرين في الحديقة العامة بانحناءة مبالغ بها من رأسه.

نظر إلى معصمه الأيسر، ينتظر أحداً ضرب له موعداً، يحرّك ركبته، يفقد صبره ثم ينفرج وجهه عن ابتسامة عريضة. وصلت حبيبته، يفسح لها مكاناً على المقعد في جواره. يلاطفها، يحدثها، يلمسها، يمرر يده وراء كتفَيها، يستقبل ذراعها الذي يلتف حول عنقه، يقبّلها، فماً بفم، طويلاً، بشهوة واضحة ترافقها الموسيقى. يحرّك يديه خلف ظهره، لا يأبه للمتنزهين. للعشاق حريتهم في الحدائق العامة. يطول العناق، التنهدّ وابتسامات السعادة وحركات اليدين. تتوقف الموسيقى فجأة فيسقط المتسكع في الحديقة عن مقعده فوق أرض المسرح الخشبية. يتطاير الغبار ويجد نفسه وحيداً يعانق نفسه، يلفّ ذراعَيه حول كتفَيه، يستجدي المشاهدين شفقة، مؤاساة. تدمع عينه، ينتهي دوره مع توقف الموسيقى التي سيليها التلاشي التدريجي لدائرة الضوء المحيطة به فيدخل المهرّج العتمة النهائية ويصفّق له نظام.

يتمرّن هنا كل يوم، يأتي تحت القصف أحياناً، لا يعرف متى يقدّم عرضه الإيمائي، لا يعرف إذا كان مسرح بيروت سيعيد فتح أبوابه أمام الجمهور على كل حال.

رافق نظام إلى الخارج، سأله أين يقيم.

– كنت أسكن هناك!

يشير بيده غرباً.

يشعر بالبرد، يبتسم للممثل ويمشي.

مشى يبحث عن الشمس، وجدها على مقربة، فوق رصيف عريض. وقف ونظر إلى أعلى، أغرق وجهه بالضوء، راح يثبّت نظره في

قرص الشمس لمحة حتى يضطر إلى إغماض جفنَيه فتبقى كرات الضوء تتلألأ طويلاً في عتمة عينَيه.

كرر التحدّي حتى صار عاجزاً عن الرؤية. انفجر النور في عينَيه، لكنه شعر بالدفء، رغب في التمدّد، في التكوّم هنا من تعبه. اكتفى بالجلوس على عتبة باب مطعم أغلق أبوابه وما تزال قائمة الطعام ملصقة على بابه. يطيل إغماضته، يُغرق وجهه بين يدَيه حتى يسترجع بعض السواد فيعاود النظر إلى السماء.

لم يسمع الصوت يناديه، ينهره من الجهة المقابلة.

كان حارس مدخل البناية الشاهقة غير المكتملة بدأ يتابعه من اللحظة التي وقف فيها هناك على الرصيف. يراقب الحارس كل ما يتحرك طوال جلوسه فوق البرميل الصدئ وسلاحه مسند بجانبه إلى الجدار. يتلهّى بالمارة، يتحرّش بفتاة تعبر وحدها، يعبس في وجه الحشريين، يعرف الداخلين إلى المبنى والخارجين منه. يضجر.

كان نظام المتفرّس زوراً في الشمس ينظر بالثبات نفسه، ومن دون أن يدري، إلى مقرّ حركة الأفواج الوطنية. احتلت الحركة المبنى، حوّلته مركزاً لقيادتها، زرعت علمها فوق الطابق الثلاثين، ما يزال الونش العملاق منصوباً في الهواء إلى جانبه. ألصقت على جدران الباطون شعاراتها وصور من سقطوا من مقاتليها. بطل معركة الأسواق، شهيد معركة الفنادق، شبّان بشوارب، نظراتهم قاسية، مصمّمون.

صفّر الحارس لزميل له كان يقف على مقربة، أشار نحو نظام المشغول بإحراق عينَيه في نور شمس نيسان. اجتاز المسلّح الشارع فتوقفت إحدى السيارات العابرة لتفسح له مجال المرور.

– ماذا تفعل هنا؟

سأل نظام بحدّة.

– أتشمّس.

أجاب نظام وهو ينظر باتجاه مصدر الصوت ولا يرى صاحبه بسبب انبهاره المستمر. حاول مرة جديدة التطلع نحو الشمس ولو لثانية واحدة ليؤكد ما قاله.

حصل ما هو متوقع، ظنّ المسلّح أنه يسخر منه.

– إلى ماذا تنظر؟

سأل بحدّة مضاعفة.

– إلى الشمس.

طفح الكيل مع مسلّح الأفواج الوطنية.

وجّه البندقية نحوه وطلب منه النهوض ومرافقته.

انصاع نظام. مشى أمامه بلا تردّد. ما تزال حبيبات الضوء تتلألأ في عينيه. مشى متفادياً بقع الظلّ التي ترسمها البنايات، محاولاً البقاء تحت نور الشمس.

عند باب المبنى، أشار المسلّح إلى رأس نظام ثم حرّك يده كالخشخاشة. حاول إفهام الحارس الجالس على البرميل أن الشاب الذي يمشي أمامه ليس سوياً.

– شو اسمك؟

سأله الحارس باستخفاف.

بدا كأن نظام لم يسمع.

كرر عليه السؤال بحديّة.

لا جواب.

سأله إلى ماذا كان ينظر، أجاب نظام:

- إلى الشمس.

كرر المسلّح إشارته السابقة بيده إلى الحارس يفهمه أنه ليس طبيعياً.

توعّده الحارس بأنهم سيشمّسونه على طريقتهم.

- من أين جئت؟

يجيب مباشرة:

- من المسرح، من هناك.

يحاول الحارس أن يفاجئه:

- أعطني هويتك.

لا يتحرك ولا يجيب.

يحاولان اكتشاف معادلته:

- أين تسكن؟

- لم أعد أسكن...

يضحكان. يكملان:

- كنت تتجسّس علينا؟

- عليكم؟

براءته تحيّرهما.

- من أين أنت؟

سكوت.

يتفاوضان حوله على مسمعه.

المسلّح الذي جاء به يريد إطلاقه، لا يجد فيه ما يستدعي القلق.

الحارس يخشى السذاجة المفتعلة، يريد التحقيق معه.

- خذه إلى أبو جعفر...

تذمّر المسلّح، أبو جعفر في الطابق العاشر.

كرر المسلّح اقتراح إطلاقه.

لا مصعد. فقط فجوة كبيرة وسط البناء بانتظار المصعد.

أمسك نظام من ذراعه، توجّه معه نحو الدرج، كل المهمات تقع عليه. ضاق ذرعاً.

التقيا بعناصر ميليشيا ومدنيين تسمع أصواتهم وهم ينزلون السلالم.

نظام يمشي في المقدمة صعوداً كأنه هو الراغب في الوصول. يوقفه المسلّح كل ثلاثة طوابق مرة كي يستعيد نفسه. يتسلّق نظام الدرجات مصمّماً، يدفع بجسمه إلى آخر إمكاناته.

أجلسه المسلح على كرسي إلى جانبه، انتظرا أبو جعفر نصف ساعة وقبالتهما باب كتب على خشبه مباشرة:

– رجاء عدم رمي الورق الصحّي في داخل المرحاض.

سأله من جديد، بلطف، عن اسمه. كأن نظام لا يسمع. قال له بأسف:

– سيجبرونك على الكلام.

أبو جعفر جالس وراء مكتب يشبه مكاتب الدوائر الحكومية. أمامه أوراق وبين يديه قلم. أصابعه غليظة جداً والقلم رفيع، يفلت منه أحياناً.

أخبره المسلّح بأنهم اشتبهوا به يدور حول المركز ويكثر من النظر يميناً وشمالاً. لم يرفع أبو جعفر رأسه عن أوراقه إلاّ عندما أخبره المسلّح بأن الشاب يرفض الإفصاح عن هويته. كأن كل ما قيل قبل هذا التفصيل كان من الأمور الاعتيادية التي لا تستحق أن يُطرق باب مكتبه من أجلها.

نظر إلى نظام، اكتشف التعب البادي على وجهه وعينَيه، سأله إذا

كان من أبناء الحيّ، فلم يحرّك ساكناً. سأله إذا كان أصم أو أبكم فقال المسلّح إن الشاب يحكي ويجيب عن أسئلة ويرفض الإجابة عن أسئلة أخرى. وللبرهان سأله عن اسمه فلم يجب، سأله ماذا كان يفعل مقابل المركز فأجاب نظام تلقائياً:

– كنت أنظر إلى الشمس.

وقف أبو جعفر من وراء مكتبه واقترب من نظام، سيتفرّغ قليلاً لهذا الغريب الأطوار.

سأله مرة إضافية عن اسمه كأنه يعطيه فرصة أخيرة.

لم يجب فصفعه أبو جعفر على وجهه.

صفعه بيده الغليظة بقوة دفعته نحو الجدار وكادت توقعه أرضاً لو لم يتمالك نفسه ويستعيد بصعوبة وقوفه على رجلَيه.

لم ينذره، لم يغضب، لم يرفع يده إلى أعلى تمهيداً للضربة. استلّ يده بسرعة وصفعه. محترف.

راهن أبو جعفر على وقع الصدمة.

بقي نظام صامتاً، حتى إنه لم يرفع يده إلى خدّه الأيسر ليتحسّس مكان الألم.

أبو جعفر يضرب الحديد حامياً. عاجل نظام بصفعة ثانية كان نظام أكثر استعداداً لها هذه المرة، زحزحته قليلاً لكن لم تدفعه إلى اليمين.

حاول المسلّح إقناعه من جديد بالحسنى فلم يستجب.

صرف أبو جعفر الرجل الذي رافق نظام إلى الطابق العاشر بعد أن استفهم منه مجدّداً عن سبب اشتباههم بالموقوف كأنه لم يصغ في المرة الأولى. نادى على اثنين من مساعديه. لجأ أولاً إلى تدابير تمهيدية:

– فتّشوه!

تردّد قليلاً. كان نظام يرتدي سروالاً وقميصاً. لا يمكنه أن يخفي سلاحاً.

كرر عليهما الأمر:

– أخرجوا كل ما في جيوبه.

ساعة الجيب، ساعة توما. متوقفة من جديد.

مالاً. رزمة سميكة باقية مما أعطاه إياه توما في آخر لقاء. أوراق جديدة انكمشت قليلاً. حدّق فيها أبو جعفر ومررها بين اصابعه كأنه يحاول تقدير قيمتها.

حقيبة جلدية صغيرة في جيب السروال الخلفي.

أشار أبو جعفر بإصبعه إلى مساعده أن يسلّمه إياها بسرعة.

أخرج منها أولاً صورة الفتاة.

– من هذه؟

– جَنان سالم.

– تشرّفنا. مين يعني؟

استفاض نظام:

– عيناها ملوّنتان كل عين بلون، واحدة زرقاء والأخرى كستنائية، إذا تأملت جيداً تلاحظ فرقاً حتى في هذه الصورة بالأسود والأبيض...

كان نظام يُفقد أبو جعفر صبره ويزيد من حشريته. عاد يفتش من جديد في الحقيبة الصغيرة.

سحب البطاقة البلاستيكية الصغيرة، رأى أرزة الجبهة اللبنانية، يعرفها جيداً. هزّ رأسه طويلاً وأرجع كرسيّه إلى الوراء. وضع رجلاً

فوق رجل، لا يحتاج إلى وقت طويل كي يصل إلى مبتغاه، أبو جعفر.
وقف واقترب من نظام وهو يلوّح له بالبطاقة أمام وجهه مهدداً.
– جوزف صافي، إيه؟
دسّ نظام بطاقة والد جَنان في حقيبة جيبه ونسيها. دخلت في فجوة سوداء. كان يشتاق لجَنان، يتأمّل أحياناً صورتها، نظرتها، فكرة كمالها وجمالها. رغبته الجامحة فيها تخرج من تفاصيل وجهها المتناسقة التامة. كان يرتوي من صورتها ويعيدها إلى حقيبته. لم ينتبه مرة واحدة للبطاقة.
– فتشوه من جديد.
الشاب الطري العود الواقف أمامهم مستسلماً، العنيد فقط بأجوبته، ربما مدمن مخدرات تائه من أبناء الحيّ الأثرياء، أو زبون علب الليل القريبة وصل الليل بالنهار، تحوّل بلمحة عين وبعد انكشاف ما ظنه أبو جعفر أنه هويته الحقيقية خطراً جديّاً لا يجوز الاستخفاف به.
مثل رجع الصدى، انهالت على نظام الأوامر الجسدية. كان عليه دفعة واحدة أن يرفع يديه عالياً، يوسّع بين رجليه، يدير وجهه نحو الجدار ويفكّ حزامه.
صار عدواً مستباحاً، لا حدود معه. صار لجلوسه على الرصيف ينظر إلى بناية الأفواج الوطنية الجرداء ولإصراره على السكوت عن هويته ولادّعائه السذاجة معنى متصل.

بناءً على إشارة حاسمة متعارف عليها من أبو جعفر عصب مساعدوه عيني نظام وربطا يديه خلف ظهره واقتاداه إلى غرفة أخرى. قبل أن يحددوا هويته، كانوا محتارين في تصرفهم معه، أما الآن فصاروا قادرين

على معاملته كما عاملوا كل العناصر المعاديين الذين وقعوا بين أيديهم.

صعدوا به طابقَين، دفعوه دفعاً وهو يتعثر على الدرجات غير المبلّطة، وقع مرتين، لا يرى أين يضع رجله. تعب، يرخي جسمه موفّراً ما بقي له من قوة لمواجهة أخرى آتية.

لن يرى أبو النار بأم العين. سيكرّرون اسمه عليه وهو معصوب العينين، يحاولون إخافته باسمه.

– كان يجمع معلومات عن المركز، معه بطاقة انتساب إلى الجبهة اللبنانية...

كان هذا تقرير العنصر الذي أدخل نظام إلى الغرفة الجديدة. سلّم البطاقة التي وجدوها معه إلى أبو النار ورمى نظام كمن يفلت كيس قمامة من طرف أصابعه متحاشياً النظر أين سيستقرّ.

كانت نبرة صوت أبو النار أقل ضراوة بكثير من لقبه.

أوقفوه على رجليه،

منعوه من الجلوس،

كان يلهث بلا توقف.

توجّه إليه أبو النار باسم جوزف فلم يصحح له.

توعده بأنه سيلقن الذين أرسلوه درساً لن ينسوه.

هدّده بأن يرميه من هنا إذا رفض الكلام، من فوق، من الطابق الثلاثين.

رموا غيره قبله.

ضربه أحدهم بعقب البندقية على كتفه من دون أن يسأله شيئاً، لم يتوقع الضربة فوقع أرضاً.

أوقفوه مجدداً، شدّوا عصابة عينيه جيداً.

الدم يسيل من جبهته، ابيضّ لونه.

أمطروه:

اسمه الحقيقي؟

سنّه؟

مسقط رأسه؟

عنوانه؟

اسماء المسؤولين الحزبيين عنه؟

نوع السلاح الذي يقتنيه؟

اسم والده؟

كل سؤال بضربة.

كل سؤال بشتيمة.

كان سهلاً ممتنعاً.

تعباً بحيث لا يقدر على الكلام.

قال فقط، همساً، بحيث أوقفوا صراخهم كي يسمعوه أن لديه والدَين فسخروا منه ثم قال إن لديه والدتَين فضربوه.

ضربوه من عجزهم، لم يخرجوا منه كلمة لها معنى.

فضربه أبو النار.

لكمه بالمسدس على رأسه.

تهاوى، لوّح بيديه محاولاً الإمساك بما يتهدّى به، ابتعدوا من حواليه، لم يسندوه.

وقع و لم يصرخ.

خبط أرضاً.

بلا حراك.

2

عادت ميسلون ومصطفى إلى حيّ المنارة، أشار عليهما بوّاب البناية نزولاً في اتجاه المسرح، دلّهما الممثل الصامت إلى حيث جلس نظام على الرصيف. اجتازا الشارع إلى بناية الأفواج الوطنية، تبادل الحارس كلاماً بالانترفون مع الطوابق العليا ثم أشار على زميله أن يرافقهما. رحلة جديدة صامتة ومضنية إلى الطابق العاشر.

– أبحث عن أخي، يدعى نظام العلمي.

– ليس لدينا أحد بهذا الاسم.

بعد إصرار ووصف، جاؤوها بالبطاقة.

– هذه صورته، هذا ليس اسمه...

– كيف؟

– اسمه نظام العلمي وأنا شقيقته ميسلون وهذا زوجي مصطفى حجازي وشقيقي يدعى بلال على اسم مؤذّن الرسول والثاني خالد...

غاب الرجل مكفهراً وعاد مكفهراً:

– شقيقك لم يساعدنا...

انفعلت، خشيت الأسوأ:

– أين هو؟ أريد رؤيته.

– لا يمكنك رؤيته الآن... نحن في حالة حرب، وجدنا معه بطاقة الجبهة اللبنانية، كان يتجسّس على المركز.

سخرت من التهمة، شعرت بالمصيبة.

همس أحد العناصر لمصطفى غير مصدّق:

– أخوها مسلم؟

حضر مسؤول يضع ربطة عنق ومعه مرافقان باللباس العسكري.

– العوض بسلامتكم...

صرخت ميسلون مستغيثة فأمسك بها مصطفى، لم يسمعا الرجل يدافع عن سلوك جماعته. انهارت، جلست، منذ الصباح وهي خائفة، ضربت رأسها، بكت، سألت عالياً كيف تخبر أمها، ماذا تقول لرخيمة وتوما، وعمتها نجيحة، تغزّلت بعينيه وشعره وتهذيبه وكرمه ثم طالبت برؤيته. حاولوا ثنيها فأصرّت.

جدران الغرفة من حجر الباطون بدون طلاء، نافذة بلا شباك، فقط ستارة من النايلون الأزرق لحجب النور عن الداخل. غطّوه بحرام شتويّ من الصوف العسكري الأخضر، مُصادر على الأرجح من إحدى ثكنات الجيش التي سقطت في أيدي الميليشيات. أفسحوا له مكاناً على الطاولة الكبيرة، أبعدوا إلى أحد جوانبها أوراقاً بيضاء مبعثرة، ممزقة من دفاتر، وأقلاماً لتسجيل اعترافات من يأتون بهم إلى الغرفة المرهوبة للتحقيق معهم، فناجين قهوة صغيرة مستديرة، بعضها انقلب لما أزيح جانباً فسال بعض محتواها لزجاً أسود فوق خشب الطاولة، أعقاب سجائر مطفأة في محارم ورقية، حذاء مرمي في الزاوية وفي داخله جوارب محشورة.

أمسك بها مصطفى محاولاً منعها من رؤيته، نزعت عنه الغطاء، تأملت وجهه، انفطر قلبها.

– ضربوك يا حبيبي!

انحنت فوقه، قبّلته في جبينه، فكّت زرّ قميصه، تلمست السلسلة الباقية في عنقه، أخرجتها وراحت تكرّر منتحبة:

– فتشوه، لماذا لم يجدوا آية الكرسي؟

اقترب منه مصطفى، أمسك بيده اليمنى، رفع سبابته، تردد قليلاً ثم وجهها نحو ما اعتقده اتجاه القبلة، أغمض عينيه وقال همساً بينه وبين نفسه:

أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

انتبهت إليه ميسلون فحاولت إيقافه:

– ماذا تفعل؟ صرت خبيراً بالدين؟

انهارت فوق نظام، تداعب وجهه وشعره ومصطفى يشدها إلى الخلف.

بكت حتى استسلمت، فأخرجها مصطفى من الغرفة.

حاول أن يكون عملياً:

– ندفنه هنا في بيروت، في جبّانة الباشورة، في مقبرة آل حجازي.

صرخت:

– لا...

لا تريد دفنه مع آل حجازي وما له وللباشورة. ولماذا بيروت، ماذا جنى من بيروت؟

– نأخذه إلى الشمال...

تردّدت قليلاً، صمّمت على شيء ما وأضافت متوجّهة إلى مصطفى:

– أنا آخذه، أنت لا دخل لك. غداً صباحاً.

نقلوه إلى أقرب مستشفى، أوصوا على تابوت وعند الصباح الباكر حضرت سيارة سوداء طويلة مخطوط عليها:

«جمعية إكرام الموتى التابعة لهيئة الإحسان الاسلامية علم وخبر خ/121».

لم يُعرف تماماً من استدعاها.

أمضت ميسلون الليل فوق أحد أسرّة الطوارئ بعد إلحاح الممرضات عليها بالتمدّد.

سائق سيارة دفن الموتى لا يذهب شمالاً، صفته مكتوبة بالخطّ العريض وسيضطر لاجتياز منطقة مسيحية طويلة يخشى أن يتعرّض فيها للأذى. قبل يومين وجدوا جثة مرمية من فوق أحد الجسور على الطريق الساحلي.

عرض عليه مصطفى حجازي مالاً فاعتذر. لا يخالف توصيات الجمعية.

المستشفى يملك سيارة واحدة للطوارئ ولا يمكنه الاستغناء عنها. لا يبقى إلاّ السيارات العادية، سيارة أجرة مزوّدة بحاملة للأمتعة يوافق سائقها على الرحلة، العبور إلى الجزء الشرقي من بيروت ومن هناك إلى طرابلس ومن ثم العودة من الطريق نفسها. وجدوا واحدة، طلب سائقها بدلاً مرتفعاً، تعويضاً عن المخاطر.

في الميناء بدا صباح يوم الاثنين هذا كئيباً غريباً في عين ابن المدينة، لفّه ما يشبه الضباب الذي لا اسم له. حتى المتقدّمون في السنّ لم يشهدوه قبل ذلك سوى مرة واحدة ربما، إبان نكبة فلسطين، تدفّق

إثره اللاجئون من قرى الجليل بالآلاف على المدينة. الضباب الذي ولج الشوارع مسرعاً كأنه يكتشفها للمرة الأولى، جاء في نتف بيضاء مبعثرة تائهة يستطلع الأمكنة قبل أن يحيط بالأبنية وبأشجار الفيكوس المزروعة على طول الأرصفة.

بالرغم من الطقس، لاحظ كاسترو حركة مبكرة وغير معهودة في اتجاه منزل آل العلمي.

يلقبونه كاسترو لأن شقيقه الأكبر هاجر إلى كوبا وبقي هناك، رضي بالقليل وتأقلم مع النظام الاشتراكي. صار شقيقه هنا وبسبب واجب التضامن العائلي ليس إلاّ، من أنصار الجزيرة الصغيرة الصامدة في وجه الأميركيين. تطوّع في أوقات فراغه ضمن جمعية الإسعاف الشعبي، يداوم في مكتبها أحياناً، يتلقى الاتصالات الهاتفية أو يقود إحدى سيارات الإسعاف الثلاث التي حصلت عليها الجمعية هبة من المملكة العربية السعودية. نقل الجرحى بشجاعة من مناطق القصف والاشتباكات.

يفتح المقهى بنفسه باكراً قبل وصول الشاب العامل لديه، يشرب الإكسبرسو بلا سكّر، يدخّن، يسعل ليخرج ما علق في صدره من تدخين البارحة، يقرأ الجريدة، ينادي ماسح الأحذية، يستقبل أول الزبائن ويتابع حركة الشارع خارجاً.

ذهبت ميسلون، لم يفلح في منعها لكنه ما زال يستنفر إذا ما لمحها تعود في زيارة لبيت أهلها، بين هدنة وهدنة في بيروت، إذا تسهلت الطرقات. جاءت مرة بمفردها. تشجّع كاسترو، ثابر على رصد خروجها من البيت وعودتها، لوّح لها بيده عبر الشارع، عرّجت عليه. وقفت في باب المقهى، تسارعت دقات قلبه، انتبهت كيف كانت عيناه

تلمعان وهو يدعوها للجلوس إلى فنجان قهوة. تربكه، يحبّ وجهها الحزين، سألته عن أحواله ولماذا لم يجد له زوجة بعد. تلعثم في الجواب، لم يعرف كيف يحادثها كيف يجعلها تطيل جلستها، اكتفى بالابتسام وواجبات صاحب المكان. هكذا دائماً وفي كل محاولاته ملاطفتها بقي معها في المقدّمات، ارتشفت فنجان القهوة بسرعة، انصرفت وبقي شيء من شغفه السابق بها معلقاً في الهواء بينهما.

في غياب ميسلون شبه الدائم، يهتم لآل العلمي. يتابعهم من دون قصد، هكذا لأنهم أهلها، يتآنس بهم بعد أن اعتاد على حركتهم اليومية، خروج التوأمين أخيراً إلى مكتب السفريات صباحاً وعودتهما ظهراً، وحوالى العاشرة، خروج أمهما صباح للنزهة أو للسيران. يرصد حتى خروج الفتاة التي استخدماها لمساعدة صباح.

أولاً حضرت نجيحة، شقيقة محمود العلمي، بالثياب السوداء في هذا اليوم الضبابي. كانت منفعلة، تكاد تلطم صدرها بيدها، لحقت بها بعد قليل عمّة ميسلون الثانية، زين الدار، ملهوفة أيضاً. يعرفهما لكنه لم يرَهما هنا من زمن. ظن في البداية أن الأمر يتعلّق بصباح التي كانت قد نقلت قبل أيام إلى المستشفى الإسلامي وما تزال فيه.

سقطت صباح هناك، وهي تنزل الدرجات الثلاث الأخيرة المؤدية إلى الشارع العام، قبل بلوغها الرصيف المزروع بأشجار الفيكوس الرتيبة. كان يصعب عليها هي المنتبهة دائماً لجلوسها والمتحكمة بمشيتها، الإقرار بأن سقوطها لم يكن مجرّد زلّة قدم كما يحصل للآخرين. أفلت جسمها منها فثأر أخيراً من تاريخ طويل من الطواعية معها. وهذا ربما أكثر ما حزّ في نفسها.

كان كاسترو أول الواصلين إليها، نقلوها إلى المستشفى حيث أصرّ الطبيب الشاب الذي عاينها على القول إن حوضها انكسر فوقعت وليس العكس.

«أوستيروبورز، مدام».

أوصاها بأن لا تتحرك، سينتظر أياماً قبل أن يقرر الحاجة إلى عملية جراحية.

شعرت ببداية الألم وهي ممددة فوق السرير وبلال يجالسها لا يغفل عنها. تحكي وتحكي، وفي لحظة نفد منها الكلام صرخت:

– أريد نظام!

ترافقت نبرة صوتها العالية مع نوبة ألم حادة.

غيّرت جلستها، تطلب كوباً من الماء وتطالب بأن يُحضر أحد إليها ابنها البكر أينما كان. سقطت فاستفاقت على نظام. تحكي لتتلهّى عن الألم، راجعت حياتها كاملة أمام بلال، ما لها وما عليها. محمود الذي لم يترك لها مجالاً للتنفّس، فكرة الصيفية في حَورا خطط لها محمود كي يبعدهم عنه لثلاثة أشهر يكون فيها بلا رقيب. لا تقول إنها تريد أن ترى نظام قبل أن تموت بل تدّعي أن لديها شيئاً هاماً جداً تخبره إياه.

في صبيحة يوم الاثنين هذا الذي هجرته طيور المرفأ هرباً من الغيوم الصغيرة التي تدفع بها الريح في جميع الاتجاهات، كان ابنها بلال محتاراً كيف يذهب إلى المستشفى الإسلامي، كما يفعل كل صباح منذ أيام ويخبرها. الخادمة الصغيرة كانت أسرع منه. وصلت إلى المستشفى سيراً على الأقدام بعد أن فوجئت بزوّار البيت الصباحيين وتلك الوجوه الحزينة. لم تدر ماذا تفعل فتركتهم وهرعت إلى معلمتها

تخبرها بأن شقيقتَي زوجها وصلتا إلى البيت لابستَين الأسود وكذلك بعض الجيران وأن خالد وبلال لم يذهبا إلى مكتب السفريات.

جلست صباح:

– مات نظام!؟

صرخت في وجه الخادمة الصغيرة التي لا تعرف عن نظام سوى ما تقوله صباح فيه من وقت لآخر. لم تعرف كيف تجيبها، كيف تنكر، لكن صباح كانت متأكدة، يطاردها نظام منذ أيام، منذ وقعت.

التهب قلبها، تريد الخروج. تزيح جسمها نحو حافة السرير، الألم والهلع يحفران وجهها، تنجح بصعوبة في الوقوف على رجليها الحافيتين. تحاول التقاط أحد الفستانين المكويَّين المرميين على الكرسي بجانب سريرها تحسّباً لأي طارئ أو خروج لها مفاجئ من المستشفى. تستند إلى الخادمة، تحاول السير، لا تريد البقاء في المستشفى، تمشي خطوة بعد خطوة تساعدها الخادمة التي لم تدرك كيف تسبّبت بذلك كله. الألم لا يطاق، تطلع روح صباح كلما داست بقدمها على الأرض، تقاوم، يصعد الوجع إلى قلبها فتسقط بطولها مغشياً عليها على أرض الغرفة. تصرخ الخادمة، تسرع الممرضات، يحاولن انعاشها وإعادتها إلى السرير والدم يسيل بغزارة من وجهها. انكسر أنفها وانكسرت أسنانها العليا... ردّوها إلى السرير، تجمعوا حولها، ركبوا المصل في يدها، أعطوها مسكّناً ومنوّماً قبل أن يجروا عملية تقطيب في وجهها وهي ترتخي وتستيقظ، تصرخ من الألم ومن موت نظام، تتذكّر تلك الليلة الحارة، أول يوم لهم في حَورا. تقول بين نوبتَي ألم للخادمة التي راحت تبكي وهي لا تعرف تماماً ماذا يحدث:

– كأن نظام جالس أمامي الآن...

تصفّر أكثر مما تتكلم، تتوجّع من فمها وتشتكي من نفسها أنه كان عليها أن تنتبه من سؤاله لها:

– لم أعرف كيف أجيبه لكن كان عليّ أن أحذر...

ترفع ذراعها الحرّة من أنبوب المصل إلى السماء، تهذي، تسأل:

– أين هو؟ قال إنه يمشي في شارع بور سعيد والناس يضحكون عليه وأنا أمه لا أساعده...

تبكي بلا صوت. تغالب الدواء الذي حقنته الممرضات في المصل حتى تمكن منها النوم. استلقت وفمها مفتوح، تحلم بأنها جالسة في السينما في حمص والى جانبها محمود والأولاد ومعهم نظام يشاهدون فيلم «دماء ورمال» وفجأة ترى نظام مرتدياً ثياب مصارع الثيران المزركشة بالأزرار اللمّاعة والقبعة السوداء. تراه في دور تايرون باور، يقف قبالة الثور الهائج ممسكاً سيفه بيده وبدل أن ينظر إلى الخطر الآتي نحوه يلقي عليها هي النظرة نفسها. يمسك بقبعته ويرميها إلى الخلف وهو يبتسم متباهياً فتطير القبعة وسط التصفيق وتستقر بين يدي صباح التي تصرخ من أعماق قلبها ولا يُسمع صوتها لأن الثور ذرّ قرنَيه في الرمل وانطلق نحو المصارع.

تستيقظ مرة أخيرة قبل أن تضاعف الممرضة جرعة الدواء المنوّم فتذهب صباح في سبات عميق.

قرابة العاشرة حضر الشيخ إبراهيم حمزة، استخرج جسمه الكبير من المقعد الأمامي للسيارة، انتصب لاهثاً على رجليه، وصل إلى شقة آل العلمي شبه قتيل. تأكد كاسترو من أن للموت شأناً في ما يحدث فخرج من المقهى واجتاز الشارع للالتحاق بمن يقصدون بيت العلمي.

نجيحة وزين الدار في غرفة الجلوس ومعهما ثلاث نساء من سكان البناية جئن مؤاساةً وحشرية. يعرفن بعض فصول قصة نظام، يتأملن منظر عمّتَيه اللتين منذ وصلهما الخبر، تحوّل حزنهما غضباً. ملامة قديمة مكتومة تبرّئ شقيقهما محمود وترمي التبعة على كل من حوله. زين الدار تهزّ برأسها، تتكلم في سرّها، توزّع المسؤوليات. نجيحة التي لا تتوقف عن البكاء تجلس نصف جلسة، جسمها مستقيم وكأنها متأهبة لمغادرة بيت شقيقها اعتراضاً على أمر ما قد لا يعجبها. قال لها بلال إنه لن يخبر أمّه الآن فهي في سرير المستشفى عاجزة عن الحركة. لم توافقه، اكتفت برفع كتفَيها. لو سألها رأيها لطلبت منه أن يخبرها. لا يجوز أن تبقى أمّ جاهلة موت ابنها. تهمس لزين الدار بأنها تريد لصباح أن تبكي دماً على ما فعلته، عرفتا أنها كسرت وركها و لم تزوراها في المستشفى، انكسر شيء بينهن من زمان.

رجال لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة يحيطون بالشقيقين في الصالون حيث لحق كاسترو بالشيخ إبراهيم حمزة. شدّ على أيديهما وهو يظن أنه يعزّيهما بوالدتهما. جلس إلى جانب رجل أبدى استغرابه همساً من هذا الضباب الغريب الذي اضطرّ بسببه سائقو السيارات العابرة نحو الميناء إلى إضاءة المصابيح.

كان خالد مرتبكاً، صامتاً يسند رأسه بيده، لحظة نادرة بدا فيها غير واثق من مشاعره ومتردداً، يراجع في ذهنه ما عليه القيام به ولا يهتدي إلى سلوك منذ رنّ الهاتف في الخامسة صباحاً فنهض بسرعة من الفراش ليسمع صهره مصطفى من بيروت يقول له بلا مقدمات:

– عوّض الله بسلامتكم!

موت نظام كان آخر احتمال يتوقّعه.

قال مصطفى فقط إنه مات فجأة. حادث غير متوقّع.

ارتدى خالد ثيابه على عجل، أيقظ بلال وأخبره. طالب بلال بالتفاصيل، أطرق حزناً، انتظر أن يبادر أخوه خالد بما يجب فعله لكن خالد عجز عن التصرّف. اتصل بعمّتيه وترك الأمور تجري على طبيعتها، فليتصرف كل بحسب ما يراه مناسباً، أرسل فقط في طلب الشيخ إبراهيم حمزة الذي يكبره سناً وخبرة ويسأله ويعمل برأيه في شؤون الدين والدنيا من وقت إلى آخر، كان قد تداول معه طويلاً في شأن نظام.

بدأ الشيخ إبراهيم الكلام بصوت عال، يحاول السيطرة على الوضع الذي يعرفه صعباً. سأل عن الجثمان فأبلغه بلال أن صهرهم وشقيقتهم ميسلون يهتمان بنقله من بيروت وأنهما على الأرجح لن يتأخرا لأنهما انطلقا باكراً.

انتبه كاسترو، سأل جاره:

– من مات؟

– شقيقهم الأكبر...

حاول أن يضيف شيئاً لكنه لم يجد الكلام المناسب.

قال الشيخ إبراهيم إن الوقت تأخر على طبع الورقة من دون أن يوضح لماذا تأخر الوقت.

انتقل إلى العموميات، الأحداث وسقوط الضحايا الأبرياء. لا يُحسن سوى الاحتماء بالآيات القرآنية والكلام المأثور فينسج منه موعظة فصيحة يهزّ لها الحاضرون رؤوسهم إعجاباً. ينهض بصعوبة من جديد ليختلي بخالد وبلال في إحدى الغرف الداخلية. سألهما

عما يريدانه أن يفعل فقال له بلال إنه شيخ العارفين. تنهّد الشيخ إبراهيم وقال إنه لم يواجه في حياته حتى الآن وضعاً مشابهاً. تذكّر كيف أن الشيخ محمد المصري رفض الصلاة في الجامع الكبير على سيدة فرنسية متزوجة بطبيب من أبناء البلد أمام السلطات الفرنسية، توفيت في حادث سير ويعرف الشيخ محمد أنها لم تشهر إسلامها.

لم يلزم نفسه بشيء:

– سنرى، نصلّي على الحاضر...

في بيروت، دفع مصطفى من أموال نظام فاتورة المستشفى وبقشيشاً للمسعفين. ثم شرعوا في حمل التابوت وكانت تنقص السائق المتقدّم في السن القدرة الجسدية ومصطفى الخبرة في تحزيم التوابيت على سطوح سيارات الأجرة الأميركية. استعانوا بعدد كبير من الحبال وبممرض تطوّع للربط والشدّ والإكثار من الكلام، هو نفسه الذي كان تطوّع أمس لغسل الجثة بالماء الساخن وتكفينها من دون أن يطلب إذناً من أحد لأنه وجده مطهّراً وسمع بكاء شقيقته تندب حظّه كيف قتلوه لأنهم ظنّوه مسيحياً. جلست ميسلون في سيارة البونتياك القديمة البيضاء الطويلة إلى جانب السائق الذي كان يرمقها بنظرات غريبة بعد أن عرف أنها شقيقة المتوفّى واستنجد بالله وسبّحه بكل الأسماء الحسنى التي يحفظها قبل أن يدير سيارته وسط فرقعة محركها القديم العهد. حاول مصطفى الصعود إلى السيارة ومرافقتها، تدفعه نخوته ورجولته، فرفضت مجدّداً. نظرت إلى زوجها طويلاً، هي جالسة في السيارة التي انطلقت ببطء للتأكد من متانة الحزمة، وهو واقف أمام باب الطوارئ لا يدري ماذا يفعل، عيناها الحمراوان من الدمع في

عينيه من دون أن تودّعه لا بكلمة ولا بحركة يد، وهو يمشي مذهولاً وراء السيارة رافعاً يده في اتجاه زوجته التي تركها هكذا تذهب وحدها في مهمة أقل ما يقال فيها إنها للرجال.

كانت الشوارع خالية لكن السائق اضطر إلى التوقف جانباً بعد وقت قصير على انطلاقه وذلك عند آخر حاجز وطني قبل العبور إلى الجهة المقابلة. دخل المسلّح المتباهي بقبعة رعاة البقر الأميركيين مع ميسلون في حوار سريع:

– شو معكم؟

كما ترى.

– من هو؟

– خيي...

– لم أسألك عن السائق.

– نعم فهمت، خيي.

سكوت ملتبس، نظر المسلّح إلى فستانها الملوّن الذي لم يخطر في بالها تغييره وبعده سؤال أخير:

– لوين؟

– عالشمال...

فتح بعده المسلّح باب السيارة الخلفي وتسلّق كي يصل إلى مستوى التابوت. لم يفتحه لكنه راح يضرب عليه بقوة يده كي يحاول التعرف على طبيعة محتواه بالاستماع إلى صدى الضربة التي يسدّدها على الخشب، مرة ومرتين للتأكد. طلب الهويات وأوراق السيارة، سأل عن أوراق المستشفى أو شهادة وفاة أو ما شابه، قرأ كل شيء، تفحّص كل شيء وأطلقهما من دون اقتناع.

توقفا هذه المرة بعد دقائق معدودة عند أول حاجز مسيحي في الجهة المقابلة. أصرّ عناصر التفتيش على فتح التابوت ليتأكدوا أن ليس فيه أسلحة أو متفجرات، متذرّعين بأنه تم في الأسبوع الماضي تهريب أسلحة في أحد التوابيت، واحد مثل هذا، أسلحة وربما أيضاً مخدرات، إلى الفدائيين الفلسطينيين في مخيم تلّ الزعتر، وقد نجحت عملية التهريب، وهم ليسوا مستعدين لأن يُخدعوا مرة ثانية. فكّوا الحبال، تسلق أحدهم إلى سطح السيارة لتفحّص ما في داخله لكنه ما إن فتح الغطاء قليلاً حتى أشاح بنظره وردّه ببطء، أعادوا تحزيمه كما كان عليه داعين ميسلون أن تتفهّم تصرفهم.

سلّم السائق نفسه لخالقها أكثر من عشر مرات وقرأ الفاتحة همساً عند كل حاجز توقفوا عنده وعند سماعه صفارة إنذار لكل سيارة اسعاف تمرّ مسرعة أو التقائه بسيارة عسكرية للميليشيات المسلحة تقوم بأعمال الدورية. بعد أن توقف بحمولته إلى جانب الطريق في بقعة مقفرة لأنه لم يعد قادراً على حصر نفسه بسبب تضخم البروستات الذي يشكو منه منذ وقت طويل، اشتكى من الجوع لأنه لم يبلّ ريقه منذ الصباح وعبّر عن خشيته التعريج على أحد محال السندويش في هذه المناطق. يفضل الاستمرار في القيادة، فأخرج سندويشتين وتفاحة كان احتاط بها لطول الرحلة.

مرّوا على حاجز في منتصف الطريق بين بيروت وطرابلس سهّل عبورهم ورسم الواقفون عليه إشارة الصليب على صدورهم احتراماً وهم يلقون على سيارة البونتياك نظرات تعاطف. تؤلف وحدها، لا خلفها ولا أمامها سيارة أخرى، موكباً جنائزياً غريباً قد يحسَب الناظر إليه أن التابوت المحزّم فوق السيارة فارغ ينقله صانعه إلى من أوصى

عليه، إذ يصعب الاعتقاد بأن أهل الفقيد وحدهم معه لا يؤانسهم صديق ولا يؤاسيهم جار. بكت أيضاً وأيضاً وصار التعب بادياً عليها والبونتياك تسير الهوينا حتى وصلوا أخيراً إلى مفترق الأرز المؤدي إلى البلدات الجبلية فطلبت ميسلون من السائق التوقّف قليلاً إلى اليمين. ظن أنها منزعجة مصابة بدوار شديد بسبب انفعالها بينما هي في الواقع محتارة أي طريق تسلك بحمولتها فانتهى بها القرار بالاستسلام للطريق البحري المستقيم المؤدي إلى طرابلس.

وصلت ميسلون، وصلت جثة نظام.

أطلّ خالد من النافذة فرأى التابوت محزماً فوق سيارة البونتياك المتوقفة أمام مدخل البناية وسائقها مترجّل منها ومتأهّب. دعا صديقه الشيخ إبراهيم إلى النظر معه من النافذة فوعد بأنه سيتّصل بالمعنيين بدفن الموتى لإجراء اللازم وأنه لا يجوز تركه هكذا في الشارع.

خرج خالد وبلال إلى شقيقتهما الكبرى، عانقتهما عند الباب حيث انتظرا وصولها والتحقت بجناح النساء. سألت عن أمّها، أخبروها أنها أصيبت بكسر، قالت لا تخبروها عن نظام أنا أخبرها.

– البنت أخبرتها...

لا تسمع التتمة، تعانق عمّتها زين الدار التي أشفقت عليها كيف جاءت به وحدها من بيروت إلى هنا. تركت ميسلون عمّتها نجيحة للأخير، وضعت رأسها على كتفها ثم فتحت يدها التي كانت تمسك بالسلسلة الذهبية من لحظة نزعها من عنق شقيقها، أعطتها لعمتها وهي تقول:

– هذه من نظام!

تفحصتها نجيحة، عرفتها:

– آية الكرسي...

وأجهشت بالبكاء فأضافت ميسلون:

– خذيها يا عمتي، لم تفده في شيء...

كسر الشيخ إبراهيم حمزة الإرباك الذي احدثته ميسلون معترضاً من جهة الرجال حيث وصله الصوت، زاجراً المرأة بسلطة رجل الدين العارف، قائلاً بسرعة كمن يلقي درساً حفظه عن غيب، «كل نفس ذائقة الموت، وهذه هي مشيئة الله عزّ وجلّ ولا يجوز التشكيك بالعناية الإلهية». أضاف لكن بلهجة مختلفة لأن ما سيقوله ليس سوى اجتهاد، أن الذهب غير مستحب وضعه في عنق الرجل ولا في معصمه أو أصابع يديه وهذه بدع ليست من الإسلام. وأضاف أنه لن يتواجه مع حرمة. وما منع نفسه عن قوله كيلا يجرح صديقه خالد أو يزيد من المصاعب أمامه أن النصراني لا يمكنه طلب الحماية بواسطة آيات الذكر الحكيم. الأرجح أن الشيخ إبراهيم حمزة افتعل هذا الشجار، وجد الفرصة مناسبة كي ينأى بنفسه عن الصلاة على من كرّر عليه شقيقه خالد الجزم بأنه نصراني. ساعدته ميسلون في الهروب:

– لم أطلب رأيك ولا يهمّني، هذا أخي ولا دخل لأحد فيه...

جاء صوتها مولولاً كالصفعة من حيث هي جالسة بفستانها البنفسجيّ حاسرة الرأس بين عمّتيها اللتين كان لديهما متسع من الوقت لارتداء الأسود ووضع منديل أبيض على رأسيهما. لا ترى الشيخ إبراهيم وهو لا يراها، بين القاعتَين نصف جدار وباب واسع جرّار مفتوح. نهض الشيخ إبراهيم بالصعوبة نفسها وتوجّه نحو

الباب ليغادر وهو متجهم. انفعل كاسترو تأييداً لميسلون وبدأ كلاماً يتوجّه به إلى الشيخ إبراهيم، يحاول الدفاع عنها وربما ايضاً إسماعها صوته لكن خالداً قاطعه بحزم احتراماً لصديقه الذي واكبه إلى الخارج معتذراً. فضّل كاسترو التراجع لكن ميسلون سمعت الصوت ونهضت من مكانها لتتأكد من أنها عرفت صاحبه.

انسحب الشيخ إبراهيم تاركاً خالد وبلال يتدبران أمرهما بينما كان سائق البونتياك ينتظر الأوامر وهو يردّ على أسئلة الفضوليين المتكاثرين عن هوية الميت وسبب موته في الثالثة والعشرين من العمر كما حسبها أحد الجيران الذي تذكّر كم كان محمود العلمي سعيداً في يوم ولادته.

لم يعهدوا ميتاً محزمّاً على سطح سيارة فراحوا يقترحون المساعدة في إنزاله وحمله إلى البيت أو إلى المسجد. يستمع السائق إلى نصائحهم وهو يفكر في ما ستكون عليه طريق العودة وحيداً إلى بيروت.

اقتربت صلاة الظهر فأطرق خالد للمرة الأخيرة، تهامس مع بلال وقال:

– نصلّي عليه هنا، في جامع البحر...

– من يصلّي عليه؟

سأل بلال.

– أنا...

قال خالد.

تذكّر بلال جدالهم حول الورثة، نظر خالد إلى ساعة يده:

– اقتربت صلاة الظهر، لن نتأخر، إكرام الميت دفنه...

وأضاف:

– كيف نتركه فوق هذه السيارة؟

ثم سأل ميسلون عالياً إذا كانوا كفّنوه، فجاء جوابها على وتيرة آخر كلام لها، حاداً بلهجة سجالها مع الشيخ إبراهيم:

– هم قتلوه ونحن غسّلناه وكفّناه...

وقف خالد ومعه بلال فلحق بهما كاسترو والآخرون، بقيت النساء جالسات.

لم يقدّر السائق البيروتي أن نصف دزينة الرجال الذين خرجوا من البناية هم كامل موكب المشيّعين لو لم يتوقفوا إلى جانب السيارة ليطلب منه بلال أن يقودها أمامهم على مهل. انكشفت ضآلة الموكب عند سلوكه الرصيف العريض ولو انضمّ إليه على عجل أحد المارة من القاصدين سوق السمك وشابّان من روّاد مقهى كاسترو، بدافع الفضول. اختلط «الطالعون» خلف ابن محمود ياسر العلمي بالمتنزهين على الطريق البحرية، تشتتوا بينهم خصوصاً أن خالد كان يمشي مسرعاً وحده في المقدمة. يريد أن ينتهي من مشهد لا يريده لنفسه ولعائلته، فيما انقشع ضباب الصباح وعادت رفوف طيور النورس ترسم دوائر صغيرة في السماء القريبة. بحارة البواخر الراسية يتكئون على الدكّة ويتابعون حركة المدينة، مراكب الصيادين مبعثرة هنا وهناك في عرض البحر.

همست ميسلون شيئاً لابن البوّاب فأسرع خلف الرجال. كان كاسترو البدين المدخّن في المؤخرة.

– ميسلون تريد أن تتكلم معك...

- الآن؟
- نعم، الآن، طلبت مني أن لا أعود بدونك...

إنها المرة الأولى التي تطلب فيها ميسلون من كاسترو شيئاً. ما زال حبّه لها كامناً، ينتظر معه في المقهى الصغير، قبالة مدخل بناية آل العلمي.

رجع إليها بلا تردد.

كانت المسافة قصيرة وصولاً إلى الجامع. تعاون الموجودون جميعاً باستثناء خالد وبلال على إنزال التابوت من السيارة، حملوه من كل الجهات، وضعوه حيث سجّي محمود العلمي. اقترح أحدهم إخراج الجثة من التابوت، رفض خالد واكتفوا برفع الغطاء عنه ثم أداروا رأسه نحو القبلة كما اعتادوا فعله.

لم يشارك السائق في الصلاة عليه، لم ينتظر الأوامر من أحد بعد أن اختفت ميسلون. جمع الحبال ووضعها في صندوق سيارته، بسمل من جديد وانطلق في اتجاه بيروت على أمل أن يصل سالماً إلى بيته البعيد.

هرعت ميسلون إلى كاسترو عندما رأته يقف في الباب لاهثاً من تعب الدرج هو أيضاً.

أحسّ بها، ارتجف قلبه من جديد.

عزّاها، شكرته:

- هل ما زلت في هيئة الإسعاف الشعبي؟

كان متحمساً لمشاركتها في ما تطلبه.

- هل يمكنك أن تأتي بسيارة تقودها أنت؟

لم يسألها لماذا، سألها فقط أين تريدها.

- نأخذ نظام في نزهة أنت وأنا، وحدنا...

لم يعجبه كلامها ولا لهجتها، خاف عليها، فتح يديه:

- كما تريدين...

طلبت منه أن يسرع في تحميل التابوت بعد أن ينتهوا من الصلاة عليه.

- وإذا استطعت قبل أن يصلّوا عليه...

ازداد قلقه عليها، لا يعرفها جيداً على كل حال، منذ عرفها لم يتبادلا سوى كلام قليل، ربما هي دائماً هكذا.

استسلم لعاطفته وتضامنه معها، سألها أين سيدفنونه.

- يظنون أنه مسيحي...

- هل هو مسيحي؟

- لا أعرف ما هو، هو شقيقي... سأريحه منهم.

تردّد كاسترو، لم يفهم تماماً إلامَ تدعوه.

ر إذا كنت تحبني، أسرع، لأنهم سينتهون بسرعة من الصلاة، لا يعرفون كيف يتخلصون منه...

لجأت إلى السلاح الأخير.

- إذا كنت تحبّني...

تعرف أنه يحبها إلى حدّ أنه لا يرفض لها طلباً.

أمن هذه النظرات التي يرمقها بها من مقهاه أم من ارتباكه عند كلامه القليل معها؟

طالما اعتقد كاسترو أن تعلّقه بميسلون العلمي شأن يعيش فيه وحده بلا شريك، واحدة من حماساته القليلة واليائسة من اليوم الذي التقت

فيه بهذا البيروتي صاحب اللهجة القديمة بالرغم من تخرّجه من الجامعة وطلبها للزواج و لم يعترض أحد لأنه لم يكن هناك في بيت العلمي من يعترض ولا من يوافق.

– أسرع يا كاسترو...

حتى إنها ابتسمت له ابتسامة دلال.

لن يهرب منها.

نظر إلى ساعته.

– انتظريني بعد ربع ساعة خلف المقهى، في أول شارع بور سعيد...

وضعت يدها على يده وشدّت:

– سأسير في الشارع نزولاً على الرصيف اليمين.

انطلق بأسرع ما يمكنه، وضع برنامجه وهو ينزل الدرج برشاقة غير معهودة فيه. يوصي مساعده أن يقفل المقهى الساعة الثامنة مساءً ويذهب إلى بيته إذا تأخر في الرجوع إليه. يقصد مركز هيئة الإسعاف الشعبي إلى جانب مبنى البلدية، يقول للجالس وراء المكتب إنه بحاجة لنقل أحد أقاربه إلى المستشفى، له عليهم الكثير، متطوّع بلا مقابل حتى عندما تكون المعارك دائرة لا يتراجع، يأخذ مفتاح سيارة الإسعاف من جارور المكتب، يدير المحرّك ولا يطلق الإنذار، لا يريد لفت الانتباه، خمس دقائق ويصل إلى جانب جامع البحر، لا أثر لسيارة دفن الموتى ولا لأي سيارة إسعاف أخرى.

كان خالد وبلال يرتجلان في غياب الشيخ إبراهيم. أوقف كاسترو السيارة حيث يرى سيارات نقل الموتى تتوقف عادة، في أقرب نقطة

إلى حيث يسجّى الميت للصلاة عليه، وانتظر جالساً وراء المقود. بدا لمتتبع مشهد صلاة الغائب التي قادها خالد العلمي بنفسه ووراءه صفّ واحد أو نصف صفّ من المصلّين، أن هناك من ينظّم الدفن وقد أرسل سيارة الإسعاف هذه لنقل الميت لا سيما أن الجبانة حيث يُدفن آل العلمي أبعد بكثير من أن يصلوها سيراً على الأقدام.

3

ترجّل كاسترو من سيارة الإسعاف، كانت صلاة الدعاء تتلاحق كعبء ثقيل يريد المصلّون التخلّص منه. لو لم يكن كاسترو سمعها عشرات المرات لما فهم منها شيئاً. يهرولون بالطلب من الله أن يوسّع قبره ويملأه نوراً ويجعله روضة ويغسله بالماء والثلج والبرد وينقّيه من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس...

ولما وصلوا إلى الدعاء الأخير:

– أبدله أهلاً خيراً من أهله وداراً خيراً من داره.

فتح كاسترو الباب الخلفي لسيارة الاسعاف استعداداً لاستقبال الميت.

أغلق أحدهم التابوت، حملوه وأدخلوه في سيارة الإسعاف. حاول شاب من زبائن المقهى الصعود إلى جانبه، يعد نفسه بعبور الشوارع وإطلاق المنبّه أو الآيات القرآنية عبر مكبّر الصوت فأقفل كاسترو باب السيارة من الداخل وأشار على الشاب بأنه يريد القيادة وحيداً. انطلق من دون أن يعطي إشارة. سيفترضون أنه ينقله إلى الجبانة وقد يلحق به من يريد إلى هناك بسيارته الخاصة. سلك الاتجاه المفترض إلى المقبرة وهو يتابع في المرآة العاكسة تفرّق المصلين وتشوير خالد

وبلال في اتجاهه كي ينتظرهما. بعد أن غابا عن نظره في المرآة، استدار يساراً من خلف المسمكة ليدخل في شارع البلدية ومنه يصل إلى شارع بور سعيد صعوداً، هكذا يمكنه أن يرى ميسلون وجهاً لوجه.

ادّعت أنها بحاجة إلى دخول غرفة النوم، تستريح قليلاً وترتدي ثوباً أسود من خزانة أمها، لكنها اكتفت بدخول الحمام. نظرت إلى وجهها في المرآة، بحثت عن نظارة سوداء عثرت عليها في أحد الجوارير، انتقلت إلى المطبخ، وجدت الخادمة تحاول تلبية مطالب النساء فأوقفتها وأشارت عليها بأن تذهب فوراً إلى أمها في المستشفى وتقول لها إن نظام هو الذي أراد ذلك. لا تثق بالخادمة، تريدها أن تحفظ الرسالة غيباً، ردّدي ماذا ستقولين لها؟ تكرّر الخادمة:

- يا أمي، نظام هو الذي سعى إلى ذلك من البداية إلى النهاية، لا تحمّلي نفسك المسؤولية، ميسلون ستهتم به لأنها تعرف كل رغباته من صغره.

جعلتها تكرّرها مرتين، لم تتركها تكمل تحضير القهوة بل أطفأت الغاز وأصرّت عليها أن تخرج أمامها من الباب وأن تخبر أمها أيضاً بأنها ستعود إليها قريباً. اليوم أو غداً في أبعد تقدير.

شربت ميسلون ماءً بكثرة وانسلّت بدورها إلى الخارج. وضعت نظارتها الشمسية ومشت من دون أن تلتفت وراءها. رآها كاسترو من بعيد، على الرصيف المقابل مسرعة الخطى. استدار بالسيارة وتوقّف أمامها في محاذاة الرصيف، التفتت حواليها وصعدت للجلوس إلى جانبه. شكرته وأشارت عليه بأن يقود في اتجاه الخروج من المدينة نحو الجنوب:

– سأخبرك على الطريق...

أقلع و لم تخبره.

يطيعها ولو بدأ يساوره القلق مما هي مصمّمة عليه.

خرجا من المدينة، طلبت منه سلوك الطريق الجبلية.

كان يفترض به أن ينبهها إلى مخاطر هذه الطريق لكنه لم يشأ أن يكون أكثر حذراً منها، فقاد سيارة الإسعاف الشعبي من دون مزيد من الأسئلة.

لم يفز كاسترو بخلوة مع ميسلون إلاّ وشقيقها ممدّد في التابوت يرافقهما.

فتح المقهى بعدما كان نظام غادر بدون رجعة إلى أهله الجدد. سمع أجزاءً من قصته وربما رآه مرة واحدة، كان بصحبة فتاة جميلة، نظراتها غريبة وعيناها غريبتان، بديا مغرمَين أحدهما بالآخر غراماً شديداً، يقبّل يدها وتقبّل يده، شربا القهوة، تحادثا همساً وانصرفا.

تجرأ كاسترو على أسئلة مناسبة:

– كيف مات شقيقك؟

– لم يمت، قتلوه...

سألها لماذا جاءت به إلى الميناء والآن تنتقل به إلى مكان آخر.

أخبرته ما أخبرته بها أمها من أنه لم يطالب بشيء من ورثة أبيه، تخلّى لشقيقَيه عن كل شيء، احتفظ فقط بحق المجيء إلى هذا البيت زائراً وها هي أتت به في رحلة أخيرة. يحب الجلوس على شرفة بيتهم في الليل تماماً حيث توقف قلب والده بعد عودته بوقت قصير من حمص وبعد تبرئته نهائياً من كل تهم التهريب والمؤامرات الموجهة

إليه، تقول إن والدها محمود العلمي حصل له أيضاً ما تمنّاه. بأقلّ كلفة ممكنة. منذ بدأ طبيبه يرفع نظّارته فوق عينيه ليتفحّص رسوم تخطيط القلب ويمطّ شفتيه ثم يتطلّع من نافذة العيادة إلى البعيد.

تتخيّل ميسلون كيف أن نوبة ألم حاد مفاجئة ربما أيقظته من غفلته، لا بدّ عرف أنها الأخيرة لفرط ما تحيّنها وسأل من نجوا منها عن الموقع الذي تصيبه تحديداً. انتصب جالساً ويده على صدره، ربما نادى زوجته أو ولدَيه لكن صوته كان ضعيفاً لم ينجح في إيقاظهم، لم يكتشفوه إلاّ متأخرين، الساعة السابعة إلا ربعاً عندما استيقظوا للذهاب إلى العمل على بوق الباخرة المتأهبة للإبحار.

استرسلت في وصف موت والدها، تفرّج كربتها بالكلام، تعبت من الانفعال، تسند وجهها إلى يدها وتنظر إلى الخارج من خلف نظارتها السوداء، إلى القرية المتجمّعة بسطوحها القرميد على رأس تلّة وتبين منها قبّة كنيستها من بعيد.

كاسترو يقود على مهل، سرعة تلائم حمولته. يطيل مجاورته لها وهي تتأمل في الوادي السحيق وشلاله المنساب حتى معمل الكهرباء في الأسفل، حيث كان نظام يحبّ النظر خائفاً. يقترب برأسه الصغير من نافذة سيارة السيتروين الجديدة. في رحلاتهم الأولى كانا يجلسان وحدهما في المقعد الخلفي، كل إلى جهة، يصرّ هو في بداية الطريق على الجهة اليسرى، جهة وادي قاديشا. يشير عليها بالسكوت وينزل الزجاج على مهل، في غفلة عن والديه المنهمكَين بالتحضير لصيفيتهما الأولى. كانت أمه تتوقف بين وقت وآخر عن التفكير في البيوت وترتيبها وإحصاء من هنّ صديقاتها المصطافات مثلها، لتنظر هي أيضاً إلى الجبال وتشهق إعجاباً باقترابهم من السماء كما تقول.

محمود يمتدح قوة السيتروين في تسلّق الطرقات العالية غير نادم على شرائها جديدة. ينزل نظام الزجاج ولو إلى نصف مستواه، يخاف إنزاله أكثر، يرفع جسمه شيئاً فشيئاً كي يسترق النظر نزولاً، يسعى إلى تحدّي المنحدرات العميقة المكسوة بأشجار السنديان والشربين أو المستصلحة بجلول مرتّبة من الحجر الأبيض. سرعان ما كان يصاب بالدوار، بخوف وإثارة تجعله يتراجع ويرتمي في حضن ميسلون فتطوّقه بذراعيها وتضمّه خائفاً إلى صدرها. تهدهده ليرتاح خاطره، تهمس في أذنه، تطمئنه لكنه يرفض فتح عينيه، كأنه رأى ما لا تجب رؤيته أو كأنه يريد الاحتفاظ بمنظر الوادي المقدس الذي أذهله. لا يشقّ عينيه لمحة كي لا يمحوه مشهد آخر، حتى يتعب من إغماض عينيه وشدّ قسمات وجهه فيسند يديه إلى المقعد الجلدي ويزيح بجسمه تدريجاً ليقترب من مكانه بجانب النافذة كمن يقترب من منطقة الخطر المحدق. ينجذب إلى منظر الوادي، يرفع رأسه من جديد، ينظر، يخاف ويرتمي مجدداً بين ذراعيها...

غفت، شردت لدقائق، ارتخى جسمها بعد يوم مواجهة لم ينته بعد. لكنها تستفيق، لن تتخلى عن نظام في منتصف الطريق، تصحّح جلستها، تمسح عينيها، تمدّ يدها إلى الخلف لتلمس الخشب، تداعبه، تستدير، تجلس على ركبتيها وتحاول الوصول إلى التابوت لتقبيله، تحرص من صغره على رغباته التي تعرفها والتي حتى لو سئل لما كان عرف كيف يقولها.

تلامس كاسترو تقريباً في التفاتتها هذه. يشعل السيجارة تلو السيجارة، يفكر في ما يقوم به. ينزّه ميتاً. لا يعرف إذا كانت المرأة

الشابة الجالسة إلى جانبه كاملة العقل، يتوجّس مما سيحصل في الميناء، كيف سيتهمونهما بسرقة نظام. رأوه بوضوح يأخذه، سيلحقون به إلى المقبرة ولن يجدوا أحداً، يفكّر في كيفية مواجهتهم في اليوم التالي عندما سيحضر في الصباح لفتح باب المقهى.

فجأة صار المقود ثقيلاً بين يديه وسمع صوتاً غريباً فأيقن أن أحد إطارات السيارة قد ثُقب. توقف إلى اليمين وضرب المقود بيده محبطاً.

حاولت مساعدته في تغيير الإطار، وقفت إلى جانبه على الطريق، لا سيارت تمرّ في هذه الساعة من النهار، لا يجد العفريت بسهولة. إنها المرة الأولى التي يحدث معه هذا في سيارة الاسعاف، يلهث ليفكّ براغي الإطار المثقوب ويكاد يغمى عليه من التعب وهو يجهد لتركيب الإطار الاحتياطي. يضطر إلى الجلوس على حرف الساقية ليرتاح... لا يحب الجبال، لا يأتي إلى هذه القرى إلاّ مرغماً، إذا رافق أمّه لزيارة خالته التي كانت لا تفوّت صيفية إلاّ وتمضي منها أسبوعين في أوتيل بالاس، يمضي الوقت وهو ينظر إلى الساعة والى أمه وخالته كيف تتناوبان على نرجيلة واحدة تتبادلان أخبار أوجاعهما الجسدية المستجدة وتبديان إعجابهما بمنظر الأفق المديد.

لا يمرّ الوقت هنا، تنام حَورا في فصل الشتاء، ينزل بعض من أهلها إلى بيروت سعياً للعمل والمدارس، ويقال إن قسماً كبيراً من شبّانها حمل السلاح والتحق بصفوف الميليشيات للقتال في العاصمة. بقي منهم ما يكفي من غير المؤهلين لحرب الشوارع كي ينصبوا حاجزاً دائماً عند مدخل البلدة يتناوبون لحراسته ولا يعبر عليه أغراب عن المنطقة إلاّ ما ندر.

هيئة الإسعاف الشعبي...

قرأ الشاب القصير القامة الاسم بصوت عال. سأل كاسترو عن وجهته فأحاله كاسترو بالنظر إلى ميسلون، صاحبة السرّ.

– إلى حَورا...

أجابت ميسلون باقتضاب لم يرق المسلح.

لا يحدث معه الكثير طوال نوبته من الظهر إلى الثامنة ليلاً.

أشار إلى الخلف:

– من معكم؟ مريض؟

كأنه يمازحهما.

– ابن توما أبو شاهين...

أجابته ميسلون بالاقتضاب نفسه.

أطرق قليلاً، تذكّر وسأل:

– المسلم؟ أين هو؟ ما به؟

تنظر في عينيه ولا تجيبه.

زجاج السيارة الغامق يحجب الرؤية. اقترب الشاب فاكتشف التابوت:

– كنا نسمّيه نانو في المدرسة، المعلمة كانت تحبّه...

لا تأثّر ولا أسف كأن الموت حقّ كما يقولون في هذه الأنحاء، كأن عودة نظام محمّلاً إلى حَورا حدث متوقع في الأساس.

يدل إلى زميله على الطرف المقابل من الطريق يوقف السيارات الخارجة من البلدة:

– هذا من أقارب رخيمة...

ويضيف بصوت مرتفع:

– هذا ابن خالتك...

لم يفهم تماماً فكرر عليه أن الميت ابن أبو شاهين.

– كيف مات؟

لم يصل سؤاله إلى أحد لأن المسلّح كان قد أشار على كاسترو بالتقدّم.

عبرت سيارة الإسعاف شارع البلدة الرئيسي، الدكاكين القليلة تعرض كتل جبنة الماعز البيضاء القاسية التي بدأت صناعتها باكراً هذا العام في جاطات كبيرة على مرأى من المارة. رجال متقدّمون في السنّ يلعبون الورق في المقهى، الشيطان يجلس على يدهم. يتابعهم، يسخر من أخطائهم المتزايدة، يدعونه للنزال والمراهنة بالمال ما دام خبيراً في اللعب فيضحك.

لمح ميسلون.

ظهر وجهها الحزين أمامه فجأة في سيارة الإسعاف التي كانت تتقدّم ببطء، تضع يدها على خدها وتنظر إلى الخارج من زجاج النافذة.

عرفها بالرغم من النظارة السوداء.

بقي توما ورخيمة يرسلانه إلى بيت العلمي في الميناء حتى نشوب الأحداث وانقطاع أهل حَورا عن طرابلس. كانت ميسلون تفتح له الباب، ما إن تراه حتى تنادي ساخرة باتجاه الداخل، مقلّدة الباعة المتجوّلين:

– كرز وخوخ وبيض بلدي شغل رخيمة...

لا يعرف إن كانت تسعد أو تنقبض لرؤيته.

نهض عن كرسيّه. شعر اللاعبون المستغرقون في أوراقهم بأنه خرج بسرعة كمن تذكّر واجباً عليه القيام به لكنهم لم يوقفوا لعبتهم ليسألوه. صعد إلى سيارته، أدار المحرّك الذي لبّاه مصادفة من الضربة الأولى ولحق بسيارة الإسعاف. تأكد من حدسه عندما رآها بعد مسافة تنعطف نزولاً فلحق بها.

ربما ساءت حالة توما، ينقلونه إلى المستشفى.

شحّ نظره، يأكل الحلويات في السرّ عن رخيمة. يوصيه على المعمول بالجوز كلما نزل إلى بيروت.

يعرّج عليهما، يريدان في كل مرة أن يعود إليهما بأخبار نظام، يقنعانه بالبحث عنه ويعدانه بأي ثمن يطلبه في المقابل.

عندما يهمّ بالمغادرة يغمزه توما ويرفع سبابته في الهواء، يريد دزينة معمول واحدة.

يعود بالمعمول ولا يعثر على نظام.

لم تعجبه مرافقة ابنة العلمي لسيارة الإسعاف.

اقترب منها نزولاً، شكّل لموت نظام موكباَ.

توقفا أمام بيت أبو شاهين، توقف خلفهما، انتظرهما.

لا أحد في الخارج، لا أحد على الطريق.

لم ينزلا من السيارة، كاسترو يريد أن يعرف ماذا يحدث.

– أبلغتهم؟

– كلا...

هو أيضاً مات و لم يبلغها.

كان توما أبو شاهين يشخر جالساً، شخرة القيلولة الخفيفة. يكتفي

عند العصر بالشاي الذي يضع فيه القليل من السكر خلسة عن رخيمة. أحنى رأسه قليلاً إلى الأمام وهو يستمع إلى سورة الأحزاب من تجويد الشيخ عبد الباسط عبد الصمد من إذاعة القاهرة، شرب دواءه ونام على الكرسيّ.

انكفأ إلى داخل البيت، ترك الأعداء يربحون يوماً بعد يوم المعركة. شجرة تفّاح الجبل ضربها اليباس، لم يصنع فزّاعة للعصافير هذا العام وحبّات البرد، العقاب المتأخر في مطلع نيسان، قضت على زهر اللوز. حتى دودة الصندل عششت في الصنوبرتَين الكبيرتين عند الطرف الشرقي للبستان ولا من يطلق عليها النار.

يمضي ساعتَين فقط في الخارج، بعد الغداء، يشغّل الراديو ويجلس وعندما يبدأ نرجيلته، كما تسمّيها، تشدّه رخيمة قليلاً من كتفه، لا توقظه بل تدفعه إلى تغيير جلسته فيتوقف شخيره لكن في الغالب يتغيّر لحنه فقط.

تبتعد نحو النافذة المطلّة على الوادي والتي ما زال يدخل منها ضوء النهار الشاحب، تلبس مريولها فوق فستانها الأزرق السماوي، تضع نظّارتها، ترتجف يداها وهي تتحدّى نفسها في رفء الثياب أو في تنقية حبّ اللوبياء الحمراء وتوريق النعناع تحضيراً لأكلة الغد. ترتاح من وقت إلى آخر، تتنهد، تنظر إليه كيف أحنى رأسه على صدره فسال شيء من ريقه على ذقنه. اشتهر حبهما في ما مضى.

هي أيضاً كادت تغفو وجوارب توما في يدها. النوم معد في شبه العتمة والسكوت. سمعت هدير السيارات، خصوصاً محرّك عتيق، صوت سيارة المرسيدس العمومية. لا ينتظران أحداً، لا يزورهما أحد. نهضت عن كرسيّها، أيقظته قبل أن تنظر إلى الخارج. فتح عينيه مبغوتاً،

مسح بيده الريق السائل على ذقنه وسألها كعادته في كل مرة إذا كان يشخر فقالت:

– جاءنا زوّار، قم لنرى...

وقف على رجليه ببطء، كلما نهض يدوخ، يلزمه وقت ليستقرّ واقفاً.

خطا إلى الخارج قبل رخيمة.

مريض لكنه الرجل.

أشار عليها بيده من وراء ظهره أن تتأخر عنه، أن تنتظره في الداخل. لا لزوم لظهورهما معاً في الباب.

كل زيارة مواجهة، مع غريب أو مع قريب.

الضوء ما زال قوياً في الخارج.

أول ما رأى كاسترو يفتح الباب الخلفي لسيارة الإسعاف عن آخره. يستعد للتسليم.

ناداه، أفهمه أن المستوصف ليس هنا في الجوار بل في دير الراهبات في الجهة الأخرى من البلدة.

كاسترو لا يريد أن يسمع، أكمل ما كان يقوم به، فتح الدرفة الثانية من الباب عن آخرها. صار التابوت المرفوع فوق محمل الجرحى ظاهراً للعيان من الجهة الخلفية.

لم يره توما بل مشى إلى الجانب الأمامي من سيارة الإسعاف.

ميسلون لم تحرّك ساكناً أملاً بتأجيل النظر في عينَيهما.

لم ترَ أمها صباح بعد.

اقترب توما من نافذتها، أنزلت الزجاج، بدأ يكرّر لها ما قاله

لكاسترو من أنهم أخطأوا المكان وأن المستوصف بعيد من هنا...
صار وجهه في وجهها، نزعت نظارتها، عرفها فانعقد لسانه.

زادت حشرية رخيمة التي لم تسمع جواباً عن كلام توما إلى كاسترو. أطلّت قليلاً من باب البيت فلم تجد توما، نظرت إلى هندامها، خلعت عنها مريول البيت، خرجت إلى العتبة ووقفت.

كان الشيطان يتكئ على باب سيارته، مترصّداً ما سيحدث.

رأى رخيمة.

كاسترو يقف إلى جانب الباب المفتوح، يعتصم بوظيفة السائق المستجدة عليه.

أمسكت ميسلون بيدَي توما اللذين أسندهما على الباب.

عيناها حمراوان.

أدرك الشيطان أن المشهد سيتكوّن في رأس رخيمة قبل توما الشحيح النظر. فكّر لحظة في التقدّم بضع خطوات من مكانه ليقف بينها وبين سيارة الاسعاف فيخفي بجسمه التابوت عنها.

كانت تجول بعينيها بسرعة، تفتح فمها، تفكّر.

ضوء الشمس المقتربة من المغيب صار ذهبياً ينعكس بقوة متوهجة من إحدى النوافذ الزجاجية للمقر الصيفي للبطريركية المارونية على شفير الوادي، ينعكس في عينيْ صاحب مقهى الميناء، يغمضهما ويثبت واقفاً.

لا أحد يأتي حراكاً. لا أحد يتكلم.

كان يمكن سماع خرير الماء في ساقية الريّ التي تمرّ بجانب بستان توما.

ميسلون تبكي بهدوء.

توما يضع يده على رأسها، يواسيها.

لم يعرف بعد سبباً لبكائها، يحاول أن يسألها بلطف.

رخيمة رأت الشيطان.

لم ينزل إلى بيروت، يقف أمام بابهم ولا يدخل.

رأت كاسترو واقفاً ينتظر، لم تعرفه.

رأت التابوت بلون خشبه الفاتح اللمّاع.

سقط قلبها.

أدارت رأسها في كل الاتجاهات طلباً للنجدة.

رأت رجلاً من أبناء البلدة بثياب الكاكي، ثياب الحقول، المجرفة على كتفه، يقترب من سيارة الإسعاف وعلامات الاستفهام في عينَيه.

أحد الجيران وزوجته وراءه يتوجهان نحو المكان، بدوا متأكّدَين من جسامة ما يحدث.

كانا يركضان تقريباً.

نزع الرجل العائد من ريّ أرضه عن رأسه قبعّة الفلّين التي تحميه من أشعّة الشمس.

أمسكها بيده اليسرى، رسم باليمنى إشارة الصليب.

تراجع توما عن السيارة ليفسح المجال أمام ميسلون كي تفتح الباب وتنزل.

رأت ميسلون.

رأت وجهها.

رأت التابوت.

رأت ملاكاً أحمر الوجنتَين يرفرف بجناحَيه في سقف كنيسة السيدة يوم عيد انتقال مريم العذراء.

حاولت بيدها اليسرى التمسّك بالباب.

انطوت ركبتَاها، انزلقت يدها نزولاً على حاجب الباب، سقطت جالسة عيناها فارغتان.

فستانها الأزرق السماوي انتشر حولها، فبدت للناظر من فوق مثل وردة اصطناعية كبيرة تفتحت فجأة هناك في ضوء شمس المغيب الساطعة.

هرع إليها الشيطان الذي كان يستعد لنجدتها من اللحظة التي بدأت فيها عيناها تتأرجحان.

التفت توما فوجدها مكوّمة عند عتبة الباب، نظر حوله، من حيث وقف عند باب ميسلون لم يكن قادراً على رؤية التابوت.

مشى باتجاه رخيمة، لحقت به ميسلون، وصل إليه الفلاح العائد من أرضه، أمسكه مع الرجل الآخر كل من ذراع. بعد خطوتين أو ثلاث صارا يجرّانه جرّاً، رأس حذاءه يحفر ثلمَين في التراب.

حدث الباقي ليلاً.

بين توما ورخيمة وميسلون وكاسترو.

انصرف أبناء البلدة بعد أن شعروا بأنه غير مرغوب فيهم فانتشر الخبر، ولما حضر غيرهم في المساء وقرعوا باب البيت، جاءهم صوت توما من الداخل بأنهم ليسوا بحاجة إلى مساعدة أحد ولا إلى مؤاساة أحد. لم يفتحا الباب حتى للخوري جبرايل الذي تأكّد من أن نظام تلقّى سرّ العماد على يد كاهن مَيدون. أقفلا البيت في وجه أي زائر

حتى إن توما رفع مرة بندقية الجفت التي كان يقضي بطلقاتها على الخلد في وجه أحدهم أصرّ على قرع الباب تكراراً و لم ينصَع لصراخه من الداخل. استرق بعض الحشريين السمع فتناهى إليهم أنين توما:

– يا رخيمة من أين جئنا به؟ كانت حياتنا سهلة، أو أموت قبلك أو تموتين قبلي وهذا كل شيء...

انكفأ الناس عنهما فتكاثرت الروايات.

قيل إن شقيقته جاءت به إليهما كي يلقيا عليه نظرة الوداع قبل دفنه وإنه كان مكفّناً من رأسه إلى قدميه على طريقة المسلمين، وإن عمّتيه أصرّتا على دفنه مع عائلته في المقبرة في طرابلس. وقد روى المسلّحان على الحاجز عند مدخل حَورا أنهما شاهدا سيارة الإسعاف تغادر حَورا في العاشرة ليلاً وكانت شقيقته تسند رأسها إلى كتف السائق وهو يقود بيد واحدة ويلف ذراعه الثانية حول قامتها. ويجزم قريب رخيمة على الحاجز أنه رأى التابوت في خلفية السيارة عائداً معهما من حيث أتى.

يؤكد آخرون، وهم الأرجح على حقّ، أنهما دفناه هنا في البستان وأن توما حفر له بيديه، وبالرغم من مرضه وسنّه، حفرة كبيرة لم تستطع رخيمة مساعدته في إنزال الجثمان إليها. قام بالمهمة وحده وكاد يغمى عليه مراراً من الإجهاد حتى طمره بالتراب وسوّاه بالأرض، ويقال إن هذا هو الشرط الذي وضعته شقيقته على توما ورخيمة، أن يدفناه عندهما لكن على الطريقة الإسلامية الصحيحة، أي من دون أيّ شاهد على قبره وصليب أو أي إشارة أخرى وأن يعرفا وحدهما أين هو ولا يريدان لغيرهما أن يعرف. والدليل على أنه مدفون هنا، في البستان، هو العناية المستجدة التي راح يوليها توما للأشجار والورود والتنقية

والرشّ والريّ ولا يُدخل معه إلى البستان سوى أحد العمال الزراعيين الغرباء عن البلدة من وقت إلى آخر يساعده في إبقاء البستان لائقاً بإقامة نظام فيه. ويقولون إن رخيمة لم تعد سليمة العقل فهي ما تزال تصنع المؤونة لنظام وتقول هذه يحبها وهذه لا يحبها وتجمعها تارة لإرسالها إلى بيروت وأحياناً إلى بيت أهله في طرابلس، وإن توما يمضي أوقات فراغه في الاستماع إلى القرآن ولا يتوقف عن أكل المعمول وعندما ينتهي مخزونه منه يغرف السكر غرفاً. ويقول أحد الصبية ممن حاولوا اختلاس النظر إلى ما يجري داخل البستان إن هناك فسحة بين شجرة التوت الشامي وجمّ الورد الجوري تتزاحم فيها اليراعات المضيئة التائهة بكثرة كأنها تضرب فيها موعداً في ليالي الصيف الحارة.